وحي

حبيب عبد الرّب سروري

رواية

دار الساقي

الأعمال الكاملة
t.me/kotbhm

صدر للمؤلف عن دار الساقي:

- حفيد سندباد
- ابنة سوسلوف
- أروى
- الملكة المغدورة

حبيب عبدالرب سروري

وَحْي

دار الساقي

هذا الكتاب مُجازٌ لمتعتك الشخصية فقط. لا يمكن إعادة بيعه أو إعطاؤه لأشخاص آخرين. إذا كنت مهتمّاً بمشاركة هذا الكتاب مع شخص آخر، فالرجاء شراء نسخة إضافيّة لكل شخص. وإذا كنتَ تقرأ هذا الكتاب ولم تشتره، أو إذا لم يُشترَ لاستخدامك الشخصي، فالرجاء شراء نسختك الخاصّة. شكراً لك لاحترامك عمل المؤلّف الشاق.

©دار الساقي

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الورقية الأولى، ٢٠١٨

الطبعة الإلكترونية، ٢٠١٨

ISBN-978-614-03-0139-9

دار الساقي

بناية النور، شارع العويني، فردان، بيروت. ص.ب.: ٥٣٤٢/١١٣.

الرمز البريدي: ٦١١٤ - ٢٠٣٣

هاتف: ٨٦٦٤٤٢ ١ ٩٦١، فاكس: ٨٦٦٤٤٣ ١ ٩٦١

e-mail: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني

www.daralsaqi.com

تابعونا على

DarAlSaqi@

دار الساقي

Dar Al Saqi

لأحمد علي عبداللاه...

"الكلام الأكثر صمتاً يُحرِّك الزوابع، الأفكار الآتية بأقدام الحمائم تَقودُ العالَم".

نيتشه، **هكذا تحدّث زرادشت**

إشفارا: "خلقتُ الكونَ من القوة السحريّة للوهم!"

إشفارا - جيتا، الفصل الرابع

1

أيْ نَعَم، أضحى كل شيءٍ في حياتنا اليوم رقميّاً، ينسابُ في الألياف الضوئية للإنترنت: الغزل والعشق، الثورات والحروب، الاكتئاب والانتحار، **ألْفِيّة ابن مالك** والفتاوى "أون لاين"، أوجه القتلى والموتى الذين نضعهم على الشبكات الاجتماعية دون استئذان، وأيامنا التي تسيل بين أصابعنا ونحن نراكم صورَها، ننشرها، نبعثها للأصدقاء، نمسحها، نؤرشفها، نُضِيعها، ننساها... دون أن نحياها بحقٍّ فعلاً.

كل شيء، بما في ذلك الوحي (أقول هذا وقد رمقتُ على شاشة هاتفي الجوّال رسالةً إلكترونيةً طازجة، عنوانها كلمة مغرية غاوية، تجعلني أفزّ فزّاً: "وحي")!

ألْهاني عن الرسالة الإلكترونية وأوقف تدافع خواطري حول مفهوم هذه الكلمةِ الكثيفةِ المبهمةِ الداكنةِ الفاتنةِ الكأداء (وحي!) نورسٌ يطير على بعد أمتار فوقي، بجناحٍ ونصف، يجاهد كي يرتفع، فيما يهبط باضطراد...

أحد جناحيه مشروخٌ يوشك نصفه على الانخلاع لسببٍ أجهلُه:

صدمةٌ في الجو؟ بماذا؟

عراكٌ هوائيٌ مع طائر آخر حول أنثى؟

سهمٌ ذهبيٌ مُجنّح ضاع من جعبة الإله أبولو، وأطلقهُ صيّادٌ مخالفٌ غير ماهر؟

أم هو نورسٌ من فصيلةٍ يمنيّةٍ عُمانية، عريض الجناحين قصير الريش، ضل طريقه ووجد نفسه في ديارٍ أوروبيةٍ شمالية، لم يتكيّف مع رياحها الباردة العاتية؟

يجاهد ويجاهد، ثم يسقط باتجاه منتصف طريق السيارات الذي يبعد عن مقعدي في المقهى بضعة أمتار.

لعلها ببساطة رسالة إلكترونية دعائية مزعجة، مصيرها سلّة المهملات.

أفتحها؟ لا أفتحها؟...

استحوذني النورس وصراعه المصيري من أجل التحليق بجناح واحد. أسرعتُ مرتبكاً لِتصويره بهاتفي وهو يعارك لمقاومة هبوطه الحتمي العنيد وسط طريق السيارات.

خلفي شواطئ بحر المانش الذي جاء منه النورس، تبعد عن مقعدي في المقهى حوالى كيلومتر.

أمامي، خلف طريق السيارات، باب محطة القطار الذي سأسافر منه، بعد ساعةٍ وقليل، نحو باريس، ومنها إلى نابولي في جنوب إيطاليا.

أمام طاولتي في المقهى مباشرة: سيّدةٌ تعبر الرصيف المحاذي لطريق السيارات. تعبرهُ ببطء لاهتراء جسدها وبلوغها سنّاً تتصلّب فيه المفاصل.

رشيقةٌ جداً مع ذلك. كومةُ شَعرِها أنيقةٌ بلون الملح والفلفل الأسود. نظارتها بإطارٍ ذهبيٍّ، رقيقٍ وجميل جداً. معطفها من فرو زاهر منير، تتخلّله أسلاك صوفية دقيقة داكنة.

وراءها، كما يبدو، تاريخٌ من بهاء الطلعة، وبقايا لمسات جَمال جذّاب لا يمسه الكسوف بسهولة.

قنبلة إرادة!

حالما رمَقتْ النورس، لم يكن ردّ فعلِها اللاواعي تخليدَ منظر سقوطه بصورةٍ بالهاتف الجوّال، لتضعها على "فايسبوك" مثلاً.

ولكن الهرع الآلي إلى منتصف طريق السيارات، بما تيسّر لها من القوة والسرعة، رافعةً يدها ليراها سائق السيارة المواجهة ويتوقف سريعاً كي لا يدهس النورس الذي يترنح الآن على الأرض.

لو كان زمن "السيارة دون سائق" قد بدأ قبل هذا اليوم الذي سقط فيه النورس (في منتصف 2017)، وليس بعد بضعة سنين كما هو مقرّر، ما احتاج أحدٌ إلى الهرع لإنقاذه، لأن كاميرات السيارة سترمقه لا محالة، وستتوقف دون شك، دون الحاجة إلى تدخُّل هذه

السيدة الثمانينية التي أنقذت النورس بالفعل من الموت طحناً أسفل عجلات السيّارة، لكنها...

لكنها ترنّحت مثله على فوسفات الطريق، ثمّ خرّت بعد أن دقّتها السيارة أمام عدسة هاتفي الجوّال.

لم أتجرأ على مواصلة التصوير؛ كنت مصعوقاً فاغر الفاه، كمن يتابع فيلم رعب يتقدّم بسرعةٍ ومفاجآت لا يستطيع مواكبتها. وكان المنظر تراجيديّاً، مؤلماً جداً، قبل أن يصير كابوساً يصعب محوه.

كلّ ما لاحظته بعد ذلك: واصل النورس بصعوبة، بعد أن فقد ملَكة الطيران تماماً، تقدُّمَه مشياً على الأرض، باتجاه موقف سيارات واسع على يسار باب محطة القطار، ليختفي بين عجلات سيارةٍ في الصف الثاني أو الثالث من الموقف، وليقضي نحبه ثمّة بصمت ربما، بعيداً عن البحرِ وضوضاء زغاريد نوارسه وأصداء هدير أمواجه.

قريباً من صفير سيارة الإسعاف التي جاءت لإنقاذ "شهيدة النوارس" المرمية بين المارّة ونادل المقهى، ورواّدهِ الذين توقفوا بوجوم، أو التفوا حول بقعة الدمِ، والنظارة ذات الإطار الذهبي الرقيق.

لُوهافر (المأوى) مدينةٌ وميناءٌ فرنسيٌ مهم تمّ دكّها كليّة في الحرب العالمية الثانية. المدينة الجديدة، رغم رونقها وازدهارها، ترقيعٌ جراحيٌ بالضرورة، ووهم.

كلما أكون فيها، يعتورني نفورٌ ما، وقلقٌ ميتافيزيقيٌ خفيفٌ غامض.

مرّتْ رحلتي منها نحو باريس بالقطار (ساعتين)، ثم إلى نابولي بالطائرة (ساعتين ونصف)، ومنها إلى سورينتو في خليج نابولي بالسفينة (ساعة واحدة)، مرّتْ مسكونةً بصور الشيخة والنورس وهما يلقيان حتفهما على بعد أمتارٍ منّي، وعلى نحوٍ تراجيديٍّ مرعب.

لا أظن أن ثمّة مكاناً أفضل من شُقّتي الصغيرة (صالون واسع، وغرفة نوم بسيطة) في ضواحي سورينتو لمحاولة نسيان المشهد.

أروع ما في الشقّة: شرفة بمساحة الصالون تقريباً موازية له وملتصقة به، تواجه الأفق، تحت سماء مفتوحة.

منها أرى بعيداً: جبلَ فيزوف البركاني، وبحراً لازورياً عميقاً كان الناس في زمن الإغريق يسمعون

فيه غناء حوريات البحر، والجزيرة الميثولوجية الساحرة: إسكيا، مسرح ذلك اللقاء اللذيذ الخالد بين عوليس والأميرة نوسيكا في أوديسة هوميروس.

هوميروس الذي لا يميل إلى الوصف الحسيّ، مثل كاتب **ألف ليلة وليلة**، ويكتفي بشرارات بلاغية خفيّة تأسر وتثير القارئ، مثل: "هيلين، بيضاء الساعدين". لم يبخل مع ذلك، كما لاحظ الجميع، في مدح جمال هذه النوسيكا: "النخلة الشابة"، "مفخرة أبويها"...

على بعد أمتار من شُرفتي: حدائق من أشجار السرو، البرتقال، الليمون، التّين...

طقس صحْوٍ شمسيٍّ ساحر معظم العام. ليلٌ أسود كثيف تسمع في أعطافه عناق الملائكة.

هنا بدأ الفيلسوف نيتشه حياته الجديدة بعد أن استقال من وظيفته: بروفيسورٌ جامعيّ في مدينة بال، منذ كان عمره 24 عاماً! وهنا انطلقت أنَاهُ الأعمق، وانبثقت أفكاره الجديدة (التي عارضت أفكار كتابه الأول **ولادة التراجيديا** وتجاوزتها).

وهنا، من بلكونة فيلّا روبيناسي حيث عاش، كتبَ أحد أهمّ عطاءاتِه الخالدة: **هكذا تحدّث زرادشت**، الذي تدور أحداثه في جزيرة إسكيا الساحرة المواجهة.

الحقّ أن التسكّعَ في الهواء الطلق هنا بين هذه الحدائق، وأمام مناظر بَحْريّةٍ جبليّة كهذه، يُحرّر الروح

ويُلهم العقل ويوهج الوحي، ويُنسي الإنسان كل هموم وآلام الحياة، إلا، كما يبدو، مشهد رحيل النورس، وشهيدتِه السيّدة الملائكية.

لكنه أنسَاني، في كل الأحوال، تلك الرسالة الإلكترونية التي وصلتني قبيل تحليق النورس بعنوانٍ غير اعتيادي، إن لم أقل مثيرٍ للتشنّج: وحي.

تدافعتْ في سراديب دماغي، حول مفهوم هذه الكلمة، وتبلورتْ شيئاً فشيئاً خواطر وخواطر معاكسة، أسئلةٌ وأسئلةٌ مضادة:

لو كان لِوحيٍ أن يتجلّى اليوم لإنسان، ما لجأ إلا إلى بعثِ سيلٍ من الرسائل الإلكترونية، وما راود، لذلك، ذهنَ أحد هذا السؤالَ الساحق العتيق:

ماذا لو كان ما يسمّى وحياً مجردَ حلمٍ فانتازيٍّ أو سراب، أو فيضِ خيال، أو صوتٍ داخلي كذلك الذي يسكن استيهامات بعض المهلوسين، أو لحظةِ تأمل كثيف مرتعش ينبلج منها سيناريو مثير أو فكرة مفصلية؟

أو هذا السؤالَ المنسلخ من خاصرة السؤال السابق، والأشد فتكا وإثارةً للدوار:

هل نعيش (منذ خطر مفهومُ الوحي السماوي ببال الإنسان، قبل أكثر من خمسين ألف سنة) في وهمِ

فرضيةِ غابرةٍ جوفاء، أشبه بقصرٍ مفتوحٍ على السماء، دون أساسٍ ولا أعمدة؟

ولأن لكل سؤال سؤالاً معاكساً، فستتفجّر في الضفّة الثانية أسئلة مضادة بالضرورة:

ألا يحتاج الإنسان عضوياً إلى جُسور توسّع حياته وتربطها بالمجهول و"العالَم الآخر"؟

ما الحياة دون النظر إلى الأعلى، والالتصاق بالسماء، والإيمان بالغيبِ وبالموتِ كبَابٍ ينفتحُ على الأبدية، وبإلهٍ يتّصل بعالَمنا، عبر الوحي، بين حين وحين...

ما حياةٌ كهذه سوى مسرحية دمى كتب سيناريوها برنامجٌ كمبيوتر؟

ثم ستنبثقُ أيضاً بالضرورة أسئلة أخرى، في الضفة الثالثة، أكثر شاعرية وأقلّ هوساً بشؤون العالَم الآخر، بِنَفيهِ أو بِنَفي نفيه:

ما نفحة الوحي إن لم تكن شعلة الإلهام والرؤى، وهي تضطرم وتضيء كل الغرف المظلمة في الدماغ دفعةً واحدة؟

ما الوحي إن لم يكن لحظة اشتباك الدوائر الكهروكيماوية للأفكار واندغامها في عصبونات الدماغ، لِتشعلَ شرارة التجلّي؟

يسقط بعدها الستار الأصم الذي يمنع الوعي عن ابتكار أفكار إبداعية أصيلة، وتصميم عوالم تخّيلية

جديدة. وتبدا نشوة الارتشاف من نافورة الخلق الخصبِ اليانعِ الدائم.

فتحت الإيميل أخيراً:

عزيزي الأستاذ والكاتب غسّان،

لأعرِّفَ بنفسي في البداية، لو سمحت:

أنا شابٌ عشريني. اسمي التنكّري في هذا الإيميل: وحي!

أسكن في قصرٍ ثريٍّ جداً (في إحدى الدول الغنيّة المحيطة باليمن)، أكرهه من كل قلبي لأنه سجنُ كل حياتي وجهنم كل عذاباتي، صاحبُهُ "رأسٌ كبيرٌ جداً جداً": أبي، له سلطةٌ وثروةٌ ونفوذٌ لا يمكنك تصوّره.

لا أستطيع أن أكشف أكثر من ذلك. ثمّة من سيعاقبني أشدّ عقاب وأسوأه، لو اكتشف بَوْحِي بِهويّتي.

أحاول هنا أن أبعث لك هذه الرسالة الإلكترونية، أستاذي العزيز، بعنوان بريديٍّ إلكترونيٍّ جديدٍ لا يعرفه أحد، وبطريقة ملتوية لا تمرّ عبر جهاز رقابة القصر.

قرأت كل رواياتك الثلاث، ولاسيما الأخيرة، "حياة ثانية"، التي كتبتَها قبل نحو عشر سنوات.

لماذا لم تواصل نشر الروايات بعدها؟ يؤسفني أنك توقّفت.

روايتك الأخيرة أثّرت في حياتي كثيراً، لتشابُهِ معاناتي مع معاناة أحد شخوصها.

لن أضيف أكثر؛ أسبحُ في ثراءِ مقزِّزٍ فاحش، لكنني سجين القصر، لا أستطيع إطلاقاً مغادرته بحرية، دون حرسٍ وحركة محدودة مُراقبَة. وأي مخالفة بسيطة منّي، أو محاولة تحرّرٍ طفيفٍ جداً، تواجه بعقوبات لا يمكن أن تخطر ببال.

بماذا أبدّدُ وقتي؟

بالقراءة. ولكي لا يسيل وقتي بين أصابعي عبثاً، ولكي أطوّر معارفي الشخصية، أقضي ساعات يومية في ترجمة بعض الصفحات في موسوعة "الويكيبيديا" على الإنترنت، إلى العربية، وأضيفها رسمياً إلى الموسوعة.

أتحدّثُ بضع لغات أجنبية بطلاقة، وأمّي سيدة أوروبية، لا أحب تحديد بلد ولادتها، أو الحديث عنها بأي حالٍ، حتى لا أكشف هويّتي أكثر، وأنال أسوأ عقاب وتعذيب وعذاب.

لعلّك لاحظتَ، عزيزي، أو ستلاحظ أنني كتبتُ صفحةً عن سيرتك الذاتية، وأضفتُها إلى

"الويكيبيديا"، بالإنكليزية والفرنسية والعربية. أخبرني ما رأيك بها، وما تودّ أن أضيفه أو أعدّله.

أعرِفكَ في الحقيقة، عزيزي، قليلاً أو كثيراً. ليس من رواياتك، لأنك غير موجودٍ فيها فعلاً بسِيرتك الحقيقية، ولا من مقالاتك ودراساتك لأنك غائبٌ فيها تماماً. ولكن من مراسلاتي بالإيميلات مع بعض أصدقاء طفولتك: تمكّنتُ بفضلهم من معرفة شذرات من سيرتك الذاتية الحميمة.

أبعث لك هذا الإيميل، أستاذي العزيز غسّان، لأنني مستغربٌ جداً لماذا لم تكتب حتّى اليوم نصّاً عن حدثٍ مرّ في طفولتك وغيّرَ مجرى حياتك جذرياً: وصول الشيخ الصوفي الكبير "الذي يجيد الحديث بلغة الملائكة" إلى جامع العيدروس بالحواشب، حيث قرية ولادتك "طور الرعد" في جنوب اليمن، قبل سفرِك للحياة في عدَن؟

أنت حرٌّ في رفض الردّ على إيميلي، أستاذ غسّان.

لكن، إذا فكّرتَ في الرد، فهناك بروتوكول يحلو أن نحترمه معاً على الدوام، رجاءً:

1) إذا لم تعقّب على أي إيميل لي، فلن أبعث أي ردٍّ لاحق بعد ذلك. لأن ذلك يعني بالنسبة إلي رغبتك في انتهاء التفاعل، وانقطاع العلاقة.

أي أنني لن أكون يوماً عبئاً عليك. والتخلّص مني سيكون بنعومة، في منتهى السهولة، بين عشيّةٍ وضحاها.

2) لا تحاول، لو سمحتَ، بعث أي استفسار عن هويّتي. يزعجني ذلك أستاذي العزيز، وأرجو أن تقدّر وضعي وتحترم أحاسيسي، وخوفي من أن أضيف أي تفصيلٍ صغيرٍ عن حياتي لما لمّحتُ به هنا. وإذا قرّرتُ إضافة شيءٍ ما، فسيكون برغبة ذاتية مني، دون أي إلحاحٍ أو ضغطٍ ما، أو مجرّد استفسار (رجاءً ألا تبعث أي استفسار كان).

لا أتوقّع أن يكون لنا لقاءٌ مباشرٌ يوماً ما.

شبه مستحيل ذلك، بل مستحيل جداً بالنسبة إلي. وإن صار له أن يحدث، فلأن نواميس الكرة الأرضية وحركات كواكب الكون ستكون قد تغيّرت. وسأحدّثك عن إمكانية ذلك، حينئذ فقط.

لكنني طالما تمنّيتُ في أعماقي اللقاء بك، وحلمتُ به طويلاً.

تقبّل أعذب تحياتي.

وحي

رسالةٌ في منتهى الغرابة، أقلّ ما يمكن القول عنها: شَرَكٌ شاهق.

هرعتُ أولاً نحو "الويكيبيديا" لأتأكّد؛ ثمّة فعلاً صفحة سيرة ذاتية عني، أنا غسّان العثماني، بلغات ثلاث. مهنيّةٌ جداً، ما كان لي أن أحرّرها بنفسي بهذه الجودة.

خفق قلبي إعجاباً بوحي، وامتناناً عميقاً له. سعدتُ كثيراً في الحقيقة، وليس لديّ مقترحٌ بتغيير حرفٍ واحدٍ فيها.

إذن، يصعب تجنب الردّ على الرسالة وإن كانت باسمٍ تنكُريٍّ (بُزّر استخدامه) للشكر على هذا الجهد الأنيق الممتاز، على الأقل.

"رأسٌ كبيرٌ جداً جداً"، قال وهو يتحدَّثُ عن أبيه. عبارة ملغّزة: طاغيةٌ هاربٌ من اليمن؟ قائدٌ عسكريٌّ رفيعٌ خطيرٌ جداً، أو ملِكٌ أو سلطانٌ أو أمير، أو تاجرٌ لا حدود لأملاكه؟ مُفتٍ عربيٌّ ظلاميٌّ كبير؟...

أردتُ الردّ السريع على سؤالٍ وحي حول الكتابة: لماذا لم أواصل كتابة ونشر الروايات بعد روايتي الأخيرة "حياة ثانية"؟

تخطر ببالي يومياً بعض التأملات والأفكار. أدوِّن بعضها وأشذّبه باهتمام، دون أي هدف محدد.

أنشر ما تيسّر من المقالات والدراسات، لكن ليس لي مشروع رواية جديدة يجذبني حقاً، ولاسيما بعد أن تحوّلتُ عبداً تُخدِّرهُ شبكات التواصل الاجتماعي، أنهلُ منها، أتفاعلُ مع الجميع، حول كل شيء ولا شيء، دون توقّف، ولاسيّما منذ تفجُّر ثورات الربيع العربي في 2011.

ناهيك عن أنني لا أعتبر الكتابة مصيراً نهائياً للكاتب.

مشروعي الوحيد الهائل الذي أعيشه منذ صغري: هندسة وتشييد عالَمٍ تخيّلي أسميته "مايا" لا يخطر ببال. عالَمٌ بمليون لون، بمليون شلّال، بمليون قُبلةٍ في كلّ ركنٍ وطريق...

أبنيهِ يومياً شارعاً شارعاً، بيتاً بيتاً، أخطّطه وأعمّره وألوّنه وأؤثّثه بأجمل البشر. يبدو عالمنا الأرضي بالمقارنة به مهزلةً بائسة.

كل ما أحتاجه أن أبدأ سرد ملامحه وتفاصيله وجغرافيته ونظام حياته، ونماذج من سيرات سكّانه وطرق حياتهم وتفاعلاتهم، بالكلمات، في سلسلة صفحات لا تنتهي.

أردتُ أن أضيف لِوحي هذه العبارة: "ثمّ لماذا أكتبُ وأنا أعيش حالياً أروع سنوات حياتي وأجملها برفقة وهجِ حياتي، معشوقتي الأبدية، وأروع ما وهبتهُ الحياةُ

لي: شُهد التي أنتظر وصولها إلى سوريبتتو؟"، لكنني ألغيث ذلك سريعاً، كأنني لا أودّ ذكر اسم شُهد!

3

ارتبكتُ بعد إعادة قراءة الرسالة الإلكترونية أكثر من مرّة.

كل شيءٍ فيها مثيرٌ مدهشٌ فريد، ولاسيما عنوان الرسالة واسم صاحبها التنكُّرِي: وحي.

صاحبها أم صاحبتها؟

وحي اسم مذكّرٌ بالعربية، لكنه، وفق معرفتي، يُطلَقُ على الإناث فقط!

أذلك لأن الوحي أنثى؟

أقصد: أذلك لأن الوحي، إن كان ثمّة وحي، لا يمكنه إلا أن يكون أنثى؟

ثمّ لماذا اختار (أو اختارت) هذا الاسم؟

بدأتُ أشك في أن الرسالة المبعوثة كتبتْها أصابع ذكر. ثمّة في الأسلوب رقّةٌ أنثوية، عطاء أنثوي، سلاسة أنثوية، تصميم أنثوي يعرف توجيه اللعبة بذكاء، وموسيقا روح أنثوية رقيقة بارعة، يستحيل مقاومة عرضِها أو رفض الإصغاء إليه.

ناهيك عن نغمتها اللاذعة التي داعبتْ نرجسيّتي وأجّجت عواطفي: "لكنني طالما تمنّيْتُ في أعماقي اللقاء بك، وحلمتُ به طويلاً".

وكذلك "أعذب" التحيات في نهايتها: منتهى العذوبة.

سببُ شَكّي الرئيسي أن "أحد شخوص" روايتي الأخيرة، الذي تحدّثت رسالة وحي عن معاناته، كان أنثى: بطلة الرواية!

لماذا لم يقل (أو تقل) وحيٌ: "بطلةَ الرواية" بدلاً من "أحد شخوص"؟

بالطبع، يمكن أن يمسّ الاغتصاب (الذي انتهك طفولة بطلة الرواية وعذّبها) شاباً أيضاً، لكن يبدو لي أن هذا الاعتراف الضمني بجرحٍ ذاتيٍّ غائر في أعماق وحي، منذ أوّل رسالة، بوحٌ أنثويٌّ خالص؛ وأن اللجوءَ إلى قول "أحد الشخوص" لاتّقاء التلميح إلى جنس "بطلة الرواية" محاولة أنثوية فاشلة لدعم استخدام ضمير المذكّر عند التمويه...

ألاحظ: زمام المبادرة في توجيه دفّة هذه الإيميلات بِيد وحي؛ هو (أو هي) وحده من حدّد بروتوكول استمرارها، وطريقة توقيفها في أي لحظة.

نسيتُ: سطور الرسالة منقوشة بألوان ثلاثة: أسود، أحمر، أزرق. هذا التلوين في الإخراج (الذي سيستمرّ على المنهج نفسه طوال مئات الرسائل التي سنتبادلها: للعبارات المهمة لونٌ أحمر، للاستشهادات وعناوين الكتب لونٌ أزرق، ولبقية النص لونٌ أسود)، وهذا الاختيار الجمالي الدائم لنسق الكتابة المتميّز، وأنماط

حروفها الجذّابة، وفلسفة تنقيطها الخاصة والجميلة جداً: مزاجٌ أنثويٌّ خالص، وعرضُ أزياء نسويٌّ أنيق.

لكن الأكثر إذهالاً في الرسالة: قصة جامع العيدروس (كتبتْ فقرَتها باللون الأحمر!).

صحيح أنني حكيتُ القصة لعدد من أصدقاء طفولتي الذين استطاع (استطاعت) وحيُ استنطاقهم، كما يبدو. لكن لم ينتبه أحد منهم يوماً إلى أهميتها المفصلية.

قضّيتُ يومين، بعد قراءة رسالة وحي، أستعيد تفاصيل هذه القصّة الجذريّة، أسردها وأعيد صياغتها، لأبعثَها مكتوبةً لوحي، كما لو كنتُ روبوتاً يستجيب لتعليمات سيّده بخضوعٍ مُطلَق، أو كما لو كنتُ شاعراً مسكوناً بصوت داخلي، يحرّكُ قريحتَه وإلهامَه بـ"الريموت كونترول"، جنيٌّ من قبيلة بني الشيصبان، في وادي عَبْقَر الشهير في اليمن، حيث لكلِّ شاعرٍ عربيٍّ قديمٍ قرينٌ من الجنّ هناك، يلهمهُ عند قرض الشِّعر، ويتناوب معه في إنتاج أبيات القصيدة:

ولي صاحبٌ من بني الشيصبان
فطوراً أقولُ، وطوراً هوَ

أو كما لو كنت دانتي أثناء رحلته إلى الفردوس، في **الكوميديا الإلهية**، تقودهُ بياتريشي وتُلهمهُ "ربّات الإلهام". يلتمس معونتهنّ ويستعين بهنّ لكتابة أناشيد الرحلة.

ما إن وصلَت شهدُ إلى الشقّة، قُبيل رحيلنا لقضاء أسبوعٍ في جزيرة إسكيا، تليهِ رحلةٌ طويلة في بقية خليج نابولي، حتّى قرأتُ لها نصّ رسالة وحي.

ذهولٌ ووجوم!

قرَأتْ شهدُ وأعادتْ قراءة الرسالة مرتين قبل أن تقول لي: "هذه أنثى! انتبهْ، ثمّة شيءٌ يخيفني في رسالتها المقنّعة: فتاةٌ بهذه الدراية بتفاصيل حياتك، وبهذا الاهتمام بشخصك وسيرتك وكتاباتك، وبهذه المفاجآت والمناورات في صياغة السرد ومنحاه، وبهذا التصميم على الذهاب بعيداً في التفاعل معك، وبهذه الأشواق الحميمة المغلّفة لرؤيتك... تقلقني فعلاً".

ثمّ أضافت شُهدُ بعد تردّد: "تقلقني هذه الفتاة كثيراً. من الأفضل تجنب الرد عليها...".

عقّبتُ بكل هدوء: "لكنه رجل، يكتب بضمير المذكّر!".

"يستحيل ذلك، هذه رسالة أنثى"، قاطعتني بحدّة.

ثمّ فكّرتُ طويلاً قبل أن تضيف بصوتٍ أقل عصبيّة: "لا ترد عليها حبيبي، أرجوك. اعتبرْ ذلك طلباً شخصيّاً مني، من أجل خاطري! موافق؟".

– حاضر، شهدي.

كنتُ قد عقّبتُ على وحي قبل مجيء شُهد بنَصٍّ عن حادث جامع العيدروس. وردّتْ وحي بتعليق طويل على النص وتصحيح فني دقيق له عبر رسالتين ثريتين،

كلتاهما بالألوان الثلاثة البهيجة، وبأنماط الحروف المختارة نفسها بمزاجٍ جميل. دخلنا خلال تفاعلنا في ورشة جدلٍ فكريٍّ لغويٍّ إنسانيّ ما أروعهُ وأرقّهُ وأجملَهُ وأبهاهُ وأثمَره!

ثمّ عقّبتْ بنصٍّ جديدٍ في صيغةٍ شبه أخيرة، قبل صيغةٍ منقّحةٍ مكتملةٍ نهائية، عشية وصول شُهد.

ثم ردّت وحي هذا الصباح برسالةٍ تُفجّر أسئلةً خطيرةً جديدة، كأنها حورية بحر تجرّني إلى مزيدٍ من تأجيج تأملاتي الذاتية، وحَفْري في الذاكرة، واستبطاني تجاربي في الحياة ورؤيتي للعالَم، والسمو بها ودفعها في اتجاهٍ ما (هي، وحي، من تُموسِق إيقاعَه)، قبل تهذيبها وسردها نصّاً على الورق.

لم أكن يومذاك، في الواقع، متأكدا جداً، وعلى نحو مطلَق، أن وحيَ فتاةٌ فعلاً.

لكن، ذات مرّة، بعد أشهر من رسالتها الأولى، استخدمتْ دون وعي ضمير المؤنث عند الكتابة، في لحظةِ جدلٍ كثيفٍ، في معمعان إيميلات تبادلناها بِتوالٍ متسارع.

ثم تكرّر حديثها بضميرِ الأنثى مرّة أخرى في ظروف مشابهة جداً، بعد بضعة أشهر من هفوتها الأولى...

لذلك سألجأ بثقة مبرّرة إلى صيغة المؤنث عند الحديث عن هذه البدويّةِ – الأوروبية: الآنسة وحي، أو

السيدة وحي، لا أعرف.

في قرية ولادتي في الحواشب جامعٌ أبيض صغير، بجواره قبر وليٍّ صالح، ينحدر بيولوجيّاً مباشرة (كما يقولون) من النبي محمد، ومن جهة البطنين معاً: الحسن والحسين.

ترعرع في هذا المسجد معظم شباب قرية ولادتي، تعلّموا فيه، وحفروا جذور ومداميك رؤيتهم للحياة ونظرتهم إلى العالَم.

هو منبع مياههم الارتوازية السفلى، ومحيط طبقاتهم الجيولوجية الأعمق.

إمام المسجد كهلٌ فخم الصوت، قوي الشخصية، مفتول الجسد. يخشاه الجميع. له بنتان وأولاد ثلاثة، أحدهم بعمري، أكبرهم يزيد عني بسنة، وأصغرهم ينقصني بسنة.

أكبرهم وأوسطهم صديقان حميمان لي، وأصغرهم صديقٌ لدودٌ لي وعدوٌّ حميم في الوقت نفسه.

في منتصف الستينيات من القرن الماضي، كنت أراود العاشرة من العمر. وكانت قريتنا، "طور الرعد"، وكل منطقة الحواشب، تنتظر وصول وليّ الله الصالح: الشيخ نور الدين القدَسي الهاشمي، ذي المقام الذي لا

مقام بمقامه، لأنه "الوحيد في هذا العالَم، الذي يتكلم اللغة السريانية، لغة الملائكة"، كما علّمنا إمام جامع العيدروس.

لهذه الكلمة السحرية الغريبة، "السريانية"، ترانيم موسيقية سرَتْ وتراقصَتْ في عروقي.

كفاني سماعها، وتعريفها بأنها لغة الملائكة (لم تكن موسوعة "الويكيبيديا" موجودة آنذاك، لأدركَ أن معناها الحقيقي لا علاقة له بذلك)، لِخلعِ أي شك في أن هناك ملائكة تملأ السماء فعلاً، لهم لغةٌ محدَدة خاصة كم أتمنى الإصغاء إليها.

ناهيك عن أن ثمّة إنساناً وحيداً أوحد يتكلمها، سيترك قمم جبال قَدَس، شمالي اليمن، ليأتي إلى قريتنا في جنوب اليمن، وليزور ولي الله الشيخ عثمان العيدروس الذي لا يمرّ يوم دون أن نعبر قرب ضريحه المطلي بالنورة البيضاء، والملتصق من الخلف بجامعنا الأبيض الصغير...

"لو لم يقل الرسول محمد إنه آخر الأنبياء، ويقطع الطريق على الجميع، لتمّ اعتبار الشيخ نور الدين نبيّاً بالتأكيد، لأنه يرطن مع الملائكة بلغتهم مباشرة، ولا يحتاج، هو، أن يتحدّث جبريلُ معه بالعربية أو بالعبرية، كغيره ممن تناطقوا مع جبريل، في قديم الزمان وسالف

الأوان!": بديهيّةٌ لم نحتج، نحن أطفال وشباب قرية "طور الرعد"، أن يُفصِح لنا بها أو يبرهنها أحد.

ولذلك كنّا جميعاً، أطفالاً وشيوخاً، ننتظر قدوم مولانا الشيخ القدَسي بِلَوعَةٍ ورجفات، منذ أشهر قبل وصوله.

كنت خارج القرية مع قريب لي، يوم أطلّ مولانا عليه السلام. حالما سمعنا بخبر وصوله، هرعنا عائدَين معاً نحو القرية. فوجئنا بالجموع الغفيرة التي تحيط بجامع العيدروس من كل مكان حاملةً كل ما لديها من هدايا ومأكولات لوَليّ الله الأكبر ومرافقيه...

كان محالاً رؤية الشيخ نور الدين مستلقياً على أرضية المحراب، على بُعد مترين منه، صفّان من ثلاثين رجُلاً رافقوه من جبال قدَس بثلاث سيّارات، يحرسونه ويحملونه مضطجعاً على قاعدة سرير خشبي كأنه جثّة، يدخلونه السيّارة ويخرجونه منها محمولاً على أكتافهم. لعلّه لا يستطيع المشي، كما أظن.

يبدو على رفقة الشيخ الارتياح من كرم الهدايا التي وصلت، وتقاسموها مع إمام المسجد، كما أظن.

بعد وجبةٍ مُثخنةٍ باللحوم، خدوذهم المتورمة بِكُراتِ القات تنتفخ بإفراط، تلمع وتتلألأ في هذا العصر الغائم اللطيف. سطْلَتُهم وسعادتُهم من بحبوحة الضيافة جَليّتانِ للعين المجردة.

هذا الصباح، أمطرت السماء التي طالما انتظرتْ قريثنا مددَها أيضاً. أليس ذاك دليلاً آخر على معجزات الشيخ نور الدين الذي قضّيتُ أشهراً أتمنّى، بصبر فارغ وبشوقٍ ملتهب، رؤيته وسماعه يرطنُ السريانية مع الملائكة؟

كان مستحيلاً أن أشقَ طريقي وسط الجموع لأقترب من إمام جامعنا وابنه الأصغر عبد القهّار، اللذَين يلعبان دور الجسر بين وليّ الله الصالح الأكبر (المحاط بسياج منيع من صفّين من الحرسِ المسطولِين بدوخة القات، وبنعمة موائد اللحم التي "تتقرقر" في البطون)، وبين جموعِ الزوار الخاشعين الآتين من كل قريتنا وحواليها في الحواشب، للتقرّبِ من الشيخ، ولمسهِ ولو بأطراف الأصابع، هو الذي رافقت طلوعَ بدرِهِ علينا تحياتٌ مباركاتٌ طيبات من السماء: ثلاثة أيام من مطرٍ لم ينقطع، زاد تفاني الناس في حبِّ مولانا وتقديسه (وإن كنّا حينذاك على حافة موسم الأمطار).

وكان من المحال أيضاً أن أطلب من معروف في الجامع أن يتوسّط لي عند عبد القهّار، الابن المدلّلِ لأبيه، ويرجو منه أن يفتح لي طريقاً للاقتراب من المحراب، لرؤية الشيخ ولو بلمحة عين فقط: عبد القهّار لا يطيقني من قريب أو بعيد، وإن كان لا يكرهني بحق بالضرورة.

وكنتُ لا أطيقه كثيراً أيضاً.

لأنه كان، على الأقل، مُخبِر أبيه، يقدّم إليه التقارير اليومية حول كل صغيرةٍ وكبيرة، ولاسيّما حول حركات وسكنات أخوتِه.

وما كنتُ لأتوسّله هذه المساعدة، لأن لي "ماءً دافقاً في الوجه"، وليس بيننا، الاثنين، غير تنافرٍ صامتٍ عتيد.

أخوه الأكبر عبد الله ليس هنا لأطلبه مساعدتي للاقتراب من المحراب داخل الجامع؛ كان في عدَن لقضاء أمورٍ كثيرة لِوالده.

أما أخوه الأوسط، عبد الباري، فكان غريب الأطوار، في علاقة غير سهلة أو سعيدة مع أبيه. لعلّه كان وسط الحشود يتأمل المشهد، لكن لا حول له ولا قوّة، ولن ينفعني قيد أنملة في الاقتراب من المحراب.

ثمّ تذكّرتُ أن للمحراب باباً خشبياً صغيراً جداً، يؤدي إلى خارج الجامع. مغلقٌ بقفل صدئ لم ينفتح منذ عرفتُ نفسي. وبقرب القفل ثقبٌ صغير، حفَرَه بمسمار صلب، ذات يوم، صديقٌ مشاكسٌ لم يعد يعيش في قريتنا. يسمح الثقب، من خارج الجامع، برؤية ما تيسّر من المحراب.

حفَرَهُ لـ"مراقبة أشياء خطيرة تحدثُ في كواليس المحراب"، كما قال صديقنا المشاكس يوماً.

لعلّي لم أصوّب نظري من ذلك الثقب، نحو مركز المحراب، منذ سنين. ولا أظن أن أحداً رأى ذلك الثقب، أو خطر بباله التلصص عبره على محراب جامعنا المتواضع، عدا صديقنا المغوار الذي لم يعد في طور الرعد.

بعد أن فقدتُ الأمل بالاقتراب من الشيخ نور الدين، وتفحُّصِ قسماته والتبرك بالنظر إليه، واستنشاقه والإصغاء إليه وهو يتحدّث بلغة الملائكة، أو حتّى رؤيته عن بعد، تركتُ مدخل الجامع.

درتُ خارجه نحو الباب الخلفي الملتصق بالمحراب، لأقرفص أمامه، لأضع عيني على الثقب، وأرى ما أستطيع إليه سبيلاً.

حدثَ شيءٌ فظيع وأنا أشاهد بأمّ عينيّ ما يدور أمامي، سيكون له أثر حاسمٌ فيّ، حتى لا أقول: "سيغيّر اتجاه بوصلة حياتي".

الرجل المضطجع على أرض المحراب لم يُثِر في ناظري أدنى انطباعِ تعظيمٍ أو إعجاب، اللهم إلا قليلاً من الشفقة والتعاطف، بعد ثوانٍ قليلة من التمعّن فيه.

لم أره كاملاً في الحقيقة، جزءٌ جانبيٌ من وجهه، لا غير. بدا الشيخ منه بسيطاً جداً، نحيفاً رثّ الثياب، أشيب اللحية، شبهَ مريض، لا يتمتم بين حين وحين إلا

سلسلةً من أحرف العلّة (أهذه لغة الملائكة؟) بين نفسهِ ونفسه.

عيناه زائغتان، لا يبدو غير بياض إحداهما وهو يتماوج على نحو مقلق.

رثيثه، لا أكثر ولا أقل.

ما أثارني فعلاً هو ما يفعله إمام الجامع وسفينته الفضائية عبد القهّار: يقترب الإمام ومعه ابنه، من وجه الشيخ، يهمس له بتمتمات لا أظن أن لها دلالة ما، ثم يتظاهر بالإصغاء لما يقوله الشيخ (لا يقول هذا شيئاً، وأنا أراقب ذلك المشهد المسرحي من خلف الثقب، على بعد متر وقليل فقط).

ثم يتوجه الإمام نحو الحشد وهو ينقل لهم بصوت خاشع ما قاله حضرتُه (أو ما لم يقله قط، على الأحرى): أدعيةٌ تقليدية، أبياتُ شعر مكسّرة ركيكة، ذات خللٍ إيقاعي خطير، من تأليف إمام المسجد نفسه، الذي لم يستوعب بعدُ قوانين أوزانِ الشعر ونظام تركيب القوافي.

يبكي الإمام خشوعاً وهو يردد أبياته التي ينسبها إلى الشيخ الصامت، وتبكي الجموع من عظمة وقدسية هذه اللحظات التي تربط قريتنا الضائعة بين جبال الحواشب بالملائكة وعلّيين وحَسُنَ أولئك رفيقاً! ويبكي الخليل

الفراهيدي وسيبويه لانتهاك بحور الشِّعر وقواعد النحو على يد إمامنا الجليل، بكلِّ هذه البساطة!

كل هذه المسرحية تدور أمام عينيّ على نحوٍ يصعب تصديقه. أتابع تفاصيلها منذ أكثر من ربع ساعة: الشيخ مدوِّخٌ في عالَمه، مريضٌ ربما أو نصف مجنون، أشهدُ أنه لا يقول شيئاً ذا معنى، عدا تمتمات بين حين وحين كلّها أحرُف عِلّة، إن لم يكن صامتاً كلَّ الوقت.

والإمام في ذهاب وإياب، بينه والجموع التي تُسبِّح وتدعو وتبكي وهي تصغي إلى ما يقوله الشيخ عبر رسولِهِ الذي يعرف كيف يشعلُ أحاسيسها الدينية بعبارات تقليدية من خطب جمعاته، وبتضرعات يتقطّع لها نياط قلوب الحاضرين، وبأبيات شعر صوفي لا يفهم منه الحاضرون شيئاً، ولا يلاحظون أنه مركّب بالخطأ، غير موزون بدقّة.

كلّ هذه المسرحية تدور خلف الباب، أمامي.

تركتُ الثقب، ذهبتُ نحو الحقل الصغير المجاور، قرفصتُ تحت شجرة الدوم[1]، أضحك أو أبكي، لا أدري.

1 الكرز.

انكسر شيءٌ ما في أعماقي يومها، انكسر إلى الأبد.

بعد خمس دقائق تقريباً، تذكّرتُ أن هناك ثقباً آخر صغيراً موجوداً في أعلى قبّة المسجد. دهمتني رغبةٌ

في تسلّق القبّة لرؤية الشيخ كاملاً من الأعلى، وليس جانبياً كما كنت أراه.

همّي ليس مشاهدة مسرحية إمام المسجد وابنه الأثير التي بدأت تثير غيظي وأعصابي قليلاً، لأنها فعلاً كذبة وقحة بحجم السماء. لكن لأن في نظرات هذا الشيخ المريض ما يثير تعاطفي وشفقتي وحب استطلاعاتي.

صعدتُ فوق ضريح الجامع، وتسلّقتُ الماسورة المجاورة لباب المحراب المثقوب ذي القفل الأغبر باتجاه قمّة القُبّة.

لم يرني أحد لأن كل الناس متكدّسون في الجهة الأخرى من الجامع: داخله أو محتشدون قرب بابه الرئيسي.

التصقتُ بعلياء القبّة، واضعاً عيني في الثقب، لأحملقَ عمودياً باتجاه الشيخ المسكين، المنبطح وسط المحراب، أسفلي تماماً. ولأستكمل رؤيتي الجانبية له، من ثقب باب المحراب، قبل قليل.

أرى كإلهٍ ما لا يراه الآخرون. رؤيةٌ حيّةٌ مباشرةٌ كليّة، جانبيةٌ وعمودية، "ستغيّر اتجاه بوصلة حياتي كليّة" فعلاً.

أغمسُ بفضلها يديّ في أمعاء الحقيقة دون وسيط. أتغلغلُ في مساماتها، في تلافيفها، في شعيراتها

الدمويّة، في نخاعها الشوكي...

كلّ ما عدا ما أراه الآن، من هذا الثقب، محض تضليلٍ مزيّفٍ كاذب. مثل كلّ ما نعتقد أنها حقائق مطلَقة، في حين أنها "لا أشياء صغيرة"، وفق تعبير شكسبير.

كنت أرى الشيخ الجليل كاملاً هذه المرّة. لم يعد يُهمّني إطلاقاً منظرُ ذهاب وإياب إمام الجامع، برفقة كتكوتهِ عبد القهّار، ولعبهِ دور جسر الواسطة بين الشيخ الأعظم وبين مريديهِ وعشّاقه.

ولا منظرُ سياج فريق الحواريين الحرّاس المسطولين الذين يحيطون بالشيخ، ويعيشون فقط من هدايا وصدقات أهالي القرى الذين ينتظرون وصولَه، هنا وهناك في كلّ أرجاء اليمن، كي يسردوا في حضرتهِ وابلاً من الدعوات الدينية بالرزق والفرج والعافية، ليُعمّدها ببركاتِه، ويكرمها بهطول مددِه وأمطارِه، ويضمن استجابة الله لها.

ما كان يجذبني بشدّة التحديق بالشيخ لا غير. شَفَطَني نحوه شيء ما وأنا أراه غارقاً في نشوةٍ حقيقية، مثلَ مُخدّرٍ أو محلّقٍ في عالَمٍ بعيد.

لم يكن ينظر نحو الإمام الذي يروح ويجيء إليه، بل لم يعره أدنى اهتمام. كان الشيخ كمن يسافر ويهيم في فراغٍ ما، مفعمٍ بعوالم خيالية لا نراها، من يدري!

كان مندمجاً في عالمِه التخييلي، يتأمّل في أبعاد فضائية خفيّة، كما يبدو من حركة عينيه الزائغتين وقسماته المُمغنَطة.

أبهرني وأسَرَني ذلك التأمل بشيءٍ مجهولِ حدّ الالتصاق كلّيّاً به، بل حدّ الاندماج العضوي الذي يوحِّد بين الحسّ والمادة (كما يقول النحّاتون وهم يتفاوضون مع طرفي هذه المعادلة)، بين الفكرة والكلمات، بين المتأمِل والمتأمَّل، و"الذي يجعل كلَّ الأنهار مقدَّسةً مثل نهر الغانج، ويُحوِّل كلَّ عبارةٍ آيةً إلهية"، كما يقول حكيمٌ هندي.

غرقتُ في نظرات الشيخ التي تبدو كما لو تخترق كرةً كريستاليةً ما. أصغيتُ إلى الأصوات التي تضجّ في سراديب صمته. أبحرتُ بعيداً على إيقاع وحركاتِ عينيهِ وأصابعه. شعرتُ رويداً رويداً أن هناك ثقباً لا مرئياً يمكن النظر منه إلى قارّة لا نهايةَ لفضائها: قارة الخيال واللاوعي والخروج عن النص.

تساءلتُ بعد ذلك اليوم وبعد سنين من هذا الحادث: في أي عالَمٍ كان الشيخ يطوف ويتسكّع خلال تأمّله العجيب؟

أهذا هو الجنون الخالص، أم "عِلْم الباطن" الذي يسمح بالقبض على تلافيف كبد الآلهة؟

إلى من كان يوجّه تلك الابتسامات العميقةِ الراقصةِ على محياه، بين حين وحين؟

لم أجد جواباً لكنني هندست جوابي كما أشتهي، بعد سنين طويلة من حادث الجامع، وبعد أن تعلّمتُ فنّ صناعة عوالمي التخييلية، أنا وحدي:

كان الشيخ شاباً يسبح في لجّ بحيرة ناصعة الزرقة، تحت سماء بسبعة شموس. الفجر مشتعل الألق. ضياءٌ ربيعيٌّ يتبرعم في السماء. في طرف البحيرة أفقٌ أرجواني، ومليون عصفورٍ ذهبيّ قادمٍ نحو طرفها الآخر، حيث تفترش غابة من الأشجار والنخيل ذات الألوان التي لا تشبه ألوان أشجار الأرض: بيضاء، حمراء، فضيّة، بنفسجية، زرقاء، ياقوتية، زيتونية، زمردية، برتقالية، نحاسية، عسلية، رمادية...

وورودٌ مرجانية، حمراء، كحلية، ذهبية، بيضاء، فيروزية، صفراء، زرقاء، ليمونية، خردلية، قرمزية...

تسبح بجوار الشابّ معشوقتهُ التي أسميتها: ابنة الماء والنار. جمالُها جذوةُ ذلك الفضاء الساحر، وهجُه، موسيقاه.

حول الغابةِ جبالٌ بألف لون، يتخلّلها ألف شلّال، تقترب منها أسراب ملايين العصافير الملوّنة الساحرة القادمة من الأفق.

سيمفونية لدنّيَةٌ تملأ الفضاء...

أطلقتُ على ذلك العالَم اسم "مايا"، أي "الوهم"، بالسنكريتية، أو بمدلولِ سنكريتيٍّ مرادفٍ آخر: "قوة الخلق السحريّة".

لعلّي لذلك لم أكفّ عن محاولة تخيّل هذا العالم العجيب، وعن تشييده يوماً بعد يوم، منذ ذلك الزمن.

صرتُ مثل إشفارا، وهو يقول: "خلقتُ الكونَ من القوة السحريّة للوهم!".

أيْ نَعم، عزيزي وحي:

لا يمكنك أن تتصوّر وتدرك كم غيّر حياتي يومُ حادث جامع العيدروس. غمستُ يديّ خلاله في كبد الحقيقة، بفضل الثقبين العظيمين.

وتعلّمتُ بفضله كيف أخلق الكون كإله من القوّة السحريّة للوهم!

5

ردُّ وحي، الذي وصلني صباحَ مجيء شهد إلى سورينتو، حول نصّي النهائي عن حادث جامع العيدروس، أدهشني وأثار دواري. تقول فيه (باللون الأحمر):

ألا تلاحظ، أستاذي الغالي، أن "عِرق الإيمان بوحي الوسائط السماوية" بدأ انقطاعه في جبينك، رويداً رويداً، بعد يوم جامع العيدروس؟

أيمكنك أن تكتب نصّاً يتعقّب مراحل ذلك الانقطاع التدريجي وعتباته وعواقبه، يفكّكها ويرصدها منذ ذلك الزمن حتى الآن؟

ثمّ ألا يتشابه، مجازياً ورمزياً بالطبع، سقوط النورس الذي رأيته قبل أيام قرب شاطئ مدينة لوهافر الفرنسية، وما حدث لبعض مسلماتك الإيمانية الطفولية من انهيار، بعد يوم جامع العيدروس؟

أقصد، عزيزي، النورس رمزٌ للوحي السماوي، والإيمان رمزٌ للشيخة المصدومة!

سيكون، أستاذنا، جميلاً الحفرُ في الطبقات الأكثر عمقا لجيولوجيا علاقتك بالإيمان والوحي. يبدو لي أن هذه العلاقة مفصليّة جداً، تفرّق بين نوعين متباعدين من البشر، في قطبين تفصلهما كلّ المسافات.

عندما تؤمن بحقيقةٍ قِيلَ أنها هبطت لإنسان، بواسطة وحي سماوي، فأنت تنظر باتجاهِ أنبوبيّ، تفكّر انطلاقاً من مسلّمةٍ غير مبرهنة (قد تكون حقيقة، وقد تكون دجلاً لا غير) وتعيش على نحو مقنَّنٍ وموجَّه، شعارُه: في البدء كان ساعي البريد، تقرير الهدهد، جبريل الذي يهبط من السماء السابعة.

وعندما لا تؤمن إلا بالحقيقةِ النابعة من التفاعل ومرور التيار بين قطبٍ من الأسئلة، وقطبٍ معاكسٍ آخر، الحقيقةِ المبرهنة علمياً (بالتجربة المختبرية أو بالدليل الرياضي، بالكربون 1>4 أو بحمض الـDNA، بالتحليل اللغوي للنصوص أو بالنقد التاريخي...)، فأنت تنظر وتفكّر وتعيش في عالَمٍ آخر، في الجهة المعاكسة للعالَم الأول، شعارُه: في البدء كان الثقب الذي يسمح بالرؤية، في البدء كان التساؤل والشك والجدل والبرهان.

أليس كذلك، عزيزي الغالي؟

إلهي! تتابعني وحي حيثما كنت؛ لعلّها قرأتْ منشوراً كتبتُه على "فايسبوك"، ونشرتُ فيه صورة النورس وهو يتهاوى بنصف جناح، وحيّيتُ فيه بحرارة وإعجاب هائل وحزن عميق تلك السيدة العظيمة التي ضحّت بحياتها لإنقاذ نورس.

ربشتني، في الحقيقة، رسالتُها. قرأتْ وحيٌ قبلها كل نصّي عن يوم جامع العيدروس، راجعتْه بعناية أجبرني على إعادة صياغته أكثر من مرّة.

ثمّ هذا الربط الرمزي، الذي لم يخطر ببالي قط، بين سقوط النورس وانسحاب السيّدة الشهيدة من ناحية، وتداعيات يوم جامع العيدروس وأفول مفهوم الوحي وانقطاع عِرق الإيمان ("في جبيني"، كما قالت) من ناحية أخرى!

لا أحبّ عادة هذه الترسيمات التبسيطية، لكن، بكلّ صراحة، أبدعتْ وحيٌ في رأيي، على نحوٍ أو آخر، بهذا الربط المجازي المثير الذي – أكرّرُ – ما كان له أن يخطر ببالي قطّ، أبداً.

الأهم: وصفتني لأول مرّة بكلمة "الغالي". أهذه الكلمة أكثر حميمية من "العزيز"، أم أرادت بها فقط تنويع إكليشة النداء؟

ولأول مرّة تناديني بـ"عزيزي الغالي": خطوة إلى الأمام!

كيف يمكن جعلها تواصل مناداتي بمزيدٍ من الرقّة والحميمية؟!

ثمّ سؤالها (الذي يحثّني على تعقّب تاريخ علاقتي بالإيمان والوحي، واللهث وراءه منذ يوم جامع العيدروس) خطيرٌ وجوهريٌّ حقاً، شاسعٌ جداً، يخيفني كثيراً الانغماس فيه أو حتّى الاقترابُ منه.

لا أدري هل سأقبل خوض هذه المغامرة. ثمّ لماذا هذا الهوَس بمسائل الإيمان والوحي؟ أليست خصوصيات لا يجوز إقحامها في الفضاء العام؟ ولماذا تبحثُ عن تعريتي، بل عن وضع الميكروسكوب في هذه الغرفة الداكنة المحاطة بالأسلاك الشائكة، في المنطقة الملغومة في ضواحي الروح؟

من الأفضلِ، والأكثرِ مدنيّةً بمكان، أن تبدأ وحيْ التفسير والمكاشفة أولاً، وإلا فلن أغامر.

مرعبةٌ جداً وحي في كل الأحوال. مدهشةٌ حقاً، أريد أن أقول. ولعلها أيضاً، في فراغ حياتها القاتل (داخل قصرٍ ثريٍّ شاسع، منتصب في مكان ما في شبه جزيرة العرب)، تعرفني فعلاً أكثر من معرفتي بنفسي!

إسكيا جزيرةٌ هوميروسيةٌ لها موقعٌ حميميٌ خاص في وجداننا، الاثنين، شهدُ وأنا؛ موطن أوّل رحلة سياحية لنا معاً، بعدما التقينا لأول مرّة، في ربيع 1988 في نابولي.

جزيرةٌ ذات طاقةٍ بركانية متجددة عارمة. "كل شيءٍ يزدهر ويزهو على هذه الأرضية البركانية"، يقول عاشق إسكيا، نيتشه.

خصبةٌ جداً، ينمو فيها: العنب، الزيتون، الحمضيات، الحبوب...

كانت أقصى غرب الإغريق في عزّ زمنهم. وفيها أودع زوس، إله الأولمب، "أرواح الأبطال الخالدين الذين لا يموتون في المعارك".

لنا فيها، شُهدُ وأنا، تقاليد لا تُعدّ ولا تحصى.

أحد أكثرها حميمية: السفينة التي نأخذها يومياً من إسكيا إلى الجزيرة المجاورة (التي أعشقها عشقاً)، بروسيدا، للسباحة هناك، ثم نعود إلى إسكيا قبيل شفقِها الأرجواني بقليل.

لعلي كنتُ صامتاً، أكثر من اللازم، خلال عوداتنا من بروسيدا إلى إسكيا، في هذه الرحلة.

لامتني شُهدُ فيها، عندما لاحظتُ أني حملتُ معي على ورقةٍ نصَّ الإيميل الأوّل لـ"تلك البنت الغريبة العجيبة"، كما سمّتها شُهد.

"لماذا طبعْتَهُ، وأحضرتَهُ هنا؟ ألهذا تغيبُ ذهنيّاً كثيراً منذ استلمته، بماذا تُفكّر؟"، سألتني شُهد.

أتذكّرُ آخر عبورٍ لنا بين الجزيرتين، في رحلتنا السابقة قبيل سنوات، ونحن نستحضر نيتشه وهو يتحدث عن الطاقة البركانية لهذه الديار، التي تسمح على إيقاع هذا الصفاءِ المحيط بنا وصمتِه بإلهام الأفكار المتمرّدة و"القيم الجديدة".

عندما قلتُ، لحبيبتي شُهد، إن نيتشه كان يرى العالَم يدور "على نحوٍ غير مسموع" حول صنّاع القِيم الجديدة، وليس حول مفتعلي الضجيج والجعجعات، استشهدتُ به وهو يقول: "الكلام الأكثر صمتاً يحرّك الزوابع، الأفكار الآتية بأقدام الحمائم تقودُ العالَم".

فعلاً ليس ثمّة في الحياة ما هو أجدى وأعظم من هذه الوصايا النيتشاوية للروح الحرّة، للإنسان الأعلى: لا عنف إطلاقاً. أفكارٌ هادئةٌ عميقةٌ حيّةٌ تذهب مطرقيّاً نحو الجذر. قيمٌ جديدةٌ تحلّ محل القيم الغبراء...

كلّ ما عدا ذلك ترّهاتٌ لا تستحق الذكر.

لم تخطئ شُهدُ وهي تفسّر غيابي أحياناً: كنتُ أتساءل فعلاً معظم الوقت عن هويّة وكينونة وحي،

وعن سرِّ إيميلاتها، وكيف أتفاوض مع الهاوية التي رمتني فيها الآن، وقد توالت مراسلاتنا دون معرفة شُهد، ودون أن أستطيع الفرملة.

في بحر خليج نابولي هذا، طلب عوليس وهو يعود نحو مملكته أثيكا، من رفاقه في السفينة، وضعَ الشمع على آذانهم، لكي لا تسحرهم أغاني الحوريات اللواتي يملأن هذا اللجّ الساحر، وتجرّهم إلى التهلكة.

أما هو، فطلب منهم (ما أدهاه!) ربطَه، هو نفسه، بالحبال على صارية السفينة، ليستمع لنغمات غنائهن الساحر دون أن يسقط في حبائلهن.

ولعلّ وحي مثلهن تماماً: حوريّة بحر. لكنني – للأسف! – لم أغلق آذاني، ولم أربط نفسي بحبال سميكة...

إلهي، أهي مثلهنّ حورية تهلكة؟

أم هي حورية بحر الفكر المتّقد؟

عند الغروب، في كل عودة يوميّة لنا، شُهدُ وأنا، من بروسيدا إلى إسكيا، ننظر طويلاً باتجاه قصر أرجواني في إسكيا. يأسرنا كثيراً معاً، لا نمَلّه.

كان قلعةً في القرن الخامس قبل الميلاد، ثمّ مدينةً صغيرة في أحشاء جبل. زرناه كثيراً، نعرف قصص من عاشوا فيه، ومن اغتصبوه. نعرف تاريخ تحوّلات كل حُجُراته ودِيره وكنيسته.

كم تمنّيتُ كتابةَ روايةٍ عن تاريخ هذا القصر ويومياته حتى الآن!

نشمئز فيه عند الوصول إلى صالةٍ تقع تحت الكنيسة مباشرة: "مقبرة الدينيّات".

غرفُ المقبرة تعجُّ بكَراسٍ من الإسمنت لإقعاد أجساد الموتى كي تتحلّل عليها ببطء. تذوب أحشاؤهم وأنسجتهم العطنة وتسيل، رويداً رويداً، خلال أسابيع وأشهر، نحو أوانٍ تصبّ في مجارٍ إسمنتيّة، في قاعِ الغُرف.

ثمّ تُرمى الهياكل العظمية المخلوعة في زبالات عظام الموتى: تعبيرٌ دينيٌّ كاثوليكيٌّ خاص عن احتقار الجسد، كوعاءٍ ذميم للروح لا غير.

كانت الراهبات يأتين يومياً إلى هذه المقبرة للتأمل في مصير الأجساد، ولرؤية الهياكل العظمية وهي تتعرّى بعد الموت، في جوٍّ مثخنٍ بالروائح النتنة والعفونة القصوى، وبآفات الميكروبات السامة التي تقود تلكنّ الراهبات أنفسهنّ، سريعاً جداً، إلى الجلوس في هذه المقاعد نفسها، في هذه المقبرة نفسها.

نحب العشاء قرب هذا القصر الفاتن في مطعمٍ صغير، بعد أن نعوم في ركن الساحل المواجه له تماماً، شُهذ وأنا معاً، حيث تمرّ ساعات ممتعة ساحرة نتذكّرُها ونلوك استحضارها على الدوام.

ننطّ معاً للسباحة هنا، على نحوٍ لا يُقاوَم. حولنا لفيف من الأطفال في سعادة لا توصف، وهواة صيد سمك، وأفُقٌ عبرتْهُ سفنُ كل الغزاة والهائمين: الإغريق، الرومان، الفينيقيين، القرطاجنيين، العرب، النورمانديين... نسافر نحوهم في التاريخ، نُبحرُ وإيّاهم في أطراف ومتاهات العالَم.

لاحظتْ شُهد أنني لم أكن متحمّساً هذه المرّة لممارسة عادة النطّ للعوم هنا، قبل العشاء، ولأول مرّة منذ تعارفنا في 1988!

لا أدري هذه المرة هل وحيُ هي السبب، وإن كان التيه و"الطوسان" في مواضيع رسائلها ذات الألوان الثلاثة هو المتّهم فعلاً، أم يعود تقاعسي عن النطّ إلى تحوّل هذا الركن الرومانسي الأثير إلى بؤرةٍ ومنملةٍ لِعشاق "مذهب السَّلْفية"، كما نسمّيهم شُهدُ وأنا: هواة أخذ صور "السَّلْفي".

نلاحظ: المتقدمات في السن يملأن هذا الركن البحري على نحو ملحوظ، لأخذ وابل من مئات صور "السَّلفي" على خلفية القصر والطُرُق البحريّة القديمة.

يأخذنها في وضعٍ نشاز: يَعجِنّ تجاعيد وجوههن عجناً بجهدٍ لا يتوقف، يُغيّرن غمزات العين ومطّ الشفتين وشقلبات أصابع اليد، بكل الأشكال والطرائق، على غرار صغار السن من المراهقين... على أمل العثور

على صورة شبابية جداً تستحق الوضع على شبكات التواصل الاجتماعي، ولاسيّما "فايسبوك" وأخواتها.

لا أمَل!

الزمن ماردٌ ينتصر دوماً في نهاية المطاف، من يعاركه خاسرٌ لا محالة.

7

تعارُفُنا لأوّل مرّة في 1988، شُهد وأنا؟

كنتُ في مطعم شعبيّ للسمك، رخيصٍ ولذيذٍ جداً، في نابولي، في مستهل مايو لذلك العام الخالد. يختار فيه الزبون السمكَ والأصداف والقشريّات و"فواكه البحر" كما يحب، من صناديق معروضةٍ في شرفة المطعم، قبل أن يُملي على النادل برنامج الطباخة: مقلية أم بالجمر أم بالصوصة.

طابور الانتظار فيه طويل. المقعدُ الذي يواجهني في طاولتي الصغيرة شاغر، وفي الصف السادس من الطابور شابّة واقفة وحيدة، تقرأ كتاب جيب، وتراقب بين حين وحين سرعة مغادرة الزبائن للمطعم، كما لو كانت ستُعطَّف رحالها إذا استمرّ التصاق الزبائن في مقاعدهم على هذه الوتيرة.

ولأنني في طاولة صغيرة لاثنين، هرعتُ نحوها لاقترح لها المقعد الشاغر أمامي، لأن المنتظرِين قبلها مجاميع لا يهمهم مقعدٌ شاغرٌ وحيد.

وافقت الشابة شاكرة؛ ستوفّر عشرين دقيقة على الأقل.

السؤال الذي كهربني منذ أول لحظة وأنا أراها واستنشقها أمامي: كيف يعقل أن تَجِد فتاة، بهذا الجمال وبهذه الطلعة البديعة المهذبة، نفسها وحيدة في طابور؟ كيف لها أن تسافر للسياحة، إن كانت هنا للسياحة، دون حبيبٍ أو رفيقٍ أو صديقة؟

يا لغباء الكون وبلادة الحياة!

نواميس الكون لا تسمح بذلك؛ يستحيل أن ترى، في كل الدنيا، شابةً سائحةً كهذه، دون عاشقٍ مجذوبٍ ملتصقٍ بها، يدور حولها كسفينة فضائية: الجمالُ، في فيزياء العشق، لا يعرف الفراغ (لا يطيقه ربما).

أو بتعبير مماثل: فيزياء العشق لا تسمح أن يتعايش الجمال والفراغ معاً.

هذا إذا لم ترها حبلى بطفلٍ ينمو في بطنٍ متكوّرٍ جميل، يزيدها جمالاً ويفجّر البهجة والفخر على محيّا العاشقَين، هي ومُحبِّلها الذي يتبختزُ قربها نشوةً وسعادة...

تمرّ الثواني الأولى مُحرِجةً لِكلينا، ثقيلةً مصطنعة. يحاول كل واحدٍ منا الاستغراق في عمل شيء ما: البحث عن نظارة شمسية، أو تفتيش حقيبة الظهر، أو النظر في عناوين الصحف... كأنه لا يراقب من يواجهُه، بطريقة أو بأخرى، لسبر أغوار مشاعره وانطباعاته

ونياته. غير مهتمٍّ كثيراً به، غير مكترثٍ لحضورهِ الطاغي إطلاقاً.

ثمّ شكرتني لأنني صببتُ لها كأس ماء. كلماتنا الأولى كانت بلسانٍ فرنسيٍّ متماوجٍ راقٍ مبين (هي سوريّة فرنسية). ثم دخلت العربية، بأحلى مفاجآتها ونغماتها ومغامراتها الحميمة، على الخط.

لم يكن سؤالي، قبل قليل، حول نواميس فيزياء العشق عبثيّاً. ففتاةٌ بهذه الروعة والإشعاع، بهاتين العينين الواسعتين العسليّتين (ألذلك كان اسمها شُهد؟)، بهذه الروائح السماوية (إلهي، كم أبدعتَ!)، بهذا الصوت الساحر والكلمات العذبة والاستشهادات المسكِرة، لا يمكنها أن تأتي للسياحة وحيدة إطلاقاً.

الدليل أنها في نابولي لِمهمة عمل؛ رافقتُ، لزيارة مدينتَي بومبيي وايركولانوم، صفّاً دراسياً من مدرسة نخبوية تحضيرية لمسابقات الدخول في كليات نُخبةِ النّخبة الفرنسية!

مدينتان أهدَتْهما للإنسان المصادفة التي لا تتكرر. طمرهما رماد بركان فيزوف العظيم، وحوّل سكانهما إلى هياكل أحفورية.

يمكن اعتبارهما اليوم مختبراً حياً لرؤية سِفْر تكوين الحضارة الإغريقية الرومانية بالعين المجرّدة،

واستيعابه بعمق، وللتكّسع في شوارعهما كما كان يفعل أهل ذلك الزمن تماماً.

مدينتان قريبتان من شقّتي في جنوب إيطاليا، أعشقهما عشقاً، أزورهما كلما أتمكن، أنا الذي أحلم بالسفر السريالي إلى الماضي، لرؤيتهِ كما حدثَ فعلاً، لا كما يرويه المؤدلجون والطغاة والكهنة.

بسمَلَةُ دردشتِنا بدأتْ بهما، وتعلُّقُنا بهما كان فاتحةَ حوارٍ لا يملؤه الشغف فقط.

ايركولانوم مدينةٌ أرستقراطية صغيرة لنبلاءِ رومان، طمَّها ماجما البركان، في حين أن بومبيي، مدينة ضخمة طمرَتْها حجارة ذلك البركان ورماده، عام 79.

اختفتِ المدينتان منذ ذلك الزمن، قبل الوقوع عليهما بالمصادفة، أثناء حفر قناة مياه في نهاية القرن الثامن عشر.

ابتلعتهما أكبر الكوارث الجيولوجية التي عرفتها مُدن الإنسان. لكن اكتشافهما يعدّ فعلاً من أعظم هدايا المصادفات للإنسانية، لأنهما تسمحان اليوم برؤية أصغر تفاصيل حياة البشر آنذاك، وعلى نحو دقيق.

استعادة ايركولانوم، كما كانت، كان الأصعب بسبب سيول الماجما التي لزم استخراجها من أحشاء المدينة وأمعائها اللصيقة المكلسنة الغائرة.

استعادة بومبيي هو الأطول زمناً والأغدق فائدة معرفية، لأنها مدينة مهمة شاسعة متنوعة.

بدأ الحفر عشوائياً لاستخلاصها من عمق ستة أمتار في باطن الأرض في نهاية القرن الثامن عشر. ثم على نحوٍ منهجي، منذ بداية القرن التاسع عشر (شارعاً بعد شارع)، لاسترجاع كل البيوت والشوارع واللوحات والتماثيل كما هي.

تمّ، حتى اليوم، استكمال التنقيب على ثلاثة أخماس المدينة فقط، وتجهيزها للباحثين وآلاف السيّاح يومياً، ولكل طلاب المدارس.

يعبرونها جميعاً، ويزورونها شارعاً شارعاً، بيتاً بيتاً...

وسيستغرق تجهيز الخُمسَين الباقيين فترةً أطول (عدّة قرونٍ ربما؟) بسبب طُرق التنقيب الجديدة الأكثر دقة وتأنّياً.

ألاحظ: بعد هذه الدقائق الأولى من اللقاء بشُهد، كنّا قد قلنا كثيراً عن علاقتنا الغرامية العميقة بهاتين المدينتين، وبسحر التاريخ النابض فيهما، وعن ذكريات دهشة رؤيتهما لأول مرة (هي عندما كانت طالبة، وأنا قبل ست سنوات).

عاد الصفّ الدراسي صباح اليوم إلى باريس، وبقيت هذه المُدرِّسة الشابة الجميلة لقضاء 3 أيام إضافية وحدها هنا، في نابولي، لمزيد من الاكتشاف والسياحة.

– ماذا تُدرِّسين في المدرسة؟

– فلسفة. عملتُ دراستي في الكلية العليا للأساتذة ENS.

آه، درَستْ شُهدُ الفلسفة: حلم حياتي الضائع! درسَتْها في كلية نخبة النخبة التي درس فيها سارتر (وغيره من مفكري فرنسا) قبل أن يبدأ مهنته أستاذاً للفلسفة في صفوفِ ثانويةٍ انتقائية، كما تفعل شُهد اليوم: مهنةٌ نخبويَةٌ خالصة، ساعات شغلها الأسبوعي قليلة، وراتبها محترم. لا تحتاج فيها إلى تحضيرٍ طويل للدروس، ناهيك عن أن من يَدْرس في تلك الكلية يستلم راتباً من الدولة وهو طالب.

هكذا، لنا مساران في الحياة متعاكسان تماماً: كان حلمي الأكبر، بعدما أنهيتُ الثانوية العامة في عدَن، أن أسافر لدراسة الفلسفة في جامعة غربية، بعد أداء عام الخدمة الوطنية.

من محاسن تلك الأيام في سبعينيات عدَن: كانت المنح الدراسية إلى الخارج، وبالذات لدول المعسكر الاشتراكي، تُعطى للجميع تقريباً بعد الثانوية العامة.

وأسهلُها كانت منح الفلسفة، تقود إلى روسيا غالباً لدراسة الماركسية اللينينية، قبل العودة إلى عدَن: "قلعة الماركسية اللينينية" في العالم العربي، في تلك السنوات الفريدة من سبعينيات وثمانينيات القرن الماضي، حيث

لم يكن يلفظ أحد جملةً واحدة لا يستخدم فيها كلمة الديالكتيك (في محلّها مرةً واحدة، ومليون مرّة على نحوٍ يقضّ به مضجع هيغل).

كنت أحبّ، وأنا في الثانوية، كلمة الفلسفة من مجرّد سماع أنها "علم العلوم"، وأن "الفلاسفة، قبل ماركس، كانت مهمتهم استيعاب العالَم، أما بعده، فمهمتهم تغييره".

وكنت أنتظر منحة الفلسفة بسعادة، ولو إلى روسيا، رغم حلمي أن تكون إلى لندن، أو باريس، أو روما.

لسببٍ انتقاميٍّ دسيس، سأبوح به لاحقاً، لم تُعطَ لي المنحة إلا لأذربيجان، ولدراسة طب الأسنان!

أي آخر ما حلمتُ بدراسته، أنا الذي أشعر بالغثيان إذا لم تكن الأسنان التي تواجهني بيضاء ناصعة، منتظمة رُسِمت بعنايةِ فنان، كما هي أسنان شُهد وهي تواجهني الآن، في طاولتنا، في مطعم السمك في نابولي.

هيأتُ نفسي للسفر للمنحة الجامعية، همّي ركوب الطائرة لأول مرة في حياتي، ومغادرة اليمن.

قبل التوقف للترانزيت في الكويت، خلال يومٍ وليلة، وقبل استئناف الرحلة إلى أذربيجان، كنت قد برمجتُ لـ"يوم الهرب العظيم" تمرّداً حاسماً هو الأكثر أهميّة وصواباً في كل حياتي، أنا "المتمرّد الصامت" دوماً، كما تُعرّفني شُهد بكلمتين.

هي التي تعتبر أنه لا يوجد في الحياة ما هو أهمّ وأصوب وأسمى من التمرّد الصامت.

صدَقتْ، هي التي أضاءت حياتي بهذه الآية النورانية المُلهِمة: "الكلام الأكثر صمتاً يحرّك الزوابع، الأفكار الآتية بأقدام الحمائم تقودُ العالَم".

واصلتُ وحدي رحلتي من الكويت بعد أسبوع من النزول فيها باتجاه لندن، بمساعدة كويتيّ نبيل، لا أنسى فضله ودوره.

غيّرتُ هكذا اتجاه سفري تاركاً موعدي القدَري مع علوم طب الأسنانْ، في جمهورية أذربيجانْ، لغيري من الإنس والجانْ...

كان عليّ الاختيار لمستقبل حياتي حينذاك بين طريقين أقف في مفترقهما:

1) العمل لكسب العيش دون منحة، والدراسة الجامعية للفلسفة في الوقت نفسه دون ضمان مقدرتي على النجاح في الدراسة وكسب عيشي معاً، كما يلزم.

2) العمل والعمل والعمل لكسب المال أولاً، مع تعلّم الفلسفة من مدرسة الحياة، ومن الظمأ للمعرفة وقراءة الكتب باستمرار، قبل الحياة حرّاً بعد ذلك، وعناق الفلسفة ليلَ نهار، وتغيير الإنسان والعالَم من طرفِه إلى طرفِه كما يشتهي ماركس، وفيلسوف "الإنسان الأعلى"

نيتشه، وفيلسوف الشارع الذي سكنتُ فيه في عدَن، بعد ترك قرية طور الرعد: الحاج الرُديني.

مِلتُ سريعاً إلى الاختيار الثاني، لأنني لم أكن أهلاً للأوّل: لم أدرس في الجامعة، إذن. طفقتُ أتنقّل بين لندن وباريس وروما. أشتغل ليل نهار. أكرِّس كل طاقاتي لأكسب أكثر ما أستطيع من المال، ولو احتاج ذلك العمل في أشغال شاقّة، وفي أوقات وأيام لا يتجرأ أن يعمل فيها أحد.

مدينتي، "مايا"، التي تعوّدتُ بناءها ذهنياً منذ طفولتي، نمَتْ كثيراً وتطوّرت وأنا أعمل وأعمل وأعمل.

أضفتُ إليها كل يوم شارعاً جديداً، شمساً جديدة، وألف لونٍ جديد. أهلُها يُعمّرُون قروناً في شباب دائم. لا يعرفون مرضاً أو ألماً أو تعاسة. يعملون ساعتين في اليوم فقط (ثمّة روبوتات تؤدي معظم مهمات الحياة الروتينية والذكيّة)، وبقية اليوم ينشغلون في ممارسة العشق والسعادة بِنَهم.

يعيشون هناك سعداء، أو سعداء جداً، لا غير. وهذا التمايز في طبقات ومقامات السعادة (يسمّونه هناك "التمايز الطبقي") مشكلتهم الوجودية الخطيرة، الوحيدة فقط.

فجرُها أبديّ، بحيراتُها عميقة شفّافة، وسط غابات ساحرة. أنهارُها كثيرة، تتعانق وتتقاطع. تغمرها، في كل

مكان، آلاف العصافير والطيور الملوّنة. تملأ جبالها آلاف الشلّالات الساحرة...

بناتها لا جمال ورشاقة كجمالهن ورشاقتهن. فساتين الحرير الأحمر، تسيل جذابة قاتلة على أجسادهن الهيفاء الفاتنة.

هنّ جذوات "مايا" وآلهاتها الحيّة...

كلما كنتُ أشتغل في ورشة بناء، في هذا الشتاء المظلم القارس أو ذاك، أضيف إلى "مايا" شمساً جديدة، أو 3 شموس أحياناً.

اضطجع على أحد سهول "مايا" لأراقب في الأعلى قوس قزح بألف لون. أمامي بحرٌ لازورديٌّ تتلألأ كل مليمتراته المربّعة، عليه أسراب سفن بلا عد، تقترب نحوي آتيةً من أقصى الأفق.

يرقص ملء السماء مليون عصفور بألوان ذهبية، كستنائية، نحاسية، بنفسجية، بيضاء، زرقاء، فضيّة، قرمزية، رمادية...

وكلما كنتُ أعمل ليلاً في مصنعٍ كيماويٍّ كئيب (ذي رواتب دسمة) لتصنيع بنزين الطائرات، أو في عملٍ إضافي كحارس ليلي بُعَيد وصولي أوروبا، كنت أضيف إلى ليلِ "مايا" قمراً جديداً شاسعاً أراقبه من نافذة مكتب المصنع ذي الرائحة البترولية الحادّة، أو من زجاج مدخل العمارة التي أحرسها، قمراً شاسعاً أستطيع

رؤية خريطته، والتجوّل قرب بحاره وأنهاره، ومنادمة نسائه ورجاله، والرقص البهيج في شوارعه الجذلى...

تغيّرَ مستوى معيشتي سريعاً بفضل الاقتراض من البنك، وشراء وبيع الشقق باختيار ذكي محنّك.

كل مشروع ناجح لبيع شقّة، بثلاثة أو أربعة أضعاف سعرها الأول، بعد سنوات من شرائها، يفتح لي أبواباً واعدة ومشاريع أخرى.

كان العمل الدؤوب والجرأة ديدنَ حياتي. وشعاري عبارةُ بوذا التي قالها وهو على فراش الموت: "لِتكنْ ذواتُكم مصابيحكم. لا تعتمدوا إلا على أنوارها".

وأختُها، إنجيلُ العصاميين، التي قرأتُها في مكانٍ ما، لم أعد أتذكّره: "لا تضيء طريقَكَ إلا نارُ الجرأة التي تشتعلُ بين جوانحك".

وابنةُ عمّها النيتشاوية بامتياز: "هل أنت طاقةٌ جديدة، وحقٌّ جديد؟ حركةٌ أولى؟ دولابٌ يدفعُ نفسَه بنفسِه؟ سيكون بإمكانك حينئذ أن ترغمَ النجوم على الدوران حولك!".

وها أنذا اليوم، في مستهل مايو 1988 الذي تعرّفتُ فيه على شهد، بعد 12 عاماً من مغادرة عدَن، في وضعٍ لا بأس به: بضعة شقق في روما وباريس أؤجّرها وأدفع قروضها للبنك، ومتجرٌ فعّال في لندن بالاشتراك مع صديق. أتنقّل بين شقّتين شخصيتين صغيرتين في

سورينتو وباريس (أؤجرهما عندما لا أكون فيهما بالطبع).

تحبُ الحياةَ مثلي شهدُ التي تواجهني في هذا المطعم الشعبي الذي يتفجر حياةً، في نابولي.

توفّيتْ والدتُها أمام عينيها، بعد مرض عضال، قبل أشهر من لقائنا. اكتشفتْ معنى الموت حينذاك، وقرّرتْ لذلك أن تتفرّغ كلية للحياة، أن تحيا حياة جديدة، كل لحظة فيها كثيفة جداً، عميقة جداً. تنهل من بهجة الدنيا دون حدود، تسافر، وتكتشف، وتقرأ، وتتفجّر سعادة.

طلَقتْ، بعد وفاة أمّها، رفيقَ حياتِها الذي كانت تعيش معه في باريس، لأن فلسفتَه في الحياة أضحت في القطب المعاكس لفلسفة حياتها الثانية.

متعلّقٌ بمكتبهِ في الشركة التي يعمل فيها، من الثامنة صباحاً حتى الثامنة مساءً، تعلُّقَها بالسفر والمشي والحياة خارج مرفق العمل.

يشعر بالملل والاختناق بعد أسبوعين من الإجازة، شعورَها بالملل والاختناق إذا مرّ أسبوعان دون إجازة.

لهما طفلة (في السابعة من العمر) تحمل اسمها بجدارة: سناء، يتبادلان الرعاية والاهتمام بها كما يلزم.

لم أدرس الفلسفةَ في الجامعة كما كنتُ أحلم في طفولتي، لكن علم العلوم، وفلسفة الفلسفات، أمامي الآن

في طاولة صغيرة في هذا المطعم الشعبي السعيد المكتظ.

ويعلم الله أنني مستعدٌ أن أقاتل، وأن أرمي بجثتي في الجحيم (أو أن أذهب لدراسة طب الأسنان في جمهورية أذربيجان، كأشنع عقابٍ ذاتي أستطيع عمله)، لو تركتُها تغادرني بعد هذا اللقاء القدَري (الذي أنتظره منذ ما قبل ولادتي بألف سنة)، دون أن أحوِّله إلى لقاء العمر.

ليس في ذلك إعجاز؛ قانون الجاذبية الروحية والجمالية أشدّ حتميةً ومغناطيسيةً وشفطاً ووطأةً من قانون جاذبية جزيئات نيوتن.

ثمّ لا يحتاج تفسير عشقي العاتي إلى مرافعات؛ لِشُهد رائحةُ السماوات، الهواء الطلق.

صوتُها الذي تفترش فيه أجمل الكلمات، أحلى العبارات، أروع الأفكار، يخطف روحي، يجذبني على نحوٍ أصم.

ورؤية هذه الفتاة، في هذا المنعطف التاريخي في نهاية الثمانينيات من القرن المنصرم، أعظم هديّة يقدمها القدَر إلى إنسان.

قبل مغادرة المطعم للمشي معاً في الشوارع القديمة لنابولي، لاحظتُ شيئاً غريباً جداً، لا يمرّ يوم واحد لا أستعيد تفاصيله وحدي: كنا في عمق الحوار، شُهدُ وأنا،

غارقَين فيه، شغوفَين بتفاصيله بكلّ تلافيف روحَينا، عندما أحسست أن قدمي اليسرى متجمّدة تماماً. ميّتة، لا أشعر بها!

في هذا المطعم الشعبي المزدحم، الذي يلزم أن يفاوض الزبون فيه مع الأرض ليموضع رجليه عليها، وضعَتْ شُهدُ قدمَها (بلا وعي، في لحظةٍ ما من تفاعلات حواراتنا المتشابكة) على قدمي أسفل الطاولة، دون أن تدركَ أن قدمها ليست على الأرض، ودون أن أشعر بذلك، أنا نفسي، قبل تجمُّدِ أطراف قدمي لاحتقان حركة الدم.

كنتُ سعيداً لتلامس جسدينا، وإن كنتُ متأكداً أنها غير واعية أن قدمها اليمنى تنتصّ على قدمي اليسرى، تعانقها.

لم أتجرأ على هزّ قدمي لتنشيط حركتها الدمويّة، حتى لا يصيب شُهد نوعٌ من الحرج، ورغبةٌ في الاعتذار. وقبل كل ذلك، وبطبيعة الحال، لم أودّ تحريك رجلي حتى لا ينفصل جسدانا.

كنتُ أشعر بسعادة عميقة بهذا الاندماج البيولوجي بين جسدينا، كأنّ قدَمينا جذران متلاصقان لشجرتين متجاورتين في غابة، يتبادلان بواسطة تلاصقهما الغذاء والرسائل البيولوجية، كما تفعل شبكة إنترنت أشجار الغابات.

استحضرتُ منظرَ شجرتين جميلتين غُرِستا أمام باب مقصورةِ الإمبراطور والإمبراطورة، في قلب "المدينة الممنوعة" بِبِكين، في الصين.

لهما ساقان مائلان، يلتقيان في رأسهما، يتعانقان. من نقطة التقائهما تتفرّع جذوعٌ وأغصانٌ مشتركة لِشجرةٍ واحدة.

تحتهما عبارة بديعة (تتحدّثُ بلسان حال الإمبراطورة والإمبراطور) لا يمرّ يوم منذ تعارفي مع شُهد دون أن تخطر ببالي: "لِنكنْ مثلهما شجرتين بالأغصان نفسها. لِنكنْ طائرين بالجناحين نفسيهما!".

جاءني الحلاج نفسه إلى طاولتنا في هذا المطعم الشعبيّ (ومنظر توحُّدِ الشجرَتين يراودني، يغويني ويأسرني) ليهمسَ في أذني دون أن تلاحظ شُهدُ ذلك:

أنا من أهوى، ومن أهوى أنا
نحن روحان حلَلنا بدَناً
فإذا أبصرتَني أبصرتَهُ،
وإذا أبصرتَهُ كان أنا
روحهُ روحي، وروحي روحهُ
من رأى روحين حلّا بدناً؟

سعادةٌ لذيذة، وإن كان احتباس حركة الدم في الرِّجل خانقاً مؤلماً. تغيّرَ لون وجهي بالتأكيد، أضحى

أكثر احمراراً كما أتصوّر، أو ازرقاقاً، ربما. هل لاحظتْ شُهذ ذلك؟

لا أتوقع، كلانا مسطول غارق في سحر جمال اللحظة.

للنظراتِ التي نتبادلها، وللابتسامات وللكلمات في هذه الهنيهات بالذات، قيمةٌ تاريخية وعاطفية لا مثيل لهما: هي وحدها ما يستحضرهُ المرء في ذاكرته قبيل الموت بثوانٍ.

زاد انقباضي بعد أن فقدتُ الإحساس بقدمي اليسرى كليّة. لم تلاحظ شُهد ذلك، كما يبدو من بريق عينيها وهي تنغمر معي في شلالات أحاديث تجذبُنا، رغم تجلّطي واحمراري وازرقاقي أكثر فأكثر، وتحوّلي إلى قوس قزحٍ ناطق.

أتحمَّل ألَمي وحدي، بصمتٍ، بصبرٍ، بشلَلٍ نصفيٍّ، وبكل سعادة.

استحضرتْ أبو بكر الصدّيق، في غار حراء والرسول ينام على فخذه. لذغةُ عقرب في قدم الصديق. لم يتحرك لكي لا يوقظ الرسول، صمد، تمالك أعصابه مثلي تماماً، حتى سقطت دموعه من شدّة الألم...

لم تسقط دموعي أمام شُهد، لكنني أدركتُ أخيراً حجم آلام أبي بكر، ومدى سعادتِهِ أيضاً، في هذه القصة الجميلة.

لم تنفصل قدمانا إلا قبيل مغادرة المطعم، دون أن تشعر شُهد لحظةً واحدة أن قدمي كانت تعانق قدمها بشغف، بوَله، بغرام، ودون توقف.

الأدهى: بعد نحو 30 عاماً من الارتباط الكليّ والعشق المتصاعد (وإن لا نحيا، وفق رغبتها، تحت سقفٍ واحد طوال العام، مثل كل ثنائيّ تقليديّ يبدِّد حياته بالارتباطات الروتينية الزوجية اليوميّة)، لم أتجرأ، حتى اليوم، على استفسارها: هل كانت مُدرِكةً، في ذلك اليوم القدَري المبارك، أن قدمها ظلت فوق قدمي، ملتصقة بها، أكثر من نصف ساعة؟

إذا كان الجواب بالنفي، فمجرّد البوح بذلك السرّ سيحرمني متعة استعادته في ذاكرتي كل يوم، ومن سعادة التماوج "الزجزاجي" المضطرب اللذيذ بين الرغبة اليومية في البوح به، وتجنب البوح به، في الاستفسار أو تجنب الاستفسار.

وإن كان الجواب بالإيجاب، فكل حلاوة معاناتي ستنهار سريعاً، وستتلاشى مع انكشاف هشاشة تلك السعادةِ الصامتةِ الساحقة التي شعرتُ بها.

قلتُ: لا نحيا منذ 30 عاماً، شُهدُ وأنا، تحت سقف واحد. نعم، لكننا نلتقي ونعيش معاً ثلث السنة تقريباً، بل أكثر بقليل، ولاسيّما في كل إجازاتها المدرسية، من

أوّل دقيقة حتّى آخر دقيقة (بين حين وحين، مع ابنتِها سناء، التي أصبحتْ ابنتي الحبيبة، بل أكثر).

نلتقي غالباً في بقعة جديدة من هذا العالَم الرحيب، نكتشفها ونخلّد فيها ذكريات أشدّ كثافة من ذكريات رحلاتنا التي سبقتها.

هكذا ترى شُهد الحياة الثنائية التي تحبّها: عتبات لا رتابة فيها، نموت شوقاً كل مرّة، أكثر من المرّة السابقة، بانتظار العتبة المقبلة.

"يذهلُ كلٌّ منا الآخر فيها بمفاجآت جديدة لا تخطر على باله، أكثر من المرّة السابقة"، كما تريد شُهد على الدوام، وتفعلُ في الواقع.

لا تحتملُ شُهدُ بالطبع أعراض ركودِ العشق أو انحدارِه. ليس ذلك فقط، بل ترفض توقّفَ الاندماج الكليّ بين العاشقين، المتلظّي والمتزايد مع مرّ الزمن.

حياتها تحت سقف واحد مع رفيقها السابق كان موتاً بطيئاً للحب، وتجربة فاشلة، لا تريد تكرارها قط.

شعارُها الجديد: عشْ حياةً جديرةً بأن تكرّرها لحظةً لحظةً، مراراً وإلى الأبد، لو قُدِّرَتْ لك العودةُ إلى الحياة، من جديد وبتواتر مستمرٍ، حتى أقصى الأبدية.

أي فلسفة "العودة الأبدية" النيتشاوية: "ابدئي من جديد، كما عشتكِ تماماً، أيتها الحياة. وعُودِي بعدها دون توقف، مدى الأبدية!".

ليس ذلك فحسب، لكن فيلسوفتي الصغيرة، ترى أنه يلزم أن تكون حياةُ الإنسان الإجمالية، من المهد إلى اللحد، سلسلةً من حيوات عدّة: أولى، ثانية، ثالثة... كل حياة تستخلص العِبرَ من سابقاتها، تتكئ عليها لتتجاوزها كثافة وعمقاً وسعادة. فتكون كل حياتنا الإجمالية ملحمةً صالحةً لـ"العودة الأبدية" النيتشاوية.

نعيش كل لقاء، بكل ما في العشق ومتعة الاكتشاف من طاقات، بانتظار اللقاء المقبل في مكانٍ آخر (من أستراليا ومنغوليا شرقاً، حتى أرخبيل الغلاباغوس وتشيلي غرباً. من شمال فنلندا والسويد حتى رأس الرجاء الصالح)، أو في أحد أمكنتنا الأثيرة التي نزورها بتواتر: خليج نابولي، باريس، روما، مصر، لبنان واليمن بالتأكيد.

في فلسفتها، يلزم أن يكون كل لقاء، بِرُوحِ لقاء أوّل مرّة. وكل قُبلة مثل القُبلة الأولى: رعشاتُها تساوي كل أوبرات العالَم.

ماذا أفعل في ثلثَي العام المتبقيين أمامي؟

ثلثه في اليمن، بلدّ الارتباط الجيني به عشقٌ لا ينتهي، محنةُ العمر. لديّ هناك مشروعٌ استثماري: مستوصفٌ طبي بسيط، يدمجني يومياً بهموم الناس، يديره طاقم يتفانى في عطائه. نحاول، معاً وبقوة، أن

يكون نموذجياً في خدماته وإنسانيته، وفي عدم بحثه عن أدنى ربح.

يشتغل بأكثر من طاقاته اليوم، وقد أضحى اليمن بلداً لا تزدهر فيه إلا تجارة الأكفان وحفر القبور.

ولديّ هناك البحر والشمس، وبيتٌ بحريٌّ صغير في عدَن، وآخر في تهامة (بؤرة الفقر المدقع، حيث يقع مستوصفي الطبي)، وأصدقاء الطفولة والحياة، وبحرٌ لا أستطيع فراقه، وعشقٌ لا ينتهي، وعمرٌ كلّ يومٍ فيه ألف سنةٍ مما تعدّون.

وثلثه الأخير لي وحدي: بعضُه في متابعة أمور عقاراتي (ساعتان لا أكثر، مثل نظام عمل أهل "مايا")، وضمانِ حياة محترمة تسمح بشراء الكتب والسفر الدائم، لا أكثر. لم أعد أغامر في مشروعٍ عقاريٍّ جديد إلا إذا كان مضموناً جداً، ومُدرّاً لربح وفير، دون جهد كبير.

القناعة كنزٌ لا يفني. وصرف ساعتين للعمل، ثم الحياة الحرّة الحقيقية الكثيفة، ما تبقّى من اليوم، أضحى منهجي المقدس في الحياة. ويعلم الله كم أحبّ الحياة، مثل شُهد!

لا أمتلك، منذ بدء عصري الشهدي، غير الرغبة في الحياة والزيارات والاكتشافات والتفاعلات مع الناس والعالَم، والمشي الطويل، والكتابة (ولاسيّما في الصباح

الباكر)، وقراءة الأدب والفلسفة التي فاتني موعد دراستها في الجامعة، وإن صارت مِلكي وحدي، بانتظار اللقاء القادم معها، بعد رحلة إسكيا وخليج نابولي، في مكانٍ جديد من كوكبنا الأزرق الذي أموت في عشقه، وإن كان أقلَ جمالاً وبهاءً، بما لا حدّ له، من كوكب "مايا" الذي أواصل تعميره وتأثيثه دون كلل.

أقصد: شُهد التي عكّر أسبوعَها، في هذه الإجازة، غيابي الذهني أحياناً، وخوفها ربما من استمرار تفاعلي سرّاً بالإيميلات مع وحي!

– هل تبادلتَ الإيميلات مع وحي، منذ إيميلها الأول؟

– لا!

8

بعد أن قضّينا، شُهد وأنا، كل هذا الصيف في ديارِ إيطالية تعارَفْنا فيها قبل ثلاثة عقود: خليج نابولي وجنوب إيطاليا، تعود هي إلى باريس، وأنا إلى عدَن، بانتظار لقائنا المقبل في عطلة الخريف، لا ندري بعدُ في أي بقاع من أصقاع كوكبنا الفسيح.

اليمنُ التي كنتُ فيها قبيل الصيف، وأعود إليها الآن، بلدٌ أضحت خردةً بكل ما في الكلمة من معنى؛ تطمُها حرب داخلية، وأخرى خارجية في آنٍ واحد. لا صوت يعلو، في كلِّ أفيائها وشوارعها وقراها، فوق صوت المليشيات والهويّات القاتلة. معتقلاتٌ غير قانونية، وتعذيبٌ واغتيالات، وفيضٌ هائل في أعداد القنّاصة المختفين فوق العمارات، لا ينافسه إلا النقص الهائل في عدد ثلاجات الموتى، وكل أنواع الأدوية.

بائعو السلاح في دول الغرب يفركون أيديهم سعادةً وهم يقبضون مئات مليارات الدولارات التي تنضح بها هذه الحرب. ينسون أمام إله المال، إلههم الذي لا شريك له، كل خطاباتهم عن السلام والعدل وعن الحقوق والشعارات الإنسانية.

كل المليشيات والقوى اليمنية، كل الأحزاب والمجالس الانتقالية والسلطة الشرعية، كلها دون استثناء، عبيد أو مرتزقة، تدور في فلك سادتها من القوى الإقليمية المتناحرة.

تتشظّى اليمن يوماً بعد يوم، تحترقُ بصمت، تموت على نارٍ هادئة، دون اكتراث العالَم.

كوليرا بارتفاعٍ أسيٍ ضربَ رقماً قياسياً في تاريخ البشرية، مسَّ مليون إنسان.

المجاعة في كل ركن وشارع. وأطفال مستوصفنا الصحّي، الذين لا تفصل هياكلَهم العظمية عن جلدهم الشائخ المتجعد إلا فقاعات فراغ، يدمي منظرُهم القلب.

كل الأمراض صارت تقود هناك إلى التهلكة بسهولة، مباشرة وبسرعة مدهشة، من الاكتئاب والإنفلونزا الحادة وضغط الدم والسكّري، إلى الالتهاب الصدري والجلطات بمختلف أنواعها، دون الحديث عن السرطان والأمراض الثقيلة. حتى الإهانات – وما أكثرها! – صارت تقتل اليوم هناك، بكلّ بساطة.

شعبٌ يموت بأرقام تجارية، يقتلهُ حَرُّ المدن الساخنة التي أضحت دون كهرباء. لا يستلم موظفوه رواتبهم منذ أكثر من عامين، ولا يمتلك سكّانه ثمن العلاج، إن كان ثمّة علاج!

تجّار السلاح وأمراء الحروب، وقادة الطرفين المتحاربين معاً، فاسدون حتّى النخاع، تتعاظم ثرواتهم كلما طالت الحرب، دون الحديث عن: تجارة بيع الأعضاء البشرية، تهريب الآثار، تزوير العملات...

اليمن "صندوقُ وضّاح"[2] يهوي في منحدرٍ سحيق منذ ثلاث سنوات. ينتظر وضّاحُهُ السجين، بصبر فارغ، في كلّ يومٍ وليلة، لحظةَ الارتطام الأخير.

2 شاعر يمني اشتهر بجماله وحياته الغرامية الزاخرة. أبلغ أحد العبيد الخليفة الوليد بن عبد الملك أن وضاحاً في غرفة أم البنين، وكانت قد وضعته في صندوق لتخفيه، فأخذ الخليفة الصندوق، ودفنه، ووضاح داخله!

عن صنعاء، قال شاعر اليمن الكبير عبد الله البردوني:

ماتت بصندوق وضاحٍ بلا ثمنٍ ولم يمت في حشاها العشقُ والطربُ

صنعاء قلعة سقطت بيد مليشيات كهنوت صغير، يريد العودة بها إلى زمن الإمامة. اجتاحها متحالفاً مع مخلوع حاقد، وانطلقا منها لغزو وتدمير كل اليمن.

وعدن، رغم تحريرها من هذا الغزو، ليست عدن.

آخر ما هزّ شراييني في عدَن: اغتيال شاب عشريني بديع، بعد تحريرها مباشرة، لأنه قال "أرى الله في الزهور وترونه في القبور".

ثمّ، في منتصف مايو الماضي، قبل إجازتي الأخيرة مع شهد في صيف 2017، دخل داعشيٌّ من قادة أمنِ عدَن (لا يحتاج هناك إلى لثام، لأنه يمتلك السلطة)،

داخل "مقهى إنترنت"، ذبح بالسكين، أمام عيون الملأ، شاباً عشرينياً آخر، لا رقّة وطيبة كرقّته وطيبته.

ثمّ رفض رسمياً قبرَهُ في مقابر المسلمين لأنه "ملحد"، أي بقاموس القاتل الحاكم: يرى الله في الزهور، ولا يراه في القبور. وانتهت القصة بصمتٍ جماعي منافق.

ليس ثمّة، إلهي، ما هو أبشع من إخصاء روح الاستنكار، من إخماد الضمير الحي، واغتيال الأحاسيس الإنسانية في شعبٍ بكامله.

هذه مدينتي التي أذهب إليها اليوم! من يُصدِّق أنها كانت جوهرةَ الجزيرة العربية في منتصف القرن العشرين: مدينة كوسموبوليتية متنوِّرة، تحتضن المسحوقين من كل مكان، ويتعايش فيها الجميع.

ثم أصبحت بعد ذلك "قلعة الماركسية – اللينينية والتقدم والثورات" مسرحاً مدهشاً لا يخلو من الأحلام والمراهقة والجنون، ومن قوانين تقدميّة تماثل مدنيّةُ بعضها قوانينَ تونس اليوم.

عاصرتُ يوميات نشوء تجربة عدَن في تلك السبعينيات التي لا تتكرر، وعشتها بكلّ جوارحي!

ألف رواية لن تفي هذه المرحلة المصروعة المرعوشة ما تستحقّه من سردٍ وتخليد.

بعد عودة شُهد إلى باريس، وقبل عودتي لِعدَن، أسأل وحيَ بالإيميل (أخاطبها فيه بضمير المذكَّر، كما عرّفتْ بنفسها، وإن كان يقيني أنها أنثى):

ما سبب تركيزكِ على جذور علاقتي بالإيمان والوحي؟ لماذا تريدني أن أكتبَ عن مراحل وعتبات علاقتي بهذه الأمور؟

تعرفُ بالطبع، عزيزي وحي، أنني أقبل الآخر وأدافع على حريّاته بضراوة: مؤمناً، غير مؤمن، أو ملحد. لا أميّز بين هذا وذاك، وأدافع عن حقوق الجميع: المؤمن لِممارسة إيمانه، وغير المؤمن لممارسة عدم إيمانه، والملحد لممارسة إلحاده.

كل ما أطالب به: ممارسة الإيمان أو عدم الإيمان أو الإلحاد في الفضاء الشخصي الخاص بالإنسان فقط، بعيداً عن الفضاء العام، فضاءِ التعليم والمدرسة والسياسة والحياة المدنية.

في هذا الفضاء العام، لا تنشرُ المدرسةُ فكرَ الدين أو الإلحاد، ولا تعترف بمسلماتهما معاً، ولا تحثّ أحداً على الإيمان أو عدم الإيمان أو الإلحاد. مُهِمَّتُها تدريس العِلم والمعارف وطرائق التفكير العقلاني، أي: كيف نفكّر (وليس كيف لا نفكّر، كما تفعل المدرسة اليوم).

وفي هذا الفضاء العام ليس لنا غير حاكم واحد: القانون المدني، لا غير.

قل لي، إذن، عزيزي وحي، ما سرُّ هوسك بهذه المسائل؟ ولماذا تريد إقحامي في مغامرة سرد تداعيات حادث جامع العيدروس، وما طرأ على إيماني من تحوّلات بعد ذلك؟

لم ترد وحي، تباطأتْ كثيراً فيما صرتُ أنتظرُ تعقيبها على أحر من الجمر.

ثمّ علّقتْ أخيراً، بتقتيرٍ وجفاف:

مهمٌّ، عزيزي، متابعة تطورات تجربتك الإيمانية، بل في غاية الأهمية، لأن علاقتك بما تسميها "هذه المسائل" وصلت هذا المستوى الناضج، تحديداً.

ليس سهلاً بلوغ ذلك، صدّقني.

وأتمنى، أكثر ما أتمناه، أن أقرأك وأنت تلاحق سيرورة تلك التداعيات، تصطاد أهمّ عتباتها، وتسرد تطوّراتها أولاً بأوّل...

أما لماذا أعطي لـ"هذه المسائل" هذه الأهمية، فسأكتب لك كلمتين عن ذلك لاحقاً، أتمنى.

شعرتُ بالخيبة بعد إيميلها؛ عُدنا إلى الخلف، إلى عصر "عزيزي"، واختفت صيغة "عزيزي الغالي" في هذا النص الضامر الشاحب، قليلِ الألوان والحميمية أيضاً.

هذا النص الضامر الشاحب، قليلِ الألوان والحميمية أيضاً.

ثمّ كان تعقيبها قد تأخّر كثيراً عدّة أيام. ولم يحط على شاشة هاتفي الجوّال إلا بعد أن شعرتُ بالاختناق.

أما عن قولها: "أما لماذا أعطي لـ"هذه المسائل" هذه الأهمية، فسأكتب لك كلمتين عن ذلك لاحقاً، أتمنى" فيبدو أن موعد الكلمتين سيتأخر دهراً.

انتظرتُه، وانتظرتُه، عبثاً!

تمرّ الأيام، ولا أستلم من وحي حرفاً واحداً.

يبدو لي أن كلّ ما تريده هو أن أسرد وأسرد، أن أكتب كنزيف. لا تودّ مني غير ذلك. ولا تقبل أن نقلب الأدوار: أن أتحوّل إلى واضع أسئلة، وهي الساردة!

أيقنتُ بعد انتظار طويلٍ أقلقَني، وخنقني أكثر من المرّة السابقة: إذا أردتُ أن تغمرني وحي بوابلٍ من "عزيزي الغالي"، بل بوابلٍ من نداءات أرقّ من ذلك بكثير ("حبيبي" مثلاً، من يدري؟)، فعليّ أن ألاحق تداعياتِ حادثِ جامع العيدروس، وأقتحم غاباتِها المظلمة، كما طلبَتْ مني، وأن أجدف وأغوص عميقاً في لجّ أسئلتها التي تجيد تفجيرها في جمجمتي، وأن أستبطن وأحفر في العمق، وأن أبعث لها نصوص تفاجئها، تذهلها، تليق بهذه الهاوية الجليلة التي رمتني فيها.

تودّ، عزيزي وحي، معرفة تداعيات يوم جامع العيدروس؟

انكسر شيء فعلاً في حياتي، بعد حادث الجامع.

كانت مغادرة منهل البركات ومعين المعجزات، الشيخ نور الدين، لحظة حسرات في قريتنا.

أما بالنسبة إلي، فكنتُ كمن تحرّر من قيدٍ يُكبّل رقبته منذ نعومة أظفاره، واكتشفَ أهمّ سرٍّ في الحياة بفضل تلصُّصِه الحميد من ثقبَين مبارَكينِ مقدَّسين، في محراب وقبّة الجامع.

استحضرتهما، هاذين الثقبين، لاحقاً كلّما كنت أقر قصيدة "فصل في الجحيم" لآرثور رامبو، وأتابع الجدل الدائم حول عبارتها الأخيرة: "لعلّي أمتلك الحقيقة في روحٍ وفي جسدٍ"؛ بفضلهما شعرتُ يومذاك أنني أقبض على الحقيقة في روحي وفي جسدي كليهما، في وقتٍ واحد.

ببركاتهما، أدركتُ، يوم حادث الجامع، شيئاً أضاء طفولتي، وكل كياني بعد ذلك: لا حقيقة إلا ما يراد الإنسان من ثُقْبَي المِحْراب والقبة في جامع العيدروس.

ورويداً رويداً، سألاحظ على المنوال نفسه: لا حقيقة إلا ما يراه من ثُقْبَي التلسكوب والميكروسوب، وما يشاهده بأعين مختبرات العِلم والتجربة والبراهين.

أستوعب الآن فقط سعادة ودهشة غاليلو وهو يثقب بتلسكوبه السماء، ويثقب جبين الظلمات في الوقت نفسه.

يفتح بثقبِه النوافذ لأنوار سماء العِلم، ولِهواءِ الحقيقة.

كل سماء المعتقدات والأساطير تنهار إثر ذلك، كقصرٍ من ورق.

ثمّ لم يقلْ لنا مخترع التيلسكوب والميكروسكوب معاً، غاليلو، شيئاً آخر غير: كل ما عدا الحقيقة المبرهنة فرضيات لا غير، أو ميثولوجيا وتخييل (بما في ذلك "مقهى الكوكبة" في السماء السابعة والسبعين: مقهى كبار العباقرة والمفكرين، الذي يرتاده يومياً في الخامسة عصراً داروين، آينشتاين، بيكاسو، أبو العلاء المعري، كارل ماركس، نيتشه، وعددٌ هائل من عباقرة ومبدعي البشرية... كما سردَتْ تفاصيل يوميات هذا المقهى وأسراره روايةُ "تقرير الهدهد"!).

يلزمني، عزيزي الغالي وحي، أن ألخّص أولاً في بضع صفحات الخطوط العريضة جداً لسياق حياتي (لعلك

تعرف جزءاً مهماً منه)، ليكون سرد كل التداعيات والعواقب التي تودّ اكتشافها جليّاً بعد ذلك.

بعد حادث الجامع ببضع سنوات، في منتصف 1969 (في نفس شهر وصول أرمسترونج إلى القمر!) كان عليّ ترك حياة القرية، والعيش في قَمَري: عدَن، عاصمة جنوب اليمن، الذي انتزع حينذاك استقلاله من الإنكليز في 1967، والالتحاقَ بمدرسة إعدادية، في قلب "أم الدنيا" آنذاك، أو "أم الجزيرة العربية" على الأقل.

مدينةٌ بحريّةٌ ساحرة ممتعة، يختلط فيها اليمنيون بالهنود بالأحباش بالصومال بالعرب بالوافدين من كل مكان. ميناءٌ مهم مفتوح على الدنيا (كان ثاني أهمّ ميناء في العالَم، قبيل سنوات فقط من وصولي. من يصدّق ذلك اليوم؟!)، يقعُ في مركزِ سُرَّةِ الكرة الأرضية. له عينٌ على الهند وشرق آسيا، والأخرى على أوروبا وبقية بلاد العرب.

كانت عدَن حينئذ رمزاً للمدينة السعيدة: بحارُها، وأسراب الطيور المهاجرة التي تستلقي في شواطئها على طريقِ بحريٍّ طويلٍ في قلبها (البحر يتوسّط عدَن كالرئتين)، وجبالها البركانية الآسرة، وسفن البحارة التي تستلذّ في البقاء فيها، وأثر الاختلاط العرقي والتماس الحضاري في ثراء حياتها المدنية، وثقافة المرح

والضحك الرابضة في جيناتها... تجعلها جميعاً نافورةَ سعادة.

التسكع والرقص والضحك فيها جزء من حركتها الدموية.

أما الحياة في القسم الداخلي لمدرسةٍ إعدادية أو ثانوية فيها، واستلام منحة شهرية من وزارة التربية والتعليم، فهي الحريّة المطلَقة وقمّة السعادة لطالبٍ وصلها من جبال الحواشب.

كان عبد الباري، الابن الأوسط لإمام جامع العيدروس، قد وصلها قبلي بكثير، ولكن لسبب مختلف، غامض جداً.

بعد حادث جامع العيدروس بسنتين أو ثلاث، كان عبد الباري مثار همز ولمز أهالي طور الرعد.

السبب: لجأ إلى الجامع، واعتصم فيه، وقرّر ألّا يغادره إطلاقاً.

كان مُضرباً عن الطعام. ينام في المسجد، ويرفض العودة إلى البيت. لا يعرف أحدٌ لماذا، إلا أمّه، كما يقال.

كان مثار حديث القرية، وإن لم يعطِ الناسُ اهتماماً أكبر من ذلك لحالته، لأنه كان غريب الأطوار بالنسبة إلى معظمهم، وفي علاقة متوترة دائمة مع والده.

كان من أصدق وأطيب الناس بالنسبة إلي. نافورة براءة. أكثر شباب قريتنا حبّاً للمعرفة. صريحٌ وشفّافٌ

ورقيقٌ على نحوٍ متميّز، لا يخلو من الحساسية المفرطة والعصابية.

وضْعُه صعبٌ بين أخويه. الأصغر: مُدلّلُ أبيه، خليفتُه وظلُّه، مُخبِرُهُ ومحبوبُ قلبِه، ومفخرته لأنه كان يحفظ **ألفية ابن مالِك**، بجانب **القرآن الكريم** طبعاً، عن ظهر قلب.

الأكبر بسيط في كل شيء، خدومٌ للجميع، مطيعٌ يؤدّي كلَّ مهمات العائلة بتفانٍ دائم، يقبل من الحياة كل باطل باستكانةٍ وهدوء، ولا يبحث في هذه الحياة عن شيء يستحق الذكر.

زوجة إمام المسجد كانت أشدَ الناس قلقاً حول وضع ومصير ابنها عبد الباري، لأنها الوحيدة التي تعرف سرّ إضرابه عن الطعام. ولعلّها قد باحت بذلك لوالده.

طالت مدة إضراب عبد الباري، دون أن يتدخّل الإمام، لأنه يعرف سرّ الإضراب، ويعرف مدى عناد ابنه، ومقدرته على عمل شيء غير محمود إذا تمّت مواجهته بالطرق القاسية.

ثم أن سبب الإضراب غريب جداً، والعراك جهراً مع عبد الباري حول ذلك ليس من مصلحة الأب، كما يبدو جليّاً لمن يعرف سليقة الإمام وأمزجته.

أمّ عبد الباري أكثرُ من مزّقها القلق، مع استمرار الإضراب، رغم كل ما بعثته من رسائل ووعود وتوسلات

لابنها المتمرد في المسجد، عبر أخيه الأكبر، عبد اللّه، الذي يجهل مثل الجميع سبب هذا الإضراب الغريب، ويعيشه بقلة اكتراثٍ، وبرودٍ ثابت كعادته.

أوحث الأمّ لِزوجها بطريقة الحل، وأقنعته بأن لا حلّ غيره، إذا أراد تلافي وفاة ابنه الذي صار ضامراً شاحباً، بعد أيام من الإضراب، وبحالة نفسية متردية جداً: على الإمام أن يذهب إلى المسجد، ويختلي بعبد الباري، رأساً برأس، ويشرح له كل شيء.

كل شيء؟

نعم، كل شيء: طريقته في استنطاق الشيخ نور الدين عندما جاء إلى القرية، كيف وبأي لغةٍ كان يتحدّث معه، وكيف يستطيع عبد الباري تعلّم هذه اللغة.

بالإضافة إلى كل ذلك، يلزم أن يعلّمه كيف يفعل عندما يخاطب الجنّ في رؤوس المرضى الذين يصلون للعلاج في الجامع، وكيف يطرد الشياطين منهم...

الحقّ أن عبد الباري لم يعد قادراً على النوم منذ أسابيع. يؤرقه ذلك، ويهمُّه سماعُ الإجابات سريعاً، لأنه يريد أن يمتلك كلّ هذه القدرات الخارقة والمواهب الجبارة مثل أبيه.

يخاف، لسببٍ أو لآخر، أن يغدو يوماً ربَّ العائلة، مسؤولاً على ضمان قوْتِها وكلّ حاجاتها، بدلاً من أبيه

ودون أخوَيه، فيما لا يعرف حتى اليوم سرّ المهنة.

يريد، باختصار، أن يتحدّث مثل والده مع الشيخ نور الدين ذات يوم، وأن يرث ويكتسب كل مؤهلاته وخبراته.

أدرك الإمام أنه لا سبيل إلى إقناع ابنه بوقف الإضراب عبر النصح والإجبار، وليس هناك من حلٍّ فعلاً كما قالت الأم التي زاد قلقها ومعاناتها سوى اختلائه بالمتمرّد، والبوح له بسرّ المهنة!

لا يعرف أحدٌ ما دار في الحديث بين الاثنين. كل ما لاحظناه في القرية أن عبد الباري توقّف عن الإضراب عن الطعام، و... هرب إلى عدَن (لسببٍ سأعرفُه بعد سنين!).

بعد سفري إلى عدَن، لم أعد أرجع إلى القرية إلا في الأعياد فقط. ألتقي بمن يأتي منها إلى العاصمة لا غير، ولاسيّما أمّي الحبيبة التي تزورني بانتظام (توفّى والدي وأنا في التاسعة من العمر).

لم أرَ عبد الباري الذي كان يعيش في حيٍّ آخر بعيد في عدَن. ولم أكن أبحث عن أي شيء يقرّبني من قريتي، وأهلها، وذكرياتها التعيسة. لا أشتاق لشيءٍ فيها سوى لِجبل القُلّة الذي يحتضن قريتنا (تتكئ عليه بكسل)، وإن طالما تحدّثت معه في طفولتي، وأفضيت له بهمومي وتساؤلاتي الوجودية، دون رد.

أستحضر دوماً هذا الجبل البركاني المثير. تتناثر "منقوفةٌ" فيه كهوفٌ وثقوبٌ لها ألوان فاتحة نسبياً قيل أن الأجداد كانوا يعيشون فيها. صارت مأوى ليلياً للضباع.

أسمّيها: جراح القلّة.

تبدو فعلاً أشبه بطعنات تجتاح جسد عملاق. تفزعني قليلاً أحياناً.

قريتنا النائمة في حضن القلّة تنحدر نحو وادٍ يتّسع نحو الشرق هنا، أو الغرب هناك. بيوتها حجرية صغيرة، وحولها تباب بركانية.

ينزل المطر فيها صيفاً، بُرُوقهُ كثيفة ورعودهُ مدوية تصمّ الآذان. أهلها يعيشون من الزراعة، وبعض الأعمال المهنية. وقليل منهم مغتربون هنا أو هناك...

أشتاق أحياناً لِـ"سوق الأربعاء"، في قريتنا، الذي تتوافد إليه حمير القرى المجاورة، وبقرها، وفلاحوها وبضاعتهم، وأصدقاءُ لي في كل ضيعةٍ مجاورة، يحملون دوماً قصصاً جديدة ونكتاً وشذراتِ سعادة.

تكفيني عدَن الآن، هي أمّي وأبي وكلّ حياتي.

وليس ثمّة أجمل من العيش في مدارس داخليتها: حريّةٌ مُثلى في الخروج والدخول والعيش كما نحب، منحةٌ شهريةٌ كافيةٌ من الحكومة، مراهَقَةٌ بلا قيود، حبٌّ للبنات يشرخ العظم، وعشقٌ في خلاءات كثبانها الليلية

الساحرة، بين الآن والآن. ضحكٌ من الفجر حتّى آخر الليل، وتعليمٌ جيّدٌ أيضاً.

ثمّ انتقلتُ للدراسة الثانوية، وعشتُ في مدرسة داخليةٍ أيضاً.

عند وصولي إلى عدن، بدأ تغيّرٌ مهم في الحياة العامة حينذاك، مع اشتعال "المدّ الثوري" بعد الانقلاب السياسي في 1969، داخل قيادة الحزب الحاكم لجنوب اليمن (الذي سمّي بعد ذلك: ج.ي.د.ش[3])، والقرارِ ببناءِ "التجربة الاشتراكية العلمية" التي بدأت تحاكي جنون الثورة الثقافية الصينية، ونظام بول بوت في كمبوديا.

3 جمهورية اليمن الديموقراطية الشعبية.

ثم انصاع التيارُ الصيني "المراهق"، في قيادة الحزب الحاكم، لِتيار "النضوج الثوري السوفياتي" ولبلاغة لغته الخشبية التي لم تكن أقلّ "أدلجةً" وثقلاً وإقرافاً من بلاغة "الماويين المراهقين".

عشنا كل أيام هذه التحولات مع ذلك بتفاعل إيجابي وحبور أحياناً، رغم ازدياد قساوة الحياة، وهرب معظم الأجانب والعائلات العدَنية العريقة من مسقط رأسهم.

انخرطتُ مثل كثير من الطلاب والشباب في هذا المدّ الثوري، وكنّا نردد شعارات الماركسية اللينينة

طوال الوقت، ونشعر أننا نمتلك هذا العالَم بأكملِه، بكلِّ "حركاته الوطنية" من السنغال إلى كوبا، من فنلندا إلى موزمبيق، من فيتنام إلى فرنسا. وسنقوده قريباً حتماً، لأن "سِمَتَهُ"، كما تردِّد لنا وسائل الإعلام مليون مرّة في اليوم: "انتصار المعسكر الاشتراكي، وهزيمة المعسكر الرأسمالي".

تغيّرتْ حياة قريتنا كما سمعتُ بعد "تصاعد المدّ الثوري": هرب إمام المسجد إلى السعودية، لأنه صار، وفق بلاغتها الثورية، من طبقة "الكهنوت الإقطاعي البغيض"، بكل ما يتبع ذلك من ملاحقات "ثورية" وتصفيات "طبقية" تبعث على الهلع والقشعريرة.

بقي الابن الأكبر عبد الله يعمل في القرية، ليتكفّل حاجات حياة أمّه وأخواته، فيما وصل عبد القهّار إلى عدَن، كما سمعتُ.

لم أره إلا وأنا في آخر عامٍ في الثانوية العامة، لأنه سقط كجلمود صخرٍ حطّه السيل من علِ، على نفس مدرستنا، في سنة "ثانية ثانوي".

وكانت تجمعنا معاً، في المدرسة نفسها، "المنظمة القاعدية" (م/ق) للحزب الحاكم: "حزب العمال والفلاحين، وسائر الكادحين" الذي "لا صوت يعلو فوق صوته"، والذي يقود البلد نحو بناء الشيوعية، بعد "إنجاز مهمات مرحلة الثورة الوطنية الديموقراطية":

المرحلة الانتقالية "التي تفصل بين ما قبل مرحلة الرأسمالية، ومرحلة بناء الاشتراكية والشيوعية" (التي اختلفنا حول تصوُّرِ عدد سنواتها. ثمة من يقول 15 عاماً، وثمّة من يقول 25)، قبل الارتقاء إلى المجتمع الشيوعي الذي يحقق للإنسان السعادة المطلقة، تحت شعار: "كلٌّ حسب طاقته، ولِكلٍ حسب حاجته ورغبته".

صدق الله العظيم!

كان الحديث عن المهارات الثورية للرفيق عبد القهّار (أو قهّاروف، بكل بساطة، كما أُطلق عليه) قد سبقه، وثمّة من يهمس أنه "الطفل المدلّل لرئيس الدولة، أو للأمين العام للحزب القائد".

هكذا، بعد أن كان طفلَ أبيه المدلّل، ها هو الطفل المدلل للقائد!

لا يمكنه الحياة دون أن يكون الطفل المدلل للبطريرك، أيّاً كان هذا البطريرك: الأب، الرئيس، الأمين العام، الملك، بابا الفاتيكان، أمير المؤمنين، زعيم المافيا...

كيف استطاع أن يغدو الطفل المدلل لِرأس القيادة السياسية الماركسية – اللينينية، هو الآتي من "أصولِ كهنوتية إقطاعية"، وفق بلاغة تلك الأيام؟ سؤال سيُفجّرُ جمجمةَ الشيطان، من فرط صعوبته!

الردّ الأكثر انتشاراً على هذا السؤال البازلتي: قهّاروف، بكل بساطة، نموذج ناجح لـ"الانسلاخ الطبقي"، وفق بلاغة تلك الأيام أيضاً.

"انسلخ" من طبقتهِ الاجتماعية الأولى (الإقطاع الكهنوتي)، "تَبَثلَر" (أي صار بروليتاريّاً في أفكاره وممارساته)، وساهمَ في انتصار "الانتفاضات الفلاحية" لـ"سحل" الإقطاع في الريف (أي: جزر وقتل مُلّاكَ أراضٍ زراعية ممن كانوا يُسمّون الإقطاع، في الحواشب والمناطق المجاورة)، وكان ضمن "عناصر" "القطاع الطلابي" و"الأشكال الجماهيرية" الأكثر نشاطاً خلال "الأيام السبع المجيدة"[4]...

4 سبعة أيام في بداية سبعينيات جنوب اليمن، كلها مسيراتٌ ثورية على غرار الثورة الثقافية الصينية، وحملاتٌ تدعو لتأميم الاقتصاد والمساكن، وإحراق حجاب المرأة، وتخفيض الرواتب...

لذلك صار قهّاروف السكرتير الأول لمنظمتنا القاعدية (م/ق) للحزب، التي توجّهُ إدارة المدرسة الثانوية وحياة داخليتها، و"تلعب الدور الطليعي القيادي في حياة المرفق"، مثل أي م/ق في "مرفق عملٍ أو دراسةٍ أو إنتاج"، وفق بلاغة ذلك الزمان.

لذلك، كان هو من "يتأمّم" بنا كل صباح، ويقف في المنبر، أمام طوابير صفوف مدرستنا الثانوية، المتراصة في لحظة بدء اليوم الدراسي ببدلات عسكريّة إجبارية

بقماش كاكي متين، لأداء القَسَم الوطني والأناشيد الثورية، بلحنٍ آتٍ من ألحان "الموالد النبوية" الصوفية الرقيقة، التي لا تتناغم، مبدئياً وذوقياً، مع كلمات نشيدٍ ثوريٍّ يُبجِّلُ العنف والصراع الطبقي المضرَّجَ بالدم، مثل:

عنف ثوري وبالبندق رفعنا العلَمْ
عنف ثوري، ورأس الفأس يقطر بدمْ

تليها:

باندافع عن الثورة اليمنية، بالروح بالدمْ
بانّنفذ خطتنا الخمسية، بالروح بالدمْ

ثمّ:

عادت الأرض بالقوة وبالانتفاضات
عنف، بالعنف، لولا العنف الإقطاع ما مات
ولولا بالعنف ما ماتت جميع الحثالات
ولولا بالعنف ما العالم تفجّر بثورات

تليها:

يا علي ناصر ويا بن محمد
يا أمين اللجنة المركزية
ما "نُبَى" خائن ولا خطّ رجعي
والجماهير كلها ماركسية

وأخيراً:

يا سلام ثوري على جيش شعبي

عندهم للخصم قطع الرؤوس

بعد هذا الخلط العجيب بين مواييل لحنٍ صوفيٍّ غراميٍّ رخيم، وقذائف لغةٍ ثوريّةٍ مجذوبةٍ مرعوشة، وبعد هذا "النَّقْف" للرؤوس من صبح الله الباكر، يبدأ قهّاروف خطبته التحريضية الصاخبة، المشحونة برزمة من عبارات: "المادية الديالكتيكية"، "المادية التاريخية"، "الظروف الموضوعية"، "الظروف الذاتية"، "العنف الثوري المنظم"، "إرهاصات الصراع الطبقي"...

يليه مدير المدرسة الذي يصعد إلى المنبر مطأطئ الرأس، لِيلقي خطبةً خجولة، وقد تقلّصت مهماته الإدارية أمام مهام هذا "السكرتير الأول لـ م/ق للحزب القائد"، ذي المواهب الثورية الماركسية – اللينينية الاستثنائية التي أثارت إعجابَ البطريرك الأكبر للحزب والدولة، وتعلّقه به.

ما يهمني، عزيزي وحي، بعد هذه المقدّمة الضرورية حول سياق تلك الأيام، سقى الله ذكراها، هو التالي: قرّر قهّاروف يوماً، في إحدى الاجتماعات الدورية الأسبوعية للمنظمة القاعدية (التي تبدأ في العصر، وتنتهي في منتصف الليل) أن يكون في رأس جدول الاجتماع قرار رسمي واضح، يجرى التصويت عليه بالإجماع، ينصّ على "أن الله غير موجود"!

هنا، عزيزي وحي، جُنّ جنوني!

فرغم أنني، بسبب قراءاتي وبسبب السياق السياسي الماركسي – اللينيني الذي لم يكن يشجّع كثيراً على التديّن، لم أكن في طليعة المتديّنين بدين، بل كنت بالتأكيد (بعد انكسار شيءٍ جوهري في أعماقي مرتبطٍ بالإيمان، إثر مسرحيةِ جامع العيدروس، وإن ظلّ في مداميك الروح شيءٌ عميقٌ ما، يصعبُ إزالته) أقلَّ أعضاء م/ق إيماناً... رغم كل ذلك، جنّ جنوني عند بدء مناقشة مشروع قرار الرفيق قهّاروف، سكرتير م/ق ("ملك التعريص" كما أسمّيه)، بنفي وجود الله!

***

قبل أن أسرد لوحي محضر ذلك الاجتماع، الذي أراد به قهّاروف اتخاذ قرار من م/ق يغيّر مجرى التاريخ وعلم الطبيعة والفلك والهندسة والجيولوجيا وعلم النفس التطوّري والكيمياء الذريّة، كان لزاماً أن أغوص طويلاً في ذاكرتي لقنص واستجرار كل تفاصيل ذلك الاجتماع، بعد أكثر من أربعة عقود منه.

فضّلتُ أن أكتب كل ذلك بعد العودة من عطلة الخريف التي اختارتْ شُهدُ لها اتجاهاً خالداً جعلني أطير من الفرح: أرخبيل غالاباغوس في الإكوادور.

نعم، غمرتني سعادة عنيفة، لا توصف، عندما قالت لي شُهد إن رحلتنا المقبلة لإجازة الخريف ستكون في أرخبيل غلاباغوس!

أنتظر الذهاب إلى هذا الأرخبيل منذ دهر. ولم يعد ثمّة في كرتنا الأرضية موقع لزيارةِ استكشافيةٍ خالدة بهذه الروعة، بعد أن زرنا وعشنا في أروع وأهم بؤر كوكبنا الأزرق الفسيح: من كل أصقاع منتزهات سرنجيتي في كينيا وتنزانيا إلى منغوليا، مروراً بجبال الهملايا وأغوار الهند. ومن جنوب أفريقيا إلى نيوزلندا، مروراً بكل أوروبا الغربية والشرقية والوسطى. من أستراليا إلى غرب الأمريكتين، مروراً بكل سراديب بلاد العرب، خلا المملكة السعودية والإمارات الخليجية، حيث تعيش، في قصرٍ ما هناك، "الغريبةُ العجيبةُ" (كما تسمّيها شهد): وحيٌ، التي أهلكتْ أشواقي لإيميلاتها، وفجّرتْ رغبات قلمي في الكتابة الدائمة لها، وأقلقت روحي وأنا أتصوّر عذابات يوميات حياتها في سجن والدِها الذي أجهل من هو، وفي أي مدينة في شبه الجزيرة العربية يختبئ، أو يعيش، أو يحكم.

غلاباغوس تعني بالإسبانية الفصحى جزر السلاحف، وتعني كما يُردَّد غالباً: "الجزر المُسكِرَة"، أو "الجزر الساحرة".

هكذا، بعد "الجزر الرغيدة"، في آخرِ رحلةٍ لنا في خليج نابولي، وأوّلِها أيضاً في نهاية الثمانينيات من القرن المنصرم، ها نحن في أكثر جزر الدنيا سحراً وإدهاشاً، وأهمّها في تاريخ الاكتشافات العلمية حول أصول الإنسان، وأولاد عمّه (بقية الحيوانات)، وكل أقاربه وذويه (بقية الكائنات الحيّة).

حال الاقتراب بالسفينة من غلاباغوس، تغمرني مشاعر راقصة جيّاشة مختلفة. شعرتُ أننا سنعيش أمّ الاكتشافات والمفاجآت.

أرخَت سفينتنا، القادمة من الإكوادور، حبالَها في أقصى جزيرةٍ غلاباغوسية: شاتام (كما كانت تُسمّى في أيام داروين. أو سان كريستوبال، كما تُسمّى اليوم)، في شرق الأرخبيل الذي يبعد أكثر من ألف كيلومتر عن الشواطئ الشرقية للإكوادور في شمال غرب أميركا الجنوبية.

كنّا كمن وصل كوكباً آخر، أو كمن وصل كوكب الأرض قبل طوفان سفينة نوح: بيئةٌ بركانية غير اعتيادية، تضاريسها لا تُشبه تضاريس. فوهاتٌ بركانيةٌ في انتشارٍ عجيبٍ حولنا. أشجار الصبار لها أشكال لم

نرها من قبل. معظم النباتات والحيوانات نكتشفها هنا لأول مرة، وليس لها مثيل خارج الأرخبيل.

استحضرتُ عالَم "مايا" الذي أشيّدهُ منذ نصف قرن. لعلّه موجودٌ في مكانٍ فعلاً، غير بعيد من هنا!

على طريقنا بالسيارة، عند الخروج من ميناء شاتام، سلحفاة عملاقة هائلة لا تعيش إلا في هذا الأرخبيل، مملكةُ هذه الكائنات الفريدة.

عندما تواجهُ في طريق سيارتك، في الهند، بقرةً قابعةً في منتصفه، فعليك بالتوقف، وبالتنفّس ملء الرئتين، وبوضع شريطٍ موسيقيٍّ لأمّ كلثوم تستمع إليه، بانتظار أن تنهض البقرة وتغادر الطريق وحدها، دون أن تفكّر بإزعاجها بصفير السيارة كي تغادر طريقك: ستثير بذلك سخط الشعب الهندي الذي يكنّ للبقر، كما يعرف الجميع، تقديساً خاصاً.

أما إذا كانت أمامك سلحفاة عملاقة في غلاباغوس، وزنُها أكثر من أربعمئة كيلوغرام، تتمطّى وتتمايل وتتبختر بغنجٍ ميكروسكوبي، قبل أن تتوقف لتلتهم شجيرة صبار صغيرة نَمَت في منتصف طريق، فأقفلْ مفتاح السيارة. ضع فيلماً هندياً طويلاً على شاشة السيارة أو الهاتف، يستمر بضعة ساعات، بانتظار أن تبتعد السلحفاة وحدها عن وسط الطريق.

سيدهمُك هذا السؤال بالطبع: من أي كوكبٍ سقطت هذه السلاحف العملاقة؟ كيف غزت الأرخبيل؟ لماذا لا توجد سلاحف مثلهنّ في أي مكانٍ آخر في الكرة الأرضية؟

بانتظار مغادرة السلحفاة (التي أطلقتُ عليها شُهد اسم "سميرة")، لاحظنا، غير بعيدٍ من موضع توقفنا الطويل "مقبرة السلاحف" التي كتب عنها داروين في مذكراته، حيثما أخذ عالِمُ الأحياء الشهير معه درع سلحفاة مقعَر فارغ استخدمَهُ كحوض سماد!

أشعر بالدهشة التي اعترته، يوم رسو سفينته "بيجل" هنا، في 17 سبتمبر 1835، وهو يرى هذه الكائنات العملاقة، وحاجته إلى أخذ 50 سلحفاة منها معه لدراستها بعد العودة إلى لندن، ليكتشف حينئذ، بمعونة العالِم المتخصص جون جولد، أنها تنقسم إلى 15 نوعاً بيولوجياً بأشكال مختلفة: قوقعةُ ظَهرِ بعضِها مثل القبّة، وبعضِها مثل صهوة الخيل...

رمقتُ إيميلاً على هاتفي، كان قد وصلني من وَحي!

طويلٌ جداً، لا يمكنني قراءته أمام شُهد التي وعدتُها بقطع مراسلاتي مع وحي.

لاحظتُ أنه نصٌّ تفي فيه وحيٌ بوعدِها السابق: "أما لماذا أُعطي لـ"هذه المسائل" هذه الأهمية، فسأكتب لك كلمتين عن ذلك لاحقاً، أتمنى".

”تنظر إلى هاتفك الجوّال بتواترٍ أكثر من المعتاد، تنتظرُ إيميلاً مهمّاً؟“، تسألني شُهد ونحن نراقب جلالة السلحفاة سميرة المنتصبة وسط الطريق.

– آه، صارت حركة النظر إلى الهاتف لا واعية، لسوء الحظ. المعذرة شُهدي.

ثمّ أقفلتُ هاتفي، وقلبي عليه، رغم أنني أبدأ رحلةً تاريخية، انتظرْتُها كما لم أنتظر رحلة من قبل، ويلزم أن تأسرني كلّاً، قلباً وقالباً، دون شريك.

أهيمُ بعيداً ونحن ننتظر عبثاً أن تترك لنا جلالة السلحفاة سميرة الطريق.

لو كان لي أن أتذكّر رحلةً واحدةً فقط، قبيل أن يزورني عزرائيل، خضناها، شُهد وأنا، فربما لن تكون ضمن رحلاتنا إلى البؤر السياحية الشهيرة الكبرى، في الصين أو منغوليا أو الهند أو أفريقيا أو أميركا الجنوبية، بما فيها غلاباغوس.

ولن تكون (تلك الرحلة، التي يحقّ لي استحضارها قبيل وصول قابض الأرواح) ضمن رحلاتٍ لم يكن الموت بعيداً عنّا خلالها، عندما كنا، شُهدُ وأنا، على مقربة من انفجارات أو أحداث عنيفة دهمتنا على حين غرّة، في أكثر من بلدٍ شرق أوسطي أو أفريقي كنا نعبره.

ولن تكون تلك الرحلة التي فاجأتنا فيها عصابة لصوص في قريةٍ جنوب أفريقية نائية، أو كولومبية، نهبت فلوسنا وهواتفنا بمهنيةٍ، بعنفٍ وفظاظةٍ تركت آثاراً نفسية لم تندمل سريعاً.

ولن تكون أيضاً ذكريات انتهاء بنزين السيارة، بعد أن ضعنا في طرق المغامرات التي كان يأخذها قبلنا المغامر هنري دو مونفريد في شواطئ البحر الأحمر في تهامة في اليمن (بين المخا والخوخة، قريباً جداً من المكان الذي اخترته لمستوصفي الصحيّ)، عندما كدنا نموت من الظمأ والجوع، قبل أن... يبزغ أمامنا (لا ندري كيف) شابٌّ ملائكيٌّ صغير من خلاء شبه صحراوي لا يعيش فيه بشر، لِيأخذنا إلى واحة يعيش أهلها كما يعيش الناس في سافانا شرقِ أفريقيا، ومنها إلى عوالم أفريقية مدهشة لا تُنسى، ذات عادات وتقاليد شرق أفريقية، لم تخطر ببالي يوماً أنها يمكن أن توجد في اليمن.

لم أدرك إلا يومها أن لليمن رئتين: آسيوية وأفريقية، وأنها تُهمَل أو تُنكِر نصفَها الأفريقي الباذخَ الطيبة والجمال.

لا، لن تكون الرحلة التي ستنبعث من حجرةٍ مظلمة في دماغي (عند وصول مُنهي الملذات ومفرِّق الجماعات) واحدةً من كل تلك الرحلات.

ستكون رحلةً بسيطة في جُزيرةٍ صغيرة جداً في اليونان، لا يصلها السيّاح، ذكّرتُ كلَّ تفاصيلها شُهدَ ونحن ننتظر إخلاء عزيزتنا السلحفاة سميرة منتصف الطريق.

كانت ثاني رحلة لنا، شُهدُ وأنا، في نهاية الثمانينيات من القرن المنصرم.

قضيناها في غرفةٍ معزولةٍ عن العالَم، قابعةٍ بين أشجارٍ مُطِلَّةٍ على شاطئ صغير، لنا وحدنا لا غير.

لم نكن نرى فيها أحداً، عدا شيخةً مسنّة، لا أدري من أين تأتي في الصباح الباكر مع قافلةٍ من أطفالِ أطفالِها، قبل أن نرمقها في مكانٍ ملائمٍ جداً للسباحة والاختلاء، غير بعيد عن غرفتنا.

ثم، بعد مغادرة الشيخة وقبيلتِها، تصبح الجُزيرة لنا وحدنا، طوال بقية اليوم، قبل تسكّعنا الليلي تحت سمائها الفاتنة، ونجومها المتلألئة، التي تشفط أرواحنا نحوها طوال غسقها العاطر.

في جولات الفجر، كنّا نرى الإله أبولو، بشعرهِ الكستنائي وعينيه الزرقاوين وجلد النمر الذي يرتديه وجعبة سهامه الذهبية التي لا تنضب، فوقنا يغني بقيثارته الذهبية، مثل شمسٍ تضيء لنا الطريق.

وفي المساء، كان الإله ديونيزوس، وعلى رأسه إكليل من أغصان الكروم وعناقيد العنب، يعلّمنا كيف نعيش

الحياة نشوةً وانزياحاً وعشقا للفن والجمال.

وفي الأفق، كانت الإلهة أثينا ترعانا دوماً بنصائحها، وتغمرنا بنظراتِ ألمعيَةٍ مشجِّعة.

وفي غرفتنا، كانت قائدة أوركسترانا الإلهة أفروديت تعزف لنا أغنيتها المفضلة: "الرغبة نسغ الحياة. اللهم زدني رغبة".

قضّينا الأسبوع في العوم صباحاً، ثم في الحياة كما لو كنا حواء وآدم. نعشق بعضنا بعضاً في غرفتنا الصغيرة معظم الوقت، ونتسكّع في فجرِ وليلِ أجمل سماء.

لعلّ ارتباطي الحميمي بهذه الجزيرة الإغريقية تمتّنَ لسببٍ آخر رئيسي: علّمتني شُهد فيها فنوناً صوفيةً تخييلية، سأمارسها منذ ذلك الوقت، بمزيدٍ من النجاح والمتعةِ مع مرور الزمن.

قالت لي هناك فيلسوفتي الصغيرة هذه الحكمة الصينية: "لنتعلّم كيف نصغي إلى الفضاء وهو يتنفس، وكيف نصغي إلى التنفس وهو يتحوّل فضاء!". هذه الومضة الروحية التي لم أستوعبها في البدء.

– تاريخ الأرض مختفٍ في بطنها. يمكنُ استنطاقهُ واكتشافهُ من الحديث مع الحجارة!

– الحديث مع الحجارة؟ ما هذا التخريف، شُهدي؟... قضّيتُ طفولتي أناجي جبل القلّة (الذي له شكل

تنادي.

– جرّبْ ذلك، استغرقْ في النظر إلى حجارة المآثر والكنائس والمساجد والجبال وغيرها، وقتاً طويلاً. ركّزْ كل دماغك عليها، افتح كل نوافذ مخيلتك وأحاسيسك، وانسَ العالَم الذي يحيطك. انساه تماماً. ستدخل بعدها في حوارٍ ذهنيّ لذيذ معها، وستبوح لك بتاريخها، وبكل ما رأته من أبد الأبدين.

ستكشفُ لك أسرار من مرّوا أمامها، وستستطيع أن تدخل ربما في حوار مباشر معهم!

ثمّ أضافتْ عبقريّتي الصغيرة:

"الغمام روح الحجارة

الحجارة جسد الغمام

حجارةٌ طائرة، أم غمامٌ متحجّر؟

من يسبر غور هذه الحركات؟".

كما يقول الصيني بجزونج جرينج.

سخرتُ من هذه الانزياحات الفكرية في البدء. ثم تعلّمتها رويداً رويداً وأنا أحدّق طويلاً، ساعات وساعات، في حجارة الأهرام والبتراء (عاصمة بلاد الأنباط)، في ثالوث مركز فلورنسا (الكاتدرائية، برج الكمبانيل، المعمودية)، معابد انغكور بكمبوديا...

أهيم مع الغمام التي تسكن روح كل هذه الحجارة، وأحاول بصعوبة سماعها وهي تناطقني.

ثم، بعد مزيدٍ من التمرّس والمواظبة والتركيز والتخييل، والاندماج الكلي في ما أتأمله، تطوّرتُ في ممارسة هذا الفن الصوفي الجميل، وصار بُعداً لذيذاً من أبعاد حياتي، ألجأ إليه بانتظام عندما أخلو بنفسي أمام المآثر الخالدة، في بعض المدن أو حولها.

آخر تجاربي الناطقة: قبل يومٍ من استشهاد النورس في مدينة لوهافر الفرنسية، على بحر المانش المواجه لِبريطانيا، توجّهتُ نحو قرية غير بعيدة من لوهافر. كنتُ قد اشتغلتُ فيها في أول أسابيع وصولي إلى أوروبا، كعامل بناء.

أتذكّر بالطبع، دقيقة دقيقة، كل تفاصيل هذه التجربة المهنيّة البروليتارية المُهلِكة لِمن جاء طازجاً إلى هذه الديار النورماندية من يمنِ السبعينيات.

ما يهمني هنا: كنتُ أمرّ قرب كنيسة صغيرة، قبل الذهاب إلى ورشة البناء. أتوقَّفُ طويلاً، وأحملق في الطريق، وفي حجارة الكنيسة.

لم أكن حينذاك أعرف لغة الحديث مع الحجارة التي علّمتني إياها شُهد، أو لعل حديثي كان باتجاهٍ واحد، لا يُجيد الإصغاء إلى همسات الحجارة حينذاك.

كنتُ أرثي هذه القرية النائية الضائعة في الريف النورماندي، أرثي هذا الطريق المسكين الذي كنتُ أحبّه كثيراً مع ذلك، وأرثي على نحو خاص تلك الحجارة القابعة في سجن الكنيسة، التي لا ترى العالَم ولا تعرفه.

كلّ شيء كان يبدو لي رمادياً في تلك القرية: السحب والسماء، ماء البحر ونوارسه، الضباب الذي يغطي نهر السين قبل أن يصب في بحر المانش، تجاعيد ماء النهر، وجوه الناس...

لعل ثمّة علاقة أكيدة بين هذا اللون الرمادي السائد، وانبثاق المدرسة الانطباعية في الفن التشكيلي، من هذه المناطق النورماندية، حيث عاش مونيه، قرب روان، وبيسارو هنا، قرب لوهافر.

ظلّت حيّةً في ذاكرتي أحاسيسُ رثائي لِرمادية حياة حجارة الكنيسة، وسخريتي من يومياتها الجرداء الكئيبة، في سجنٍ رماديٍّ بارد. ربما لأنني ارتبطتُ مع هذا المكان، طوال أسابيع، بأوّل علاقة عمل مهمة، وبحوارٍ روحيٍّ ما (وإن كان مونولوجاً حينذاك)، ولأنني أحببت هذا الطريق والقرية والكنيسة، وإن كانت جميعها لا تستحق أدنى التفات، لأنها تشبه مليون طريق وكنيسة وقرية أوروبية.

وما مجيئي إلى مدينة لوهافر، هذه المرة، من "العربية السعيدة" التي تحوّلت قبراً جماعياً لكل

ساكنيه، إلى "النورماندي السعيدة" حيث تقبع حجارة الكنيسة في سجنٍ رماديٍّ حزين، إلا لأزور في الأساس، بعد 40 سنة، هذه القرية، ولأستعيد ذكريات هذا الطريق، ولأحملق قليلاً في الكنيسة.

عجبٌ فعلاً؛ لعلي ارتبطتُ بذلك المكان بحبٍّ ميتافيزيقي أجهلُ أسرارَه حتى الآن. وكنتُ قد اشتقتُ له كثيراً ومراراً، قبل أن أزوره اليوم بجسدٍ تعبره فعلاً أمواج من الانفعالات.

"شختَ كثيراً! لعل هذه زيارتك الأخيرة، قد لا أراك بعدها! هههههه"، هكذا سمعتُ حجارة الكنيسة تقهقه وتخاطبني بسخرية، قبل أن تسترسل: "لا تحزن، سيأتي من يزورني، هنا بعد 5 قرون، مثلك الآن، وسأحدثه عنك، وذكرياتك الأولى هنا، في هذه القرية! سأقول له أيضاً إنك كلما كنتَ تمرّ آنذاك، كنتَ تسخر من خضوعنا، في سجن المكان، ومن عجزنا عن الحركة مثلك وأنت تطوف الدنيا. لعلّ الحياة قد علّمتك أنك كنت جاهلاً حينئذ بقوانين مجتمع الحجارة، ونظام عمل شبكته الكونية".

"اعلمْ أن كل حجرة خليةٌ في جسد كوكبنا، مرتبطةٌ بكل خلاياه الحجريّة الأخرى عبر الأرض والتراب، على غرار ارتباط شبكة الإنترنت، مثلما هي حال اشتباك أشجار الغابات عبر جذورها المتلاصقة، أو عبر خيوط

الفطريات التي تغلّف جذورها، وتنتشر في كل الغابة، لتربط كل الجذور في شبكة إنترنتية واحدة، تتبادل عبرها الأشجارُ الغذاءَ والرسائل البيولوجية.

كذلك حالنا: كل حَجرة ترى ما تراه أي حجرة في أي مكان في الأرض، لأنها في صلة جيولوجية عضويّة مع كل حجارة الكرة الأرضية".

ثمّ أردفتْ: "شختَ كثيراً فعلاً، عزيزي غسّان! تمرّون معشر البشر، تتلاشون ونبقى! لا يهلككم إلا الدهر: تسيلون في تيار الزمن، ثم تغرقون. تعبرون سريعاً جداً. عُمْرُ المرءِ منكم لا يتجاوز ثانية في مقاييس زمننا، نحن معشر الحجارة. ينتظركم دوماً يومٌ، قريبٌ جداً، لا يبقى منكم بعده أدنى أثر، فيما نظلّ، نحن، روح الأرض وعمودها الفقري، نؤرشف ذاكرتها من أزل الآزلين إلى أبد الآبدين.

قد لا أراكَ فعلاً مرّة أخرى، من يدري. لكنني سأتمنى مسبقاً الرحمةَ لِروحك، وكثيراً من السلام. وسأتحدث ربما بعد خمسة قرون مع حفيدٍ لك هنا...".

قبل أن تضيف، بصوتٍ رحيمٍ خاشع: "وداعا!"

هكذا سمعتْ حجارة الكنيسة تحدّثني، تقبرني.

ما أنكى سخرية الحجارة! ما أقسى وحي الحجارة!

حالما تحرّكتِ السلحفاة العملاقة، ووجدتُ نفسي بعيداً عن نظر شُهد، فتحتُ إيميل وحي: نصٌّ طويل، وليس كلمتين، وفاءً لوعدها القديم (أما لماذا أعطي لـ"هذه المسائل" هذه الأهمية، فسأكتب لك كلمتين عن ذلك لاحقاً، أتمنى).

ألتقطُ منه، ومن مباراة "بنغ بونغ" نقاشنا المتعارض حوله، المندفع أو المحموم أحياناً، واختلاف آرائنا (في غمرة رحلة غلاباوغوس، يا للجنون!) ما يلي:

> تعلمُ، عزيزي الغالي وأستاذي غسّان، في أي مأزق حضاريٍّ نعيش اليوم نحن العرب. بل تعلم أكثر مني أن ثقافتنا صارت اليوم أسيرة قيودٍ تضمن ديمومتها داخل قارورة مغلقة.

قيودها هذا العالم الميتافيزيقي شديد الحضور في حياتنا، براثنهُ متغلغلةٌ في عصبونات أدمغة الناس، في كل صغيرة وكبيرة.

حضوره كلّي: في تفسير الحياة وسرد التاريخ، في العادات والتقاليد، في المسجد والمدرسة، وفي كل شاردة وواردة.

اللغة مثلاً مسربلةٌ بالدين، منقوعةٌ بالدين، محنّطةٌ بالدين.

المسلمات الغيبية لم تترك شيئاً دون غزوٍ أو تفسِيرٍ أو فتوى. بسببها: تاريخنا ملفّق، ورؤيتنا إلى العالَم والآخر موبوءة مظلمة.

في بداية كل ذلك، في رأيي، وفي جذرِ جذوره: إيمانٌ جماعيٌ منغلقٌ شرسٌ بحقيقةِ وهميةِ كليّة أنزلها وحيٌ مباشرة، ذات يومٍ من أقصى السماء!

تتضاءل، إن لم تنقطع إمكانية ثقافةِ التغيير، بعد الإيمان بأن الحقيقة الدامغة جاء بها الوحي.

يرتبط الإنسان حينها بحبالٍ وثيقة بالماضي: منبعِ الحقيقة. عينهُ عليه دوماً، ولا يستطيع لذلك قبول تقدّم الزمن ومسايرته.

نعيش لذلك مأزقاً حضارياً، يقودنا إلى خيار: إما البحث عن الحقيقة بالعقل، وإما بالوحي المنزل.

الإيمان بالوحي لا يسمح بكتابة الحقيقة التاريخية بحريّة، لأنه قد سردها بِقلمِه، منذ بناء الكون في ستة أيام، فقصة التفاحة وطرد الشاب والشابة الجميلين آدم وحواء من الجنة، حتى اليوم، مروراً بالوحي الذي نزل على إبراهيم لذبح

إسماعيل، وبالألواح التي نزلت على موسى بطور سينين...

الإيمان بالوحي يطمس التاريخ بالضرورة، ويلغيه. ومن ينجح بفرض رؤيته إلى التاريخ، ينجح في قيادة الحاضر وتوجيه بوصلة المستقبل.

ثم، لا تنس: الإيمان بالوحي يُقيّد العقل.

وشعار العرب منذ الإمام الغزالي: "لا قبول إلا بالعقل الذي يلزمه أن يتفق مع الوحي"، و"كل كلام عقلي لا يتفق مع الوحي باطل"، وفق هذا الإمام الذي كسب معركته التاريخية ضد ابن رشد.

"غزوَلة" حياة العرب مستمرّة حتى اليوم. وعشرة قرون زمنٌ طويلٌ كافٍ، لتأسيس خراب مستديم، يصعب علاجه دون الصدمات.

لذلك، لا حل، في رأيي، غير "دَنْمَتَة" هذا الجذر.

تنفّستُ بعمق، قبل الردّ على الحلول الفدائية العنيفة المتطرفة في إيميل وحي، الذي لا يخلو مع ذلك من النيات التعميرية والترميمية المخلصة.

رغم نشوة تنفّس هواء غلاباغوس، وسكرة الذوبان في سحر هذه الجُزر، كتبتُ ما يلي بسرعةٍ وقلق، بعيداً عن أعين شُهد:

لا، عزيزي وحي! أنا ضد الدنمتة، وأرفض هذا التطرف. القيم الجديدة تفرض نفسها بالجدلِ والتمرد الهادئ، وليس بالضجيج والصدمات والتفجير.

بدلاً من النسف الثوري، والدنمتة الراديكالية، أفضِّلُ نشر أفكار جديدة تسمح بخلخلة المسلمات الصمّاء، وبإعادة التساؤل حول كل ادعاءٍ، بدون خطوط حمر.

ثم لا تنس: الدين والميثولوجيا والمعتقدات والأساطير جزء جوهري من الإنسان، منذ كان إنساناً.

والحاجة إلى الإيمان بقوّة عليا، عند البعض، سبقت الأديان. لها جذور غرائزية معقّدة، معجونة في الأحاسيس الإنسانية الأولى، منذ كان الإنسان يرتجف أمام السباع والضواري (أي معظم تاريخه).

نسفُها ومحاربتُها كارثي، مُعادٍ للحريّة، مضارهُ أكثر من منافعه.

تُقدِّمُ جميعُها، بجانب الفلسفة، إجابات إلى الإنسان حول الأسئلة الأخلاقية والنفسية والجمالية التي طالما راودَتْهُ (والتي ليس من شؤون العِلم التدخّل بها إطلاقاً) مثل: الخوف

أمام المستقبل، أمام الألم والموت، العلاقة بالآخر، الحب والعشق، مواجهة الشعور بالحسد والأنانية والكراهية... وتعطي لحياته اتجاهاً ومعنى.

العِلم يجيب وحده فقط عن أسئلة الإنسان حول قوانين الحياة والطبيعة، حول حقيقة التاريخ... لكن لا يقول له ما الخير وما الشر، ما الجميل وما القبيح، كيف تتعايش مع الآخر، ولماذا تحيى على الأرض...

هذه شؤونٌ تهمّ الفلسفات والأديان فقط.

كل ما نحتاجه لنخرج من مأزقنا ميثاقٌ يُحدِّد مجال العِلم ومجال الدين واللاهوت، ويفصل بينهما.

الأول يملأ وحده، دون تدخّل الثاني وإقحام نفسه، كلَّ فضاء البيولوجيا، الفيزياء، التاريخ... التعليم مِلكه هو وحده، يموسقه على إيقاع "لا إمام سوى العقل والحقيقة المبرهنة".

والثاني حرٌّ في شعائره وعباداته وفلسفاته الأخلاقية والجمالية، وتصوّراته عن مآل العالَم، والعلاقة الحرّة لمن يشاء مع السماء.

تسألني عزيزي، منذ أسابيع، عن عتبات سيرورة علاقتي بالإيمان. أحد صنّاع أهمّ هذه العتبات: مدرّس التاريخ في سنة أولى ثانوي في عدَن.

أستاذٌ نحيفٌ قصير، أجِلُّهُ كما لا أجلّ أستاذاً.

بدأ أوّل حصّةٍ في التاريخ قائلاً: "أنا مؤمنٌ أصلي وأصوم، وأعبدُ الله بسعادة".

(لم يكن سهلاً إعلان ذلك بفخر في تلك السنوات الماركسية اللينينية في جنوب اليمن).

ثم أضاف: "لكنني أفصل بين عالَمين مختلفين تماماً: التاريخ الديني، والتاريخ العلمي".

الأول مسلمات "تاريخية" غيبية همُّها نشر رسالة دينية. لا يوجد أي دليل غالباً على كونها حقيقة تاريخية. من الأفضل قراءتها كمجاز وعِبَرٍ واستعارات وأساطير.

الثاني مبرهنٌ في الحفريات والمخطوطات، وبوسائل علمية كثيرة أخرى. هو التاريخ الذي يُعتمد عليه فقط: المِلكة بلقيس مثلاً لم توجد يوماً، وسأشرح لكم لماذا هي، وقصرُها الذي حمله عفريت من الجن للملك سليمان، مجرد أسطورة بطبيعة الحال. شأنها شأن كل القصص الدينية التي أؤمن بها كميثولوجيا، وليس كحقائق تاريخية: يونس في بطن الحوت، موسى وألواحه في طور سينين، قابيل وهابيل، تفاحة آدم وحواء، سفينة نوح، طيور الأبابيل...

لكنها جميعاً لا تخلو من عِبرٍ ثمينة أحياناً، ومن تعبيرٍ عميقٍ عن أشياء جوهرية في لاوعي الإنسان، ورؤيتهِ العتيقةِ إلى الكون والحياة.

كم أثَر فيَ هذا المدرِّس العظيم، وكم نحتاج اليوم إلى مليون مدرِّسٍ مثله!

ثم بعثتُ إلى وحي (وأنا أقتنص لحظةً لم تكن شُهدُ تراني خلالها وأنا أطبطب، كلصٍّ متلبِّسٍ بجريمة، على هاتفي الجوال) عبارة نيتشه التي سمعتُها من شُهد، في رحلتنا الأخيرة إلى إسكيا، في إيميل منفصل، دون حرفٍ إضافي غير هذه الآية النيتشاوية: "الكلام الأكثر صمتاً يُحرِّك الزوابع، الأفكار الآتية بأقدام الحمائم تقودُ العالَم".

بعد دقائق من إيميلي، وصلني من وحي ردٌّ سريعٌ، رقيق جداً، هزّني، أسكرَني، وأسعدني:

> لستُ متفقة مع طرحك، أستاذي الحبيب، هذه المرّة. وسأقول لك، عزيزي الغالي، في إيميل لاحق، لماذا. لكنني أشتاق حالياً لِمعرفة كيف دار اجتماع م/ق، ولِاسترسال سردك لتداعيات وعواقب حادث جامع العيدروس.

أيقنتُ بعد هذا الإيميل أن وحي أنثى، لأنها قالت "متفقة"، لا "متفقاً". تكرّرتْ هذه الهفوة مرّة أخرى،

بعد عدّة أشهر، في ظروف إيميلات متسارعة مشابهة.

ثمّ، لأوّل مرّة تستخدم وحي كلمة "الحبيب"، وإن كانت تلي كلمةً لا أحبُّها قط "أستاذي".

أسرَتْني بها، وشعرتُ برغبةٍ عنيفةٍ بالتلويح بمثل هذه الكلمات الرقيقة معها، وأكثر، أنا أيضاً!

تتقدّمُ سيارتنا، شُهدُ وأنا، بعد انسحاب جلالة السلحفاة العملاقة سميرة من طريقنا.

الطقس لطيف ساحر على الدوام، رغم أن الأرخبيل يستلقي على خط الاستواء.

فكّرتُ طويلاً في وحي. حاولتُ رسمَها في مخيّلتي على نحو محدّد أستحضره عندما تخطر ببالي وتستعمره. أي معظم الوقت. (كل إنسانٍ ليوناردو دافنشي عندما ينقش في لوحاته الذهنية من يحب ويعشق).

أنظر في الجو بحثاً عن عصفور "الصفنج"[5]، أو "البانسون"، كما تلفظ شُهدُ اسمهُ بالفرنسية، وكما أحبّ أيضاً، لأبعث صورتَهُ إلى وحي.

5. Darwin's Finch

السبب: بعد وصول داروين إلى هذه الجزيرة النائية التي افتتحنا بها، نحن أيضاً، رحلة الأرخبيل (على شاكلته تماماً، عندما وصل)، وبعد عبوره كل الأرخبيل، ستتأجج في ذهنه فكرةٌ صغيرة، ولا سيما بعد عودة سفينتهِ بيجل (سفينة نوح العِلم) إلى بريطانيا، ودراسته لِعيّنات، اصطادها وأخذها معه، من هذه

العصافير المغرِّدة الصغيرة التي لا توجد إلا في هذا الأرخبيل فقط.

صحيح أن كثيراً من علماء الحفريات والبيولوجيا والفلاسفة، قبل داروين، كانت لهم رؤياتٌ "ما قبل داروينة"، تتّفق وما برهنته النظرية، أي: نرتبط كبشر بسائر الكائنات الحيّة بعلاقة عضوية: نأتي جميعاً من جذر واحد، نتطوّر بما يتكيف مع ظروف بيئاتنا، وننتقل خلال زمن، قد يصل إلى ملايين السنين أحياناً، من نوعٍ بيولوجي إلى نوع...

ألم يقل أبو العلاء عن وَحدة الكائن الحي:

أرى الحيّ جنساً ظلَّ يشملُ عالمي
بأنواعِهِ، لا بُورِكَ النوعُ والجنسُ!

وألم يقل عن تطورات نوعنا البشري:

جائزٌ أن يكون آدمُ هذا
قبلهُ آدمٌ، على إثرِ آدم

لكن عطاء داروين الرئيسي هو ما ذكّرتُ به شهد، هي التي تُدرك هذه الأمور أفضل منّي: "عطاء داروين يكمن في اكتشاف المفتاح الذي يفسِّر كل ذلك: مبدأ "الانتخاب الطبيعي" الذي قاد لنظريته الشهيرة "التطور والارتقاء". اشتغل عليها نحو 30 عاماً. نشرها عام 1859 في كتاب غيّر تاريخ العالَم **أصل الأنواع**. يعتبرُ اليوم، كما يقول كبار المتخصصين، في كتابٍ

لهوبير ريف، أهمَّ كتب العِلم قاطبة. يليه كتاب نيوتن **الأصول الرياضية للفلسفة الطبيعية**. ناهيك عن أنه "ليس ثمّة أي معنىً لأي شيء في البيولوجيا، دون أضواء نظرية داروين"، كما يقول عنوان كتاب لعالم الجينات الروسي ثيودوزيوس دوبزانسكي".

قبل أن أستطرِدَ، وشُهد تصغي لاستشهاداتي، كما لو تسمعُها لأولَ مرّة: "اندلع "الوحيُ" بمبدأ "الانتخاب الطبيعي" في دماغ الباحث الشاب، بعد عودته إلى لندن، ورؤيةِ اختلاف أنواع عصافير البانسون التي جلبها معه من أرخبيل غلاباغوس، وانسجام هذا الاختلاف مع بيئة كل نوع. ثمّ بحثِهِ عن تاريخ تطور كل الأنواع الحيّة، انطلاقاً من هذا المبدأ الجوهريّ الحاسم".

"عن أي "وحي" تتحدّث؟"، سألتني شُهد باندفاع، "ما سبب حضور هذه الكلمة في فمك كثيراً هذه الأيام؟ لا أحبّها: من ضمن سيئاتِها أنها تُذكّرني بذلك الإيميل الغريب الذي استلمتَهُ من تلك الفتاة الغامضة جداً: وحي. هل عادت إلى مراسلتك؟ ثمّ ليس لهذه الكلمة، ذات البصمات الميتافيزيقية، محل من الإعراب هنا".

"لا، لا... ليس ذلك ما أقصده. أقصد: وحيَ الضفة الثالثة!"، أجبتُ.

"ما هذا المصطلح الغريب؟ لم أعد أفهمك"، تُعلّقُ شُهد بقلق.

– أقصد بالوحي هنا: التجلّي الذهني، والإلهام المنطلق من الفحص والتجربة والتنظير...

ثم شرحتْ لها مفهومي عن "وحي الضفّة الثالثة"، الذي بعثته في إيميل لوحي: "ما الوحي إن لم يكن لحظة اشتباك الدوائر الكهروكيماوية للأفكار واندغامها في عصبونات الدماغ، لِتشعلَ شرارة التجلّي؟

ما نفحة الوحي إن لم تكن شعلة الإلهام والرؤى وهي تضطرم وتضيء كل الغرف المظلمة في الدماغ دفعةً واحدة؟

يسقط بعدها الستار الأصم الذي يمنع الوعي عن ابتكار أفكار إبداعية أصيلة، وتصميم عوالم تخييلية جديدة. وتبدأ نشوة الارتشاف من نافورة الخلق الخصب اليانع الدائم".

"لم أعد أفهمك كثيراً إلا بصعوبة!"، تُعقّبُ شُهد...

ها نحن نواصل تقدّمَنا في أفياء المحيط الهادي، نتوغّل في أرخبيل غائر لم تطأه رِجلُ إنسان حتى القرن السادس عشر على الأقل. صعُبَ زيارته ربما، والحياة فيه، لأن التيارات البحرية التي تفصل جزره عاتية، تعزلها عن بعض، وتعيق السفن عن عبورها بسهولة.

لكل جزيرة تاريخ وبيئة جيولوجية خاصّان بها، وظروف ولادة تجعلها تختلف عن أخواتها، وتسمح فيها لحياةٍ وتطورِ أنواعٍ فريدة من الحيوانات والنباتات، تتميّز عن بقية جزر الأرخبيل.

لذلك يتنوّع شكل ووظيفة منقار عصفور البانسون من جزيرةٍ إلى أخرى.

شُهد وأنا في ذهولٍ كليّ، ونحن نرى قبائل السلاحف العملاقة، طيور "المُحاكي" الذي يختلف من جزيرة إلى أخرى أيضاً، وزواحف أرضية ومائية كالإغوانا الأرضية الملوّنة، والإغوانا المائية ذات الأقدام المجنّحة... وغيرها مما لا توجد كلمات في القواميس العربية لتسميتها.

سحليات طولها أكثر من متر، داكنة، بأوجه غير سعيدة.

كذلك حال الطحالب والطيور والأشجار: أنواعٌ بيولوجية لا تنتمي إلى عالَمنا.

أزواج، ضمن أسراب مزدحمة، من "أسود البحر" منبطحة على الشواطئ. كل زوجٍ في عناق ثنائي، ودغدغات ولِعب وتمسيدٍ دائم. عشقٌ طوال اليوم.

هل جاءت سفينة نوح هنا، لِتُفرِغَ نصف حمولتها، قبل أن تزور بقية الأرض وتزوِّده بالنصف الآخر؟

وعند وصولنا لاحقا إلى جزيرة العاصمة، سانتا كروز، استمرَّ الانذهالُ ونحن نجد أنفسنا نسبح، ذات يوم، بين طبقات من أسود البحر، بتعايشٍ سلميٍّ واحترامٍ متبادل!

نراهم أيضاً على رصيف محطات السفن، في قاعات وصالات المحطّات، على السلالم... ينامون على الشواطئ بكميات هائلة.

ماذا نعمل في هذه الديار؟

كم نشعر أن الإنسان متطفِّلٌ عندما يتجوّل هنا، في غير محلّه، دخيلٌ على المنظومة البيئية لهذا العالَم الغلاباغوسي الذي لا يشبهه عالَم!

عليَ أن أسرق لحظةً من شُهد، أن أبتعد عن عينيها أحياناً، لاستأنف دون تأخّر سرد ما تشتاق وحي لقراءته: نتائج اجتماع م/ق حول مشروع قرارها التاريخي، وبقية عتبات تداعيات حادث جامع العيدروس وعواقبه.

خطر ببالي أن أعتذر قليلاً لها، بإيميل خاطف، عن توقف أو تعثّر إيميلاتي خلال أسبوعين، وعن توقفي في الحوار، ليس لأنني مللته، بالعكس: لديّ الكثير مما أودّ قوله لاحقاً، بل "أعشق التفاعل معها"، هكذا قرّرتُ أن أقول، لكن بسبب هذه الرحلة التي ستسمح لي أيضاً

بزيارة "مركز شارل داروين الدولي" في قلب العاصمة، كما قلت لها.

ووعدتها بمواصلة الحوار والتفاعل الذي "أعشقه معها"، بعد عودتي من غلاباغوس مباشرة.

الأغرب: لم أقل لها، ولو مرّة واحدة، أني هنا مع زوجتي شُهد. رغم أنّها تلمّ بكل حياتي، كما برهنَتْ ذلك وهي تسرد بِدقّة سيرتي الذاتية على "الويكيبيديا".

ثمّ وجدتُ نفسي، كلما غابت شُهد قليلاً عني لشراء هديّة، أو لحاجة خاصة، أبعث شذرات عاجلة إلى وحي عن انطباعاتي حول هذه الزيارة الساحرة لكوكب غلاباغوس، غير منتظر ردّاً منها، ولكن غير قادرٍ على وقف سيولة مراسلتي لها!

قلتُ لوحي في إحدى ايميلاتي:

تساءلَ داروين حتماً، حال هبوطه في هذه البقاع النائية: هل خلق الله كل هذه الحيوانات والنباتات التي لا توجد إلا هنا، خصّيصاً لهذا الأرخبيل فقط؟

ثم، لماذا لكل جزيرة أنواعها البيولوجية المختلفة عن الجزيرة المجاورة، بما يتلاءم مع طبيعة بيئتها؟

ورويدا رويداً، تفجّر في دماغهِ "وحيُ" الضفة الثالثة: نظرية التطور والانتقاء، البديل العلمي عن

نظرية الخلق الدينية.

هذه النظرية الجوهرية التي حرّرت البيولوجيا من سلطة أطروحات الدين حول أصل الحياة.

يبدو أن وحي لم تفهم أن عليها أن تتركني وحالي، طالما كنتُ في هذا الأرخبيل فقط. أسبوعين لا أكثر. وإن كان طبيعياً أن تردَ عليّ، وتتفاعل معي، لأنني لم أتوقّف عن إرسال انطباعاتي عن الأرخبيل لها، رغم اعتذاري عن تجميد الحوار السابق بضعة أيام، إذ لم تتأخر عن بعث إيميل يحوي هذا السؤال الذي لم أستطع أن أمنع نفسي عن الإجابة عليه سريعاً، لتطرُّفِهِ وتشنُّجِه:

نسف داروين، إذن، مفهومَ وجود إله، وشجّع على الإلحاد؟

لزم أن أردَ سريعاً، لأنني أرفض المغالاة في انتهاك حرمة الدين باسم العِلم، مثلما أرفض انتهاك مجال العِلم بإقحام الدين في أموره:

لم يشجّع داروين يوماً على الإلحاد. كان نموذجياً في التزام ميثاق العلاقة بين العلم والدين، ويرفض أن يتحدّث كملحد أو كمتديّن.

العلم بالنسبة إليه يفكّك ويقشّر ويفسّر أسرار الطبيعة والحياة، كما هي، وكما يُحرّكها قانون

الانتخاب الطبيعي، بمعزل عن أي مسلّمة دينية. لكنه لا يتدخل لإعطاء اتجاهٍ أو قيمةٍ أخلاقية لتلك القوانين. هذه شؤون الدين والفلسفة.

باستعارة تبسيطية: العلم يقيس مثلاً رقم درجة الحرارة، لكن لا يقول لنا هل يلزم أن نعتبر الطقس حاراً أو بارداً، أو هل في ذلك خير أو شر.

القيم الأخلاقية والجمالية مجال فلسفاتِ الأخلاق والدين.

ما تبقى من أسئلة: هل ذلك محض مصادفة أم لا؟ هل هي إرادة إلهية أم لا، لمن يؤمن بإله؟ هل خلق الله داروين ليكتشف أصل الحياة وقانونها، وينقل بذلك علوم الحياة، والبشرية معها، من الظلمات إلى النور... ليست من اختصاص العلم، ولا تُهمّه. تقع جميعها ضمن حقول اللاهوت والفلسفة واهتماماتهما وحدهما.

"عدتَ إلى رمقِ هاتفكَ الجوّال بتواتر، كما كنتَ ونحن ننتظر عبور السلحفاة، يوم الوصول إلى غلاباغوس؟ هل تنتظر إيميلاً مهماً؟"، تسألني شُهد بإلحاحٍ وبنوعٍ من القلق الغاضب الجلي الذي أرعبني.

– آه، عفواً حبيبتي. أضحى رمْقُ الهاتف، بلا وعي، حركة لا إرادية فعلاً. يلزم أن أسيطر عليها.

أعدكِ أن أغيّر ذلك كلّياً من الآن، وألّا أتحوّل يوماً عبداً لهاتفي!

بعد أن حطّ قهّاروف في منظمتنا القاعدية الحزبية تعكّرتْ حياتي فعلاً. ليس لأنه كان في ثوريّتهِ أكثر ملوكيّةً من الملك (أي من لينين وتشي جيفارا معاً)، بل لأنها كانت "ثورجيّة" عنيفة متطرّفة، أي ثوريّة كاذبة "يُزايد" ويُغالي بها، لئلا يتجرأ أحد تذكيرَه بانتمائه "الكهنوتي الإقطاعي"، وفق بلاغة تلك الأيام.

وعندما تتعكّر حياتي وأشعر بالإرهاق، ألجأ إلى هندسة وتأثيث عالَمي الموازي: "مايا" الذي كنتُ (عندما أنظر إلى الكثبان الرملية المواجهة لنافذة غرفتي الصغيرة في القسم الداخلي في المدرسة الثانوية) أهرب نحوه من خراب هذا العالَم.

ازدادتْ الحركةُ المعمارية في أرجاء "مايا" بعد وصول قهّاروف إلى ثانويتنا. صارت كل منازله (أي كل قصوره) تستلقي على البحر، ويمكن إرخاء حبالها كالسفن، والسفر بها، في أي لحظة، حيثما نريد.

لكل قصر جدارٌ هائل الارتفاع، عليه رفوف مكتبة بآلافِ أجلِّ الروايات ودواوين الشِّعر، وأسمى الكتب والموسوعات الثمينة.

للوصول إليها ثمة سلالم أنيقة، من صفائح معدنية لامعة، بألوان رقيقة متغيّرة، تتعرّج وتتشعّب مثل جذوع وفروع وأغصان شجرةٍ تتناثر وتتغلغل في كل الرفوف. أحبّ التسلّق للصعود إلى علياء هذه الشجرة السامقة لقطف ثمرةٍ من قُبَتِها أو غصن أحد الفروع.

في قارة "مايا" نلعب كرة القدم فوق السحاب. ونتلقى دروس الفلسفة على قمم الجبال ونحن نصغي إلى الينابيع في الهواء الطلق.

ينبع الضوء والعطر من كل كائنات قارتي الحبيبة. القُبَلُ والعشق فيها ضرورةٌ يومية، مثل الماء والهواء. أما الموسيقا هناك، فهي غذاء العشق وماؤه وهواءه.

لا توجد في "مايا" حدود بين الماضي والمستقبل؛ يمكن، بمجرد الاستلقاء على سهلٍ أو غيمة فيها، إغماض العين والسفر إلى الحياة الفعليّة في مستقبل المستقبل، في عام 7777 مثلاً، أو في ماضي الزمان وسالف الأوان، قبل أن تتفجّر الحياة على كوكبنا الأرضي، قبل نحو 4 مليارات عام، لمن يفضّل ذلك، أو (لمن له قلب من حديد) في الساعات الأولى التي تلت "البيغ بونغ" (الانفجار الكوني الكبير) قبل 7.13 مليار عام.

قبل مجيء قهّاروف إلى ثانويتنا وقِسمها الداخلي (أعطِيث له غرفةٌ ملَكية خاصة به)، كنت أحب

اجتماعات م/ق، ونقاشاتها البريئة الحالمة. وبعده صارت كلُّ دقيقة فيها دهراً من العذاب.

لم يكن أحد من أعضاء م/ق يحب كتابة محاضر اجتماعاتنا التي تدوم 8 ساعات تقريباً، ونقرّر فيها كل شيء: من تكاليف مهمات عمل كل رفيق خلال الأسبوع المقبل، إلى قرارات وتوصيات تمسّ تفاصيل مستقبل الكرة الأرضية.

بعد افتتاح الاجتماع "باسم الثورة والحزب"، من الرفيق السكرتير الأول، فهّاروف، تبدأ نقطة "إقرار محضر الاجتماع الأسبوعي السابق".

ساعتان من الصراع حول نصّ محضرٍ بحجم كتاب صغير: الكلّ يريد أن يُكتبَ كلّ ما قاله بالحرف الواحد، كأن المحضر شريطٌ صوتي. ولا يجد أحد في المحضر عباراته كما يظنّ أنه قالها، قبل أسبوع، ويطالب بشراسة بأن تُعاد صياغة المحضر من جديد، كما يحب.

الإشكال الضخم: لا يفهم أحد ما يقول الآخر، ولا يتذكّر أحدٌ ما قِيلَ بدقّة. ولا أفهم، أنا محرّر المحاضر، ما يقوله هذا أو ذاك، ولا يفهم أحد ما أكتبه لتلخيص ما قال. دوامةٌ عاتية من غياب الفهم والفهم الآخر.

لهجاتٌ محليّة أحياناً، وكلمة "ديالكتيك" تتناثر في الجُمل بكميات تجارية (تسبقها دائماً مصطلح "الظروف الموضوعية والذاتية" ويلحقها دائماً "البناء الفوقي

والتحتي"، أو العكس)، ولغةٌ عربية، أو خشبية، لا رأس لها ولا أرجل. ولكلٍ مفهومه الخاص لقواعد نحو اللغة العربية، ولقاموسها، ولإعراب ما لا محل له من الإعراب، ولِصرفِ كل ممنوعٍ من الصرف.

كتابةُ المحاضر كانت مهمّتي الحزبية العظيمة الخاصّة. أنجو بها من أي عبء وتكاليف حزبية أخرى.

أعيش بفضلها حرباً لفظية وفوضى دلالية عارمتين لا تخلوان من المتعة. أحياهما ضحكاً صامتاً في أعماقي، وأساهم في صناعتهما بسرّ، عندما أجرجر قول هذا أو ذاك باتجاهٍ ما، لم يقله الأسبوع الماضي، أو عندما أضفي عليه رتوشاً فنيّة من لديّ، لأرى بعد قراءة مشروع المحضر هل سيستوعب ذلك، أو سيوافق عليه.

كانت تثيرني هذه المهمة التحريرية أيضاً، ولاسيما عندما أعيد صياغة مسودة المحضر كل أسبوع، ولا أفهم شيئاً مما يقوله هذا أو ذاك، أو عندما اخترع أقوالاً وصيغاً لم تُلفظ، ويوافق عليها الجميع، مع ذلك، أو عندما لا أجد وقتاً لإعادة صياغة المحضر، فأسرق فقرات طويلة من محاضر اجتماعات سابقة، وألقّط عبارات سمعتُها هنا وهناك، خارج الاجتماع، لتأليف المحضر الجديد. ويُقرُّ المحضر مع ذلك، مع "تقدير خاص من م/ق لجهود الرفيق غسّان في كتابته".

الممتع: لم أنل يوماً ما من منظمتي القاعدية الحبيبة اعترافاً بجميل إلا كلما كنتُ لا أستحقّه!

هكذا، لا يمرُّ شهرٌ دون أن أحرِّرَ كتاباً كبيراً من 4 محاضر، حول كل شيء ولا شيء، بلغة خشبيةٍ جديدة، وكلامٍ مُلخبطٍ جميل، مُخيِّطٍ بـ"صميل"[6]، دون معنىً غالباً، لا يتذكّره أحدٌ، ولا أعرف لماذا كنّا نقوله، أو لماذا أقضّي كل هذه الساعات في كتابتهِ أو إملاء ثقوبهِ كما أستطيع، أو اختراعِ صفحاته من العدم.

6 عصا.

عبثٌ مدهش، من طراز جديد.

سرياليةٌ مثيرة لا تتكرّر...

ما يهمّني: كان هذا "التكليف الثوري" يجعلني معصوماً من أي نقدٍ، ومن أي تكليفٍ حزبيٍّ آخر، لأنه أصعب نشاطات م/ق إطلاقاً. ثمّ كنتُ أخلق بواسطته متعتي من لا شيء، قدر ما أستطيع.

بعد ساعتَي "إقرار المحضر السابق مع الملاحظات الواردة عليه"، تبدأ نقاط الاجتماع الرئيسية التي يدوم نقاشها نحو 4 ساعات أسبوعياً.

ثمّ نقطتُهُ الأخيرة، حلوى الاجتماع، وأمتع وأقسى لحظاته الصدامية: "النقد والنقد الذاتي"، أو على الأحرى: الجنون والجنون الذاتي.

ساعتان من تبادل الشظايا والمطبات الاتهامية، ووابل من الهجوم اللفظي، والملاكمة النقديّة، بين هذا وذاك، لممارسة "هذا المبدأ اللينيني الثوري العظيم".

ترافقها أحياناً بعض التوابل الخجولة من ممارسة "النقد الذاتي": ينتقد هذا أو ذاك نفسَه للتأخر عن حضور الاجتماع، غالباً، لا غير. ويَحذَر من ممارسة أي نقدٍ ذاتيٍ مهم يكشف بعض موبقاته أو تقصيراته، لئلا يستغلّه "عدو" في م/ق، ويستلهمه لِشن حملة نقدٍ حربية تدميريّة قاتلة ضده في الأسابيع المقبلة.

في إحدى الاجتماعات، قرّر قهّاروف، على نحوٍ مباغت، أن النقطة الرئيسية والوحيدة (بجانب صلاتَي الفرض: "إقرار المحضر السابق"، و"النقد والنقد الذاتي"): الخروج بمشروع قرار تاريخي بأن "الله غير موجود"!

يجلس الرفيق قهّاروف، كعادته، في مقعد رئيس الاجتماع، أي مقعد المدرّس في أحد صفوف ثانويتنا، حيث ينعقد اجتماعنا الأسبوعي الدوري.

خمسون عضواً محتشدون في الصف، معظمهم لا ينبسون ببنت شفة، وينتظرون لحظة التصويت عادة، لرفع أيديهم لا غير.

ينتظرون، قبل هذا وذاك، نهاية الاجتماع بصبر فارغ.

بضعة رفاق، من بيادق قهّاروف وجنرالات حروبه، ثرثارون جداً. يكرّرون ما يقول لينينهم بطريقتهم بعده بقليل.

حسن، عدو قهّاروف، لا يتحدث إلا نادراً، وإن تحدّث، فهو لرفض ما يقوله قهّاروف، وبقوّة دائماً.

كان الوحيد الذي يخشاه قائدنا، لأنه شجاع جداً، يحبه ويحترمه الناس عموماً لإخلاصه، ولرفضه أي سلوك "قبلي" أو "عشائري" أو "مناطقي"، ولأنه لا يخاف في الحزب لومة لائم.

لا يخشى من أحد، ولا يجيد الاستخدام الإسهالي للمصطلحات القهّاروفية: "معمعان الصراع الطبقي"، "العنف الثوري المنظم"، "الأممية البروليتارية"، "الشفافية الطبقية"، "لهيب الصراع الطبقي"، "الديالكتيك الجدَلي" (لِقهّاروف وحده حقوق الملكية الفكرية لهذا المصطلح الجديد).

ثمة مصطلح آخر لا يجوز ألا يذكر. ملكيّته الفكرية لقهّاروف فقط: "نسف المرتفعات الاقتصادية". يقصد بذلك تأميم الدولة للمساكن والممتلكات.

كلما كان يكرر المصطلح في اجتماعات م/ق، كنت أتذكّر قمّة جبلنا "القلّة": رأس إنسان منحوت بمهارة، في قمّة الجبل، وأتخيّل منقبضاً مضطرباً قنبلةً بحجم طائرة تنسفه وتحوّله رماداً منثوراً.

يا ساتر!

بعد أن برّر "ملِك التعريص" ضرورة اتخاذ هذا القرار الثوري المهم، انطلاقاً من مبدأ "الشفافية الطبقية"، وكمساهمة "في بناء المجتمع الجديد، والثقافة الجديدة، والإنسان الجديد"، وبعد أن أطلق كل ما يحفظه من عبارات، على شاكلة: "الدين أفيون الشعوب"؛ وبعد أن سرد أسماء فلاسفة مادّيين "ملحدين" مثل لودفيج فورباخ دون أن يعرف من هو ومتى وأين عاش، وماذا كتب وقال، وبعد أن شتم المثالية في الفلسفة (حدّ إطلاق هذه المقولة القهّاروفية المجذوبة الشهيرة: "لو كانت المثالية رجلاً لقتلته")... اقترحَ أن نخرج بقرار حاسم، تحذو حذوه بقية م/ق الحزب، في كلّ الجمهورية، ينصّ على عدم وجود اللّه!

شعرتُ بصدمة، ولم أعرف في البدء بأي لغة سأعبّر عن رفضي وتقزّزي. اعتبار الإيمان جزءاً من "الفضاء الشخصي الحر" للإنسان لم يكن حينذاك ضمن مصطلحات وثقافة أحد. والحديث بهذه النغمة "الليبرالية" كارثيٌ على قائله؛ ليس ثمّة "فضاءٌ شخصي" في ثقافة تلك الأيام، و"لا صوت يعلو فوق صوت الحزب"، ربٌّ ومالِكٌ كل فضاء.

كلّ ما عدا ذلك "ثقافة برجوازية".

قال حسن: "سيمثل هذا القرار قطيعةً بين حزبنا والجماهير الكادحة التي ما زالت مؤمنة بالدين. وبهذا القرار، سنبتعد كلية عن الجماهير، وسنفقد المقدرة على الالتحام بها لمواصلة مسيرة الثورة.

والابتعاد أكثر من 10 خطوات عن الجماهير الشعبية مضرٌّ للحزب، كما قال الرفيق لينين.

وإذا أقنع العدوُّ الطبقي الجماهيرَ أننا ملحدون، فسنخسر معركتنا، كما خسرت حالياً الجبهة الشعبية لتحرير عُمان والخليج العربي، لهذا السبب على نحو رئيسي. وكما خسر الحزب الشيوعي السعودي الذي لم يتجاوز يوماً 80 عضواً!".

امتزجت في مداخلة حسن، دفعةً واحدة، كلُّ الردود التقليدية الممكنة (بلغةٍ خشبية، مسبوكةٍ كما تقتضي الأصول)، على مشروع قرار قهّاروف.

لكن الأخير رفضها جميعاً، ودحرها بضربةٍ واحدة، وطمّن الجميع إلى أن "الجماهير الكادحة في ج. ي. د. ش، حيث سلطة العمّال والفلاحين راسخة كالجبال، صارت كلها ماركسية، وواعية لخطر الطابور الخامس الرجعي، ورجس الثورة المضادة الدينية".

واتّهمَ حسن بأنه مصابٌ بسرطان "التنظير البرجوازي"، وتساءل: لمصلحة من يعمل حسن وهو

يروّج لهذه الأطروحات الرجعية المائعة، إن لم يكن للطابور الخامس والثورة المضادّة الدينية؟

لم ينتظر أحد مني الرفض الصارم لمشروع هذا القرار "التافه" كما سمّيتهُ دون خوفٍ من انتقام قهّاروف، أو من نعتِهِ لي بـ"الانتماء إلى قوى الثورة المضادة"، أو "الطابور الخامس"، وفق تعبير تلك الأيام. أو "الرجعيّة المائعة" (لقهّاروف وحده حقوق الملكية الفكرية لهذا المصطلح أيضاً).

لم ينتظر أحد موقفي ذلك، ولا سيما أنني كنتُ لا أقول شيئاً لا أؤمن به بحق، كما يعرف الجميع.

ويكفيهم غالباً أن يثقوا على نحو مطلق بأن من يتحدّث مؤمنٌ من أعماقه بما يقول، ليندفعوا على غراره، أيّاً كان ما يقوله، وليمنحوه إيمانَهم "شيكاً بنكياً أبيض".

كل ما يلزمهم أن "يشعّ مِن عينيه صدقُ إيمانه بما يقول"، سيّان أكان أميناً عاماً ماركسياً – لينينياً، أم داعية ظلامية، أم رئيساً لصاً، أم المهدي المنتَظر...

قطيعٌ طيبٌ مخلصٌ شعبُ "بلد الإيمان والحكمة" هذا! (الحكمة: لست مقتنعا جداً. الإيمان الساذج، لا غير: بالتأكيد).

"الله موجود، ولديّ الدليل على ذلك!"، قلتُ.

"ماذا تقصد؟"، يردّ قهّاروف بغضب.

كانت لقهّاروف طلعةُ القذافي في بدء شبابه، وطريقةُ الحديث نفسها.

لكن نظراته لم تكن قذّافيةً في تصويبها المتجلّط؛ كانت تزيغ دوماً، وتتنقل من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين بحركات قلقةٍ سريعة، دون استراحة.

توقّفتُ عن كتابة المحضر، قمتُ من مقعدي (على غير اعتيادي) مثل قهّاروف عندما يتحدّث أحياناً ليفرض هيبتَه، وأضفتُ:

"الدليل على ذلك: ذهبتُ قبل أسبوع إلى عمارةٍ في آخر قسم في حيّ المنصورة في عدَن لزيارة عائلةِ صديق.

كنتُ أمام باب العمارة، في طريقي إلى دخولها، عندما خطر ببالي، أن أدور حولها أولاً، وأعود من جديد إلى موضعي نفسه أمام الباب، قبل الدخول!

خاطرةٌ غريبة أيها الرفاق، أليس كذلك؟ أعرفُ العمارةَ وما خلفها، ولا يوجد مبرّر واحد للدوران حولها عبثا، ثم العودة إلى النقطة الأولى".

قبل مواصلة القصّة، كنتُ قد بدأت أدور، داخل الاجتماع في الصف الدراسي، دون وعي، حول طاولتي الصغيرة (يتوسطها المحضر الذي لم يتولَ متابعة كتابتِه أحد)، كما لو كنتُ أدور حول العمارة.

كنتُ في غاية التركيز والحماسة، كممثلٍ مسرحيٍّ غارقٍ في أداء دوره، ومُتمَاهٍ معه، حدَ نسيان أنه على خشبة مسرح.

أردفتُ: "لم يكن خلف العمارة إلا خلاء رملي، ولأنها أمطرَتْ كثيراً في الأيام السابقة، كانت هناك حفرٌ متخنةٌ بالطين.

ماذا رأيتُ، أيّها الرفاق، في ذلك الخلاء الترابي المُثخَم بالثقوب الطينية؟

طفلٌ صغيرٌ وحيدٌ خرج من باب العمارة، نحو الشارع. دار حولها، ووقع في طين مطبٍّ حفرةٍ كبيرة.

كان قد غرق حتى الكتفين. ولو كنت قد تأخَرتُ ربع دقيقة عن المجيء إليه، ولو لم أجرّه سريعاً وبقوّة وأنتزعه من عمق الحفرة، لَغرقَ كاملاً خلال ثوانٍ!

لماذا دهمني، أيها الرفاق، الشعور بضرورة الدوران حول العمارة، في حركةٍ عبثية غير مبررة، لا تخطر ببال، وفي تلك اللحظة تحديداً؟

كيف يمكن تفسير ذلك إن لم تكن هناك قوة عليا أوحت لي بهذه الحركة لإنقاذ الطفل؟!".

صمتُ جليل، وإعجابٌ عميقٌ بالمنقذ المنتظَر الذي نزل عليه الوحي ليذهب لنجدة طفل. ثم "تبؤَرَ" نقاش م/ق حول هذه القصة المدهشة!

كان مفعولها حاسماً، كما يبدو، ولاسيما أنني كنت أتحرّك بانفعال عميق، وأجرّ أمام أعينهم، داخل غرفة الاجتماع، وبملامح حقيقية مؤثرة، طفلاً وهميّاً من حفرةٍ وهميّة.

"تفزكَش" النقاش بعدها، طال وصار مشحوناً بسرد قصص متنوعة، كلٌّ يروي قصةً شبيهةً عن وحي إلهيّ حدث لإنسانٍ ما، هنا أو هناك، أو له شخصياً أيضاً. بعضُها قصص لا يمكن تمييز رأسها عن أرجلها.

تحوّلنا جميعاً إلى أنبياء داخل الاجتماع، وتمتم بعضنا بخجل عبارات: "سبحان الله"، ما دعا قهّاروف إلى تأجيل مواصلة النقاش حول مشروع قراره بعدم وجود الله إلى اجتماع قادم (بعد شتمهِ منظمتنا القاعدية الحبيبة، بأذمّ هجاءاته وأوجَعِها قاطبة، ناعتاً إياها بأنها – أغلقوا آذانكم جيّداً – "غير ديالكتيكية"! آيييييييي!).

الشيء العجيب، عزيزي وحي، مكثتُ أروي هذه القصة، بين حين وحين، مع هذا أو ذاك، خلال أكثر من عقد بعد ذلك، وحتى قرب نهاية الثمانينيات من القرن المنصرم تحديداً، لتبرير تشبّثي، كما أظن، ببقايا إيمانٍ لم أستطع (رغم تزلزله بعد حادث جامع العيدروس) قطعَ جذوره العميقة، الأكثر متانةً من أشجار الغابات الاستوائية، كما أظن، أو من أهرام الجيزة ربما.

سجِّلْ عزيزي الغالي وحي: صارت هذه القصة حقيقةً دامغةً في ذهني، ابنةَ حاجةٍ فيزيولوجية نفسية إلى توازنٍ حيويٍّ جوهري. وكان من المحال تكذيبها من أحد، أو مني نفسي!

الأهم والأغرب: لم تكن هذه القصة حقيقةً كاملة: درتُ فعلاً حول العمارة، ربما لأنني أتيت قبل الموعد بقليل، أو لعلي كنتُ أودّ رؤية جَمال الفضاء الغائم فوق خلاء منطقة "المِملاح"، بين خلف العمارة التي تقع في أقصى نهاية المدينة، وجبال شمسان البعيدة: خلاءٌ منعش ترتصّ فيه مربعاتُ أحواضٍ بحريّة يتجفف فيها الماء المالح، وتتناثر قربها كثبانٌ عملاقة من الملح. هواءٌ عليلٌ ثمّةَ ونسماتٌ نقيّة.

في هذا الخلاء البحري المغروس كالرئتين في جوف مدينة عدن، تبدو بعيداً أسرابُ بَجَعٍ مهاجر، تتناثر كما لو كانت في اجتماعات م/ق قرب هذا الحوض أو ذاك، أقلّ توتراً وسريالية من اجتماعات منظمتنا القاعدية.

لعلّها نهبث كلَّ سعادة عدَن، اختطفتها لها وحدها، ولم يتبقَّ للبشر غير زعيق قهَاروف.

كان هناك فعلاً طفلٌ خلف العمارة، لا أدري ما يفعل. لكنه كان بعيداً عن أي ثقب طيني، أو حفرة.

لم أنقذ أحداً في الواقع، لسوء حظي، وهذا الدور الملائكي الذي مَنحتهُ بكرمٍ لنفسي كان اختراعاً طيباً

حالماً لا غير.

لا أدري، في كل الأحوال، لماذا خرجتُ عن النص، واختلقتُ فصل إنقاذ الطفل في هذه الحكاية، وكرّرتُ سردَها عشرات المرات، طوال أكثر من عقد. ولماذا كان هناك شيءٌ ما يُشبِهُ الوحيَ في مركزها، نزل عليّ وأنا أمام باب العمارة!

ألذلك كان مفعولها حاسماً في تغيير دفّة الاجتماع الذي أراد ملِك التعريص فيه عدم الاعتراف بجلَ جلاله، بقرارٍ مجنون من منظمتنا القاعدية الحبيبة؟

أنحتاج دوماً إلى قصة وحيٍ إلهي كي نمنع به أي محاولة لإلغاء مفهوم الوحي الإلهي؟

عزيزي، صائد العتبات ومراقب التداعيات، الغالي وحي: عشتُ حتى نهاية الثمانينيات مرحلةً إيمانيةً ناعمة تبررها هذه الأقصوصة الطيّبة المفبركة، لا غير.

لعلها، كما قلتُ سابقاً، كانت تساعدني على الحفاظ على ما تبقّى لي، بعد حادث مسجد العيدروس، من إيمان يوشك أن يتجندل، وإرسائه على صرحِ "منطقيٍّ" متين، وإن كان هذا الصرح مجرّد وهمٍ خالص بـ"وحيٍ" نزل عليّ أمام باب عمارة، وقادني إلى إنجاز بطولةٍ إنقاذية كاذبة!

تحوّلَ، مع ذلك، يقيناً في دماغي خلال أكثر من عقد!

معادلة غريبة، عزيزي وحي، أليس كذلك.

إسقاطٌ تخييليٌّ خصب + تماهٍ نفسيٌّ حاد = حقيقة دامغة!

"معادلة الوحي"، أليس كذلك؟!

ماذا تبقَّى لي اليوم من ذكرى اجتماع م/ق التاريخي؟

قهقهات حسن عندما خرجنا من الاجتماع في منتصف الغسق وهو يهرع نحوي وأنا أعبر تراب ميدان كرة القدم المتاخم لعمارتي، تحت ضوء عمود كهربائي شاحب، متوجهاً إلى غرفتي في القسم الداخلي، مقهوراً ومرهقاً من سيطرة العبث والتطرف على حياتنا.

أوقفني في تلك الساعة المتأخرة من ليالي منظمتي القاعدية الساهرة، ليقول لي بين قهقهتين: "ألف مبروك!".

"لماذا؟"، أجبتُ.

– لأنك أنقذتَ الله!

دوخةٌ ساحرةٌ كليّة. نحن هنا، شهد وأنا، في هذا الأرخبيل الذي لم يكتشفه إنسانٌ قبل عام 1553. في تكافلٍ عميق مع الطبيعة، كما هي منذ اندلاع الحياة على الأرض. في كاتدرائيةٍ لا قدسيةَ بمنزلتها.

تجنب التطفُّل على هذا الملكوت، أو تدنيس محرابه، سلوكٌ حضاريٌّ إجباريٌّ هنا؛ القوانين الدولية والمحلية تضمن ذلك بصرامة، وتفرضه على كلِّ من يصل أو يغادر أو يحيا في هذا المعبد.

أشعر بالدوخة القصوى أيضاً، لأنني أعيش، في هذا الأرخبيل، أياماً شاسعةً حميمةً خاصة، متداخلةَ الدهشات، متعدِّدةَ النزوات، متراكبةَ الاهتمامات:

لم تعد ثمّة حدود بين غلاباغوس واليمن؛

بين الافتراضي (وحي)، والحقيقي (أنا)؛

بين الماضي المطمور والحاضر المفتوح على ألف طريق؛

بين ذكريات اجتماعٍ مجنون لـ م/ق، في منتصف سبعينيات عدَن، وإجراء تجربةٍ علمية وإنسانية ممتعة في مركز شارل داروين الدولي هنا (كما سنفعل، شهد وأنا، قبل مغادرة الأرخبيل)؛

بين اللانهائي الصِّغَر: هذه الخصوصيات التفصيلية المرتبطة بحياتي المندثرة في قرية طور الرعد، وتداعياتٍ تلتها استخرِجُها من أقصى ذاكرتي، وأبعثُها إلى الفتاة الافتراضية التي لا أعرفها من قريبٍ أو بعيد: وحي؛ واللانهائي الكِبَر: هذا الأرخبيل الذي اندلَعَتْ من مورفولوجيا مناقيرِ بعضِ عصافيره فكرةٌ طنّت في رأس عالِم طبيعةٍ إنكليزي، وخرجتْ منها أهمُّ نظريةٍ علمية تمسّ أهمَّ قوانين الحياة.

يسقط هنا ويتلاشى مفهومُ المسافة الإقليديسية ومسلّمات الطوبولوجيا والهندسة الفراغية: الأقربُ منك تكنولوجيا (بالإيميل مثلاً)، ولو كان مسجوناً في قصر على بعد 16000 كيلومتر، مثل وحي، أقربُ إليك من حبل الوريد، يعشعش في عصبونات دماغك، يسكنك...

بل أقرب من شُهَد أحياناً، من يصدّق ذلك؟!

في هذا الأرخبيل، لكل شيء تقريباً اسمُ داروين. تنتقِلُ فيه من فندق اسمه داروين، عبر سيّارة عليها عبارة لداروين، نحو فندق آخر باسم داروين، بعد أن تكون قد تناولتَ الفطور في مطعم باسم داروين، داخل إحدى جزر الأرخبيل التي تحمل اسم داروين.

تماثيلُه وصورُه في كل مكان. لسنا هنا أمام ظاهرة "عبادة الفرد"، بالمعنى السياسي، ولكن أمام تقدير إنسان أفنى حياتَه للعثور على أحد أهم مفاتيح العلم

والحضارة الحديثين، قبل أن يحمل ضريحه وزراءٌ ونبلاء بريطانيون، لينام بجانب ضريح نيوتن في دِير ويستمنستر، بقلب لندن.

اسمه يُتوِّج اليوم أهم عمارات قاعات محاضرات واجتماعات الجامعات والفنادق الدولية. صوره على عملات الجنيه الإسترليني.

وثمّة أكثر من مدينة وشارع وطريقٍ في هذا العالَم، خارج غلاباغوس، تزهو باسمه، بما في ذلك مدينة داروين في أستراليا.

أما مركز شارل داروين الدولي، هنا في غلاباغوس، فهو تحفةٌ ومختبرٌ ومنتزهٌ فريدٌ شاسع، ستكون لنا فيه، شُهد وأنا، ذكريات لا تنسى. هو مدعومٌ من جامعات ومراكز دولية كثيرة (استلم جائزة السلطان قابوس للحفاظ على البيئة في 1999)، وفيه باحثون زائرون من كل أنحاء العالم.

مع إحداهن فيكتوار (انتصار، بالعربيّة)، رتّبث شُهد لنا مشاركةً حيّة في تجربة علمية إنسانية أدبية عاطفية، عشتها قلباً وقالباً.

تعمل هذه الشابّة في نفس كلية شُهد بباريس، قدّمت أطروحتها حول "تفاعل نباتات الأرخبيل مع طيوره"، وتقضي عاماً إضافياً في أبحاث جديدة في الأرخبيل.

وصلنا، شهد وأنا، في الخامسة فجراً، إلى المركز.

غرسنا ثلاثتنا أعمدة شبكات، مثل شبكات كرة الطائرة، في ساحةٍ منزويةٍ خاصةٍ، تحيطها أشجار الصبار، وبِركات سلاحف عملاقة، بعيداً عن عمارات المختبرات ومتحف المركز.

تقود البهيّةُ اللذيذةُ الشغوفةُ فيكتوار هذه التجربة (تُكرِّرها أسبوعياً. أجهزة قياساتها قربها في حقائب ثلاث)، في حين أننا مجرد مشاهِدَين ومساعدَين، لا غير.

فجر غلاباغوسي فضيٌّ رقيق، لا نهائي الجمال. مناظر الصخور المحيطة بالمركز، ونباتاته وأشجاره النادرة حولنا في كل مكان، والطيور الساحرة الغريبة المحلِّقة فوقنا، في علياء هذا الخلاء المنزوي الساحر، تجعلنا نتساءل هل نُجري تجارب في إحدى مختبرات الفردوس في عليّين، وما أدراك ما عليّون!

عصافير بانسون داروين تنتشر في الفضاء في هذه الساعات المبكرة بكميات غفيرة. ما أسهل اصطيادها حيّةً ودون إشكال! يكفي أحياناً التلويخ بقبّعة، وقليلٌ من المهارة، لاصطياد أحدها وهو يطير.

أما في ركائز شبكاتنا التي ثبّتناها (كما كان يفعل داروين وفريقه)، فاستطعنا التقاط حوالى عشرين بانسوناً، بين الفجر ومنتصف الظهيرة.

بمهارة وحركة فنيّة ورِقّة غريزية، تُفكّك فيكتوار كل خيوط الشبكة التي يتخبّط البانسون المأخوذ بتلابيبه بين مخالب أخطبوطها. يعتوره خوفٌ وهلع.

تعاملُهُ بحبٍّ وحنان، حدّ رغبة بعض العصافير العودة مجدداً، بعد انتهاء التجربة، للارتماء في أحضانها. كان يبدو كأن بعضها تسقط عمداً من جديد في مطب الشبكة!

تمسيد وتمليس فيكتوار للعصفور متعةٌ ونعمةٌ يحسّ بها، كما يبدو. ينتقل بين أناملها من الخوف بعد الأسر إلى السعادة سريعاً.

أستحضرُ نورسَ مدينة لوهافر الفرنسية، الذي حاول بصعوبة الطيران بجناحٍ ونصف، قبل سقوطه المروّع في جوف الطريق. وهولَ ذكريات الشيخة الأنيقة التي، لِمنع السيّارات من طحنه، تجندلتْ وانطحنتْ نفسها أمام عدسة هاتفي وأنا أنتظر موعد القطار.

تضع فيكتوار قليلاً من الجيلاتين حولَ وعلى منقار كل عصفور، لامتصاصِ وتحليل ما تناول من غذاء، كلٌّ وفق منقاره (بعضهم يتغذّى من الشجر والأزهار. آخرون من الدود. وبعضهم من لب الثمار بعد كسر قشراتها بمناقيرهم العريضة القوية).

تأخذ عيّنةً من البراز الذي غادره حتماً في لحظة خوف، عندما وقع في المطب.

وبجهازٍ خاص، تقيسُ طولَ وعرضَ منقاره، وبعضَ مواصفات جسده (الذي يتراوح طوله بين 10 و20 سنتميتر فقط).

تحدِّد نوعه البيولوجي ضمن الأنواع الثلاثة عشر من هذا الطائر، ومدى كونه هجيناً أحياناً.

تنزع بِرقّة من ساق قدمه حلقةً معدنية نحيفة كخيط، تحتوي على رقاقة إلكترونية ميكروسكوبية، مسجّلٍ عليها كل تفاصيل هويّته، ومواصفاته، وتاريخه الغذائي والصحي... تمّ تحديثُها سابقاً (من قِبلِها، أو من باحثٍ آخر) عندما سقط العصفور قبل هذه المرة، في مطبات تجارب المركزِ، أو في مختبرٍ آخر.

ثمّ تُموِّل فيكتوار الرقاقة ببيانات جديدة من وحي تجربة اليوم.

تضع على ساقهِ حلقةً جديدة، ورقاقة تحتوي على النتائج والأرقام التي أخذتْها، إن كانت هذه مرّتهُ الأولى في متاهات الشبكة.

تطلب مني أن أعمِّدَه باسمٍ، سيكون اسمَه الرسمي دولياً، إن كانت هذه رقاقته الأولى.

اخترتُ لهم بالعربية: منال، أروى، وديع، سعدان، فريدة، علوان... (بعد أن كدتُ أبدأ بلا وعي باسمٍ يسكنني منذ أشهر: وحي. خفتُ، حالما خطر الاسم

ببالي، من ثورة شهد، وتهديمها العنيف هذه الكاتدرائية العلمية الدولية في قلب عاصمة غلاباغوس).

ارتبطث بالأولى والثانية والثالث بعلاقة حميمة. أشتاقُ لهم أحياناً.

ثمّ تنتظر فيكتوار أن يقع كل عصفورٍ في الشبكة مرّة أخرى في الأيام والأسابيع المقبلة لقياساتٍ جديدة تسمح بدراسة تطورات حياة هذه الكائنات الرقيقة، وتفاصيل علاقتها بمحيطها الطبيعي.

مرآة الأرخبيل وذاكرتها النابضة تنطوي في مناقير وجينات هذه العصافير.

ترتبط فيكتوار مع بعضهم بعلاقة حميمة، كما حال شُهد، وحالي معهم أيضاً.

ثمّ تترك العصفور يطير بعيداً بعد توديعه (بصعوبة أحياناً).

يطير عالياً، إن لم يعد نحونا مجدداً، بوعي أو بلا وعي، من فرط سعادتهِ بتمسيد فيكتوار العاشقِ له، وشُهد التي لا تتركه يطير دون ملاطفةٍ وتربيتٍ لا يقلّ عشقاً، وأنا أيضاً الذي أغرِّدُ وأرفرفُ سعادةً في حضرته، وحضرة شهد وفيكتوار، في هذا الخلاء الملائكي.

فيضٌ من الجمال والإنسانية يطمّ الأرخبيل.

كيف يمكن لمرءٍ وصل هنا، ولامسَ هذه العصافير مثلي، ألّا يعشق الحياة بضراوة، وألّا يحب الجمال

والحرية والإنسانية، ويكره الحروب والعدوان والكراهية...

أنسى كليّة من جديد طور الرعد، عدن، تهامة، اليمن، م/ق، وحبيبتي البعيدة: وحي...

أستحضر، وأصابعي تحتضن أقدام العصافير عبارة نيتشه التي علّمتني إياها شُهد، وبعثتُها إلى من أحاول أن أنساها، وحي: "الكلام الأكثر صمتاً يحرّك الزوابع، الأفكار الآتية بأقدام الحمائم تقوذ العالَم".

الرأفة بي، ربّ داروين وبانسونات غلاباغوس، وكل عصافير العالَم!

ألاحظُ استغرابَ شُهد من ابتعادي أحياناً عنها وفيكتوار (لبعث صورٍ خلسةً لِوَحي)، لكن سعادتَها، مثل سعادتي، تستعيذ زمام الأمور، تسيطر على الموقف، وتُحلّقُ مع كل بانسون باتجاه علياء سماء غلاباغوس...

ثمة 13 نوعاً بيولوجياً من عصافير البانسون، موجودة جميعها هنا على الأرخبيل، لا غير. مِلكُه وحدُهُ لا شريك له. لا يوجدون جميعهم إلا فيه فقط.

تحليل جيناتهم جميعاً برهن أنهم سلالة لمجموعة بانسونات غادرت، قبل دهر طويل، قارة أمريكا الجنوبية (الإكوادور أساساً)، وطارت غرباً باتجاه شرق الأرخبيل.

قطعوا، في سالف الأوان، رويداً رويداً، كلَ المسافة بين القارة والأرخبيل، على مراحل، بعد المكوث على طريقهم في الصخور والجُزَيرات المتناثرة هنا وهناك.

تعلوهم سماءٌ نقية غالباً، ويحيطهم بحرٌ فيروزيٌّ لا سناء كسنائه.

أقبلوا مثل بُدورٍ من ثنيات الوداع. كل تقدّم جديد في هذا المحيط متعةٌ وثراءٌ، اكتشافٌ لذيذ، وموائدُ دسمة ثريّة.

زقزقاتهم وأهازيجهم تتناغم مع تلألؤ انعكاسات شمس المحيط الهادئ على تجاعيد أمواج البحر.

جاؤوا هكذا من هناك، مثل كريستوفر كولُمبس ورفاقه الأوروبيين وهم يصلون أميركا. حطّوا في الأرخبيل برقّةٍ وسلام، ليسا من طبيعة الأوروبيين عندما غزوا عالَمَهم الأميركي الجديد وعمّدوه بجرائمهم التاريخية.

سكنَتْنِي رحلتُهم؛ كم تمنّيتُ مرافقتهم خلالها، بانسوناً مثلهم، أغزو معهم هذه الصخور أو تلك، أنطّ هنا أو أحطّ هناك، أتقدّم مثلهم... مثلما تقدّمَ الإنسان عندما خرج من مهد البشرية: أفريقيا، رويداً رويداً، حتى وصل ذات يوم إلى أستراليا، ثمّ تأقلم وتناسل داروينيّاً مندمجاً مع بيئات بلدانه حيثما حلّ، وظروفها الخاصّة.

ثمّ انتشروا في الأرخبيل، تكيّفَتْ سلالتُهم رويداً رويداً مع هذه الجَزيرة أو تلك، ليختار قانونُ الانتقاء الطبيعي منهم من ينسجم بناؤه الجسدي، ولاسيّما منقاره، أفضل من غيره، مع سبل وأشكال التغذية في هذا العالَم الجديد، وليعطيهِ لذلك فرصةً أفضل في الحياة والإنجاب، وفي تحوّلِ سلالتِه مع مرّ الزمن من "تحت نوعٍ" بيولوجي إلى نوعٍ منفصل.

13 منقاراً مختلفة فيما بينها. بعضها نحيفٌ طويلٌ حاد. أخرى عريضة قصيرة ، وأخرى عريضة جداً، معطوفة على نحوٍ غريب.

13 مصدراً للدهشة الحميدة الخلّاقة.

13 صورة آخذُها لأبعثها لِوحي سرّاً بعد قليل.

تصادقتُ مع بعضهم، من أنواع بانسون الصبّار. لم أحب "البانسون النباتي" الذي قذف على أصابعي حالما رآني لسببٍ أجهله. نوعٌ نادرٌ هنا، كما يبدو. موقعهُ الاعتيادي المناطق الجافة الرطبة، قرب نقاط التقاء الجُزُر.

عذرتُه على قذفِه، وأنا أسمعهُ يغنّي، ثم اندغمْتُ به هو الآخر.

الأرهب: برهن المركز هذا نفسه أن تغيّرات بيولوجية طرأت على طيور البانسون، وعلى أشكال مناقيرهم،

منذ السبعينيات من القرن المنصرم، جراء جفاف حلّ بالأرخبيل، وتغيرات بيئية لحقت ذلك.

كما احتفل المركز أخيراً، والعالَم معه أيضاً، باكتشاف ولادة نوعٍ بيولوجي جديد من البانسون، الرابع عشر، بسبب بعض هذه التغيّرات في بعض الجزر.

أعيش هذه التجربة بكل أحاسيسي. ألتقط مثل فيكتوار هذه العصافير التي نصطادها، أفتح مخالب أقدامها الرقيقة وأطويها على أصبعي.

أحدّق في العصفور طويلاً بحب، وهو واقفٌ على غصن أصبعي، أتمحّص في نظراته وهي تراقبني. يمرُّ تيّارٌ ما، نتحدثُ لغةً ما...

أتذكّر من جديد من صارت تسكنني: وحي.

أتابغ نظرات العصافير القلقةِ في البدء، عند السقوط في المطب، ثم السعيدةِ جداً أخيراً، عندما تمسّدهم فيكتوار بأطراف أصابعها.

تأخذ شُهد وفيكتوار وأنا مئات صور تخلّدُ تجربةَ توحُّدِنا مع العصافير. تُجلي بعضُها نشوتي الثملى بعناق الحياة والطبيعة، هنا في هذا الملكوت الغلاباغوسي، وسعادتي وأنا ألمس أصابع أقدامها، أحملها، أراقبها، أهامسها، أسافر مع أسلافها فوق المحيط.

أذهب، بين حين وحين، سرّاً إلى خلف شجرة صبار، هنا أو هناك، لأبعث بالهاتف الجوّال بعض صورٍ شخصية

تضمّني وحدي، إلى... وحي، دون أن أجد تفسيراً لما أفعله، غير بهجتي العنيفة بهذه التجربة، في هذا المكان، ورغبتي في أن تشاركني وحي هذه السعادة التي لا مثيل لها، في هذا الخلاء اللدُنيّ، من داخل سجنها البعيد في قصرٍ فارهٍ تحيطه ستائر حديدية، في أحد أطراف شبه جزيرة العرب.

أيُّ مقامٍ صارت تحتلّ في وجداني هذه السجينة، في قصر يبعدُ عني 16 ألف كيلومتر، لأرسلَ إليها كل هذه الصور الحميمة، وكأنني أجري هذه التجارب لِتراني؟

ماذا ستقول شُهدُ لو عرفت أني بعثتُ الآن إلى وحي بصورٍ شخصية (أنا فيها وحدي!)، أخذتها بعدستها أو بهاتفي، دون استئذانها؟

أنقذيني رحمةَ السماء!

لم أنسَ قبل أن نترك مركز الأبحاث التوجُّهَ إلى الانحناء أمام ضريح "جورج الوحيد"، آخر نفرٍ من نوعٍ من السلاحف العملاقة، وقد انقرض من البسيطة يوم 24 يونيو 2012، بعد أن ناهز مئة عام.

لم يتمكّن المركز من العثور على أنثى من نوعه لتزويجه بها، لمواصلة بقاء هذا النوع على كرتنا الأرضية الحزينة.

أحيا دوماً انقراض نوعٍ بيولوجي من الأرض لحظةً تراجيديةً تعصر قلبي عصراً.

وجدتُ ثمّة، عند المتخصصين بالسلاحف العملاقة، كل الردود حول التساؤلات التي خامرتني حالما حطّت رحالنا في الأرخبيل: كيف جاءت هذه السلاحف العملاقة إلى هذه الديار؟

أبحاثٌ جديدة درست حمض الـDNA للسلاحف العملاقة، الحيّة والميّتة، في كل الأرخبيل، ورسمت كل التاريخ التطوري لها، منذ "آدم السلاحف"، إذا جاز القول، إلى الآن.

تطوّرتْ، مثلما تطوّرنا نحن البشر، الهومو سابيانسيون (الأناس الحديثون)، من أصول أقدم: هومو إركتوس (الإنسان المنتصِب)، هومو هابيليس (الإنسان الماهر)...

عرفتْ هناك: تستطيع بعض السلاحف الضخمة السباحة خلال أسابيع، وقطع مئات الكيلومترات، ورقابها الطويلة تتنفّس أعلى الماء، وفي أحضانها وأعطافها ما يكفي لِغذاء الرحلة.

لِسلاحف غلاباغوس أهلٌ في قارة أميركا الجنوبية، لهم تراثٌ جِينيٌ وجَدٌ مشترك، قبل ملايين السنين. لكن هذه السلاحف العملاقة الفريدةَ بنات بيئتها

الغلاباغوسية، تأقلمتْ معها، وتضخّمتْ في رحابِها، على إيقاع قانون الانتخاب الطبيعي.

المدهش: نتائج دراسات التطورات الجيولوجية والبيئية في الأرخبيل تتعانق مع نتائج الدراسات البيولوجية التطورية لهذه السلاحف، خلال ملايين السنين، في انسجام بديع (قبل 3 ملايين عام، كان التوزيع الجغرافي للجزر التسعة عشر في الأرخبيل مختلفاً عن اليوم).

نعيش هذه اللحظات الخالدة، شُهدُ وأنا، بِقلوبٍ ترفرف سعادةً ودهشات!

ما أجمل الحياة!

المجدُ لِلعلْم، المجدُ لِلحياة!

ثمّ صورةٌ أخيرةٌ لي في حضرة حبيب قلبي "جورج الوحيد" أخذتْها شُهد بعدستها، قبل أن أبعثها إلى وحي، في لحظةٍ مسروقة آثمة، ودون احترام لحقوق التأليف والتصوير لمعشوقة قلبي، صاحبة العدسة والملكيّة الفنيّة للصورة.

غفرانك ربّ البشر والبانسونات والسلاحف!

وفي سَحَرِ غلاباغوسي آخر، صحوتُ كلصٍّ سيرتكب جريمة.

تركتُ شهد وحيدة في سرير الفندق، عند انصداع الفجر. تجوّلتُ قرب الشاطئ لأصيغ نصّاً طويلاً على هاتفي الجوّال، سيقطع في أقل من ثانية مسافة الـ 16 ألف كيلومتر التي تفصل جزيرة سانتياجو الغلاباغوسية (كان اسمها جيمس، في أيام داروين) شمال غرب جزيرة سانتا كروز، عن شبه الجزيرة العربية. ليصلَ إلى القصر الذي تتعذّب فيه حبيبتي السجينة وحي.

الفجر صدفيٌّ ناعمٌ عميق، موسيقاه أهازيج وزغردات العصافير، ورفرفات الفراشات، وهمسات أسود البحر.

صرتُ أفكّر في من أضحتْ تستعمرُ أعماقي أكثر فأكثر، وفي معاناتها وعذاباتها التي لا يحقّ لي، مع ذلك، مجرّدَ سؤالها عنها!

أفكّر أيضاً (عليّ أن أعترف) في الإعجاب، والكلمات الرقيقة التي بعثَتها كتعقيب على صوري الشخصية أثناء تجربة دراسة عصافير البانسون، في المركز

الدولي: شيءٌ ما يُشبِه الحب ينساب في كل حرفٍ بَعَثته وحي، ملأ قلبي رجفات وسعادة.

والـ"شيءٌ ما الذي يشبه الحب" أقدس مراحل الحبِّ إطلاقاً.

حولي أسود البحر يغطّون في نومٍ عميق، لا يخلو، هنا أو هناك، من لعبٍ أو عناقٍ ثنائي. عصافير زمار الرمل (الطيوطوي)، عصافير مالك الحزين، عصافير بانسون داروين، كلٌّ في فلَكِهم يسبحون.

أمشي ذهاباً وإياباً في شاطئٍ قرب فندقنا، عيني على شاشة هاتفي في هذا الفجر الغلاباغوسي الساحر، "أقَرْبِعُ" على لوحة مفاتيحه كلمات وراء كلمات.

ألهثُ بحثاً عن الذكريات الضائعة في عالَمٍ رمتني فيه وحيٌ بلا رحمة.

عالَمٍ سال بين أصابع الجغرافيا والتاريخ، وضاع إلى الأبد. تُعيدهُ هذه "الغريبة العجيبة" إلي، وهي تسأل عن تداعيات يوم جامع العيدروس، وما حدث في اجتماعِ منظمةٍ قاعدية لم تعد موجودة، في زمنٍ تهاوى مهزوماً، في يمنٍ تحوّلَ إلى مقبرة جماعية. يحتضر ويوشك على الامّحاء من الكرة الأرضية!

كتبتُ:

تداعيات حادث جامع العيدروس لم تمسّني
وحدي، عزيزي وحي، بل مسّت أكثر مني

والده إمام الجامع، عقب إضرابه عن الطعام (بعد الاستقلال من الاستعمار الإنجليزي في 30 نوفمبر 1967، وقبل وصولي إليها في شهر هبوط آرمسترونج على القمر: يوليو 1969).

التقيتُ بعبد الباري ذات ليلة ليلاء في عدَن. من المهم كثيراً، عزيزي الغالي وحي، أن تدركَ ما دار في لقائنا، وأن تتذكّر شخصية هذا الإنسان الذي قد أعود يوماً ما للحديث عن تراجيدية حياته لاحقاً، بعد عقدٍ من هذا اللقاء (اربط حزامك من الآن، قبل سماعها).

قبل البوحِ لكَ، عزيزي وحي، بتفاصيل وسرِّ لقائي به، ساعةَ مغادرتي عدَن في منتصف السبعينيات، للدراسة الجامعية في علوم طبِّ الأسنانْ في جمهورية أذربيجانْ، يلزمني أن أواصل من حيث توقّفتْ: عام الثانوية العامة الذي سقط فيه قهّاروف على حياتنا كقذيفةٍ عنقوديةٍ اخترقَتْ سقفَ عمارة.

استغربتْ كثيراً لماذا لم يحقد قهّاروف عليّ بضراوة بعد فشل مشروع قراره بعدم اعتراف م/ ق بوجود الله، فيما الانتقام والحقد طبيعتُه

الثانية. ولماذا استمرّ يعاملني بطيبة كانت تقلقني جداً، وتثير شكوكي وارتيابي على الدوام.

لن أدرك لماذا لم أرَ منه نظرة واحدة تقدح شرّاً إلا العام التالي فقط، وأنا في سنة "الخدمة الوطنية"، التي تفتح الباب للحصول على منحة جامعية، فيما كان، هو وحسن، في عام الثانوية العامة.

جاءني قهَاروف يومذاك، إلى غرفتي بالمدرسة الداخلية، ليقول لي إنه بسبب مشاغله الحزبية الكثيرة لا يجد وقتاً للمذاكرة، ويُهمُّه الحصول على معدَّلٍ دراسيٍّ عالٍ يسمح له بالتأهل لِمنحة دراسية في باريس أو لندن للدراسة الجامعية.

"ولماذا تقول لي ذلك؟"، سألته.

– أريد منك خدمةً لن أنساها يا رفيق. "وشرف الثورة"[Z] سأجازيك عليها، كما يلزم!

Z صيغة كانت تُستخدم في ذلك الزمن الماركسي – اللينيني بدلاً عن قسم "والله العظيم".

– ما هي؟

– أن تحضرَ أيّام امتحانات الثانوية العامة إلى المدرسة، أثناء بعض المواد الدراسية المهمّة، وتختفي في مكان ما خلف قاعة الامتحانات، ومعك ملخصات دروس الثانوية العامة. ستصلك

حيثما أنت، بواسطة رفيق، أسئلة الامتحان، بعد توزيعها لنا بخمس دقائق. وسأخرج من القاعة، بغية الحمّام، قبل انتهاء موعد الامتحان بربع ساعة. ستسلّمني هناك، في الحمّام، الإجابات عن الأسئلة التي ستكون قد كتَبتَها بخطّكَ الواضح الجميل، أنت الذي نلتَ العام الماضي أعلى الدرجات في امتحانات الثانوية العامة.

لم أرفض فقط، لكنني فكّرتُ حينئذ في تنفيذ كل ما يقوله بحذافيره. ليس من أجله، لكن لخدمة رفيقنا حسن الذي أحبُّه كثيراً، وأعرف صعوبة ظروفه الدراسية والنفسيّة، ولاسيّما جراء المطبّات والمنغّصات والمؤامرات التي يحيكها قهّاروف بخبثٍ ضدّه، ودفقات الحقد البارد التي يصبّها فوق جمجمته، بين الآن والآن، وعلى حين غرّة كل مرّة.

أعرف أن التغشيش ليس سلوكاً حضارياً أخلاقياً راقياً نبيلاً، لكنني وجدتُ الرغبة العنودة في خوض هذه المغامرة الشيطانية المؤسفة.

عندما سمع رفضي، تفجّر غيظُه وحقدُه. هدّدني، وقال لي إنني سأدفع الثمن غالياً.

غشّشتُ حسن، خلال امتحانات الثانوية العامة، غير بعيد من قهّاروف، وبالطريقة التي اقترحها.

جُنّ جنونه بالطبع. وما زلتُ مستغرباً، حتى الآن، لماذا لم يعتدِ عليّ، أو يدبّر فخاً لـ"تصفيتي"، هو الذي تربطه علاقة يومية غرامية توحديّة بهذه الكلمة، ويميل إلى النطح والعدوان الجسدي على نحوٍ غريزي.

يمتلك الطاقةَ والرغبةَ العارمة لذلك، وحقداً بحجم السماوات والأرض، ومفتاحَ غرفة سلاح م/ ق للحزب (الخاصة بتدريس حصص تدريبات "المليشيا الشعبية" لـ"حماية الثورة").

وله أيضاً تاريخٌ مرموقٌ شهير في العنف الدموي أثناء "الانتفاضات الفلاحية"، حوّلهُ نجماً ثورياً قيادياً بارزاً.

لم أعش في حياتي خوفاً سكنني ليل نهار، من انتقامٍ مفاجئٍ حاسمٍ أشم، أجهلُ طبيعتَه لكنني أترقّبه في كل مكانٍ ولحظة، كما عشتُهُ منذ دقيقة رفضي طلبه، وحتّى انتهاء عام الخدمة الوطنية، ولاسيما بعد تغشيشي عمداً خصمه اللدود حسن.

انتقمَ مني، مع ذلك، بطريقة أخرى، أشدَ خساسة وامتهاناً ربما، أرادها أن تكون درساً تعذيبياً لي مدى العمر: حوّل منحتي المقرّرة لدراسة الفلسفة في لندن إلى منحة طب أسنان في أذربيجان (بعد إرسال تقارير أمنيّة إلى إدارة

المنح في وزارة التربية والتعليم، تنصُّ على منع سفري إلى دولة رأسمالية).

واستطاع أن يحصل لنفسه على منحة دراسية في الطب لروسيا دون أداء الخدمة الوطنية (لم تكن درجات امتحاناته تسمح بقبوله في جامعة غربية، كما كان يفضِّل).

أما حسن، فقُتِل في ظروف غامضة بعد سفري للمنحة بأسابيع، لأسباب أجهلها حتى الآن. أبكيه في قرارة نفسي كلما تذكّرته. وأتذكّره دوماً بمحبّة زاخرة. تراودني حتى اليوم رغبة دفينة في فتح ملف موته السري، وإن لا أعرف كيف.

ما يهمّني هنا، عزيزي الغالي وحي (الذي لا أعرفه حتى اللحظة، ويعرفني أكثر من معرفتي لنفسي):

يوم خروجي من مطار عدَن، في الطريق إلى الكويت، ومنه إلى أذربيجان (التي لم أرها حتى الآن)، لدراسة طبّ الأسنان، دهمتني أمّ المفاجآت: وجدتُ صديقاً قديماً في مقهى المطار قبل الإقلاع مباشرة. رأيته لأوّل مرّة منذ غادرنا معاً طور الرعد، كلّاً بطريقته: عبد الباري!

كنتُ قد سمعتُ في عدَن أنه، بعد هربه من القرية، توغّل في علوم الماركسية اللينينية،

واعتنقَها كدين. ليس كأخيه قهّاروف لاحقاً، ولكن بإيمان تقديسيٍّ صوفيٍّ صادقٍ حنون، لا لفّ فيه ولا دوران، ولا عنف بطبيعة الحال.

أسماه الجميع "الشيوعي"، لأنه، بكل بساطة، لا يقدِّس في الدنيا كلمة أكثر من هذه.

يحفظ عن ظهر قلب صفات "المناضل الثوري الشيوعي" كما هي مكتوبة في النظام الداخلي للحزب: الصدق، روح التضحية من أجل الشعب، الإخلاص، التواضع، الوفاء... (وألف صفةٍ أخرى تُحوِّل من يمتلك نصفها فقط إلى أكثر من ملاك).

وكان كلما رأى "شيوعياً" قادماً من حزب شيوعي عربي أو أجنبي إلى عدن (ويعلم الله أنها كانت مرتعاً للخبراء والزوار والهاربين والمضطهدين من كل شيوعيي وثوار العالَم) ينحني له بإجلال، ويهامسه بتقديس وبابتسامة حب (كأهلِ قريتنا في حضرة الشيخ نور الدين، كرّم الله وجهه)، يتبارك به لمجرد أنه عضو في حزبٍ شيوعي لا غير، حتّى إن لم يسمع منه كلمة واحدة: كل شيوعيٍّ نبيٌّ بالضرورة في أعين عبد الباري.

بعد إنهاء الثانوية العامة، تمّ توظيفه في مقر اللجنة المركزية للحزب في قسم العلاقات

الخارجية، وكانت مهمته الوحيدة الذهاب إلى المطار لاستقبال الوفود الشيوعية، ومرافقتها إلى المطار بعد مغادرتها عدَن.

ويعلم الله أيضاً أنه لا يوجد من كان سعيداً بمهنته مثله. يعاشر كل يوم أنبياء بلا عد، يستقبلهم، يحتكُّ بهم، ثم يودِّعهم. يعانق عشرات الأنبياء كل يوم.

وكان يحبّ الكحول كثيراً، وفي تلك الأيام، كانت الكحول متوافرة للجميع، ولاسيّما لمن لهم بطائق العمل في اللجنة المركزية، ناهيك عن أن عدَن تلك الأيام المباركة كانت تفتخر بمصنعٍ محليٍّ خاص للبيرة الرخيصة الراقية: صِيرة[8].

8 اسم ميناء صيدٍ جميل في عدَن.

جاء عبد الباري هذا المساء إلى المطار لاستقبال وفدٍ بلغاري سيصل في منتصف الليل. وكان منتشياً جداً كمن شرب قسطاً محترماً من الفودكا، مشروبِه المفضّل (لعلّها "كحولّ شيوعي"، في تقديره، أي "كحولّ نبوي").

ما إن تقابلنا، حتى انفجرَتْ بهجتُنا معاً. عناقٌ طويلٌ طويل...

كان آخر من ودّعني في مطار عدَن. دموعُ سعادةِ اللقاء، ودموعُ الوداع، سالت معاً في وجنتَي من لم يلتقيا منذ هربه بعد مجيء الشيخ نور الدين إلى جامع العيدروس في طور الرعد.

عدّد لي، خلال لقائنا الذي دام نصف ساعة في المقهى، كل من رآهم من أنبياء، منذ الصباح حتى هذا المساء، ومن هم الأنبياء البلغار الذين ينتظر مجيئهم هنا في المطار، بعد حوالى ساعة.

أتذكّره وهو يعدّ حصاده من الأنبياء بسعادة وفخر، لا تفارقه الابتسامة، بسحْنتهِ الفاتحة وشعره الكثيف وقامته النحيفة، بشاربه الخفيف وعينيه اللامعتين، وببدلتهِ الحزبية الزرقاء (معطف وبنطلون من قماش مصنع الغزل والنسيج الذي بنَتْهُ الصين الشعبية، بتصميمِ وخياطةِ محليّة متواضعة جداً).

كان في أقصى نشوته، سكران كما يلزم، يضحك دون توقفٍ كطفل، تغمره البهجة والحبور والرضا عن الذات.

مثل "أبو يمن"[9] (ذوي "أرقِّ القلوب، وألْيَنِ الأفئدة" كما يقول عنهم الحديث الشريف، وإن لا أدري ما هي المعايير والتجارب الإحصائية التي قادت إلى هذا الحكم الذي لا أتفق معه إلا فيما

يخصّ عبد الباري فقط، وأهل منطقة تهامة بالتأكيد)، مثلهم كان طفلاً دائماً، إلا في تضلّعه بالفلسفة الماركسية اللينينية: كان فقيهاً متبحراً في علومها.

9 لقب يُطلق على اليمني.

أذهلني حقاً؛ يحفظ عن ظهر قلب استشهادات ماركسية لينينية بلا عد، وأسماء لم أسمع عنها قط. لديه أجوبةٌ جاهزةٌ عن كلِّ سؤال ("انطلاقا من الفكر الماركسي اللينيني"، كما يُكرِّر دوماً بيقين مطلَق).

ثمّ كان عبد الباري ملاكاً كما عرفته في القرية: بريءٌ مخلصٌ صادقٌ حنون.

خامرَتْني رغبةٌ في أن أوجّه إليه هذا السؤال الذي لا يعرف مغاليق أسراره أحدٌ (تردّدتُ أولاً، ثم توكّلتُ على الله، وأطلقته).

– لماذا هربتَ من القرية بعد اجتماعك المغلق مع الوالد؟

لعلني صدَمته. احتاج إلى وقتٍ ليستوعبَ السؤال الذي نقله، كما يبدو، إلى ما قبل التاريخ.

بدا لي كما لو كان يضحك وحده، ويحاول كتمان ضحكه، بعد أن وضع رأسه على مرفقيه،

فوق طاولة المقهى، أو ربما كما لو كان يبكي بإفراط، دون دموع.

أمسِّدُ بلطف شَعرَه ذي الدوائر السلسة المنفوشة، لأخرجه من همٍّ مفاجئ راوده ربما بعد سؤالي، أو من نوبة ضحك صامت لا يستطيع كبحها، أو من سقوطٍ في هاوية... لا أعرف.

لعلّه لم يبح بالردَ لأحدٍ قبلي. طلب مني أولاً أن أعاهده بالاحتفاظ بالسرَ وحدي.

قلتُ له إنني مسافر الآن، إلى أذربيجان، ولزمن طويل. وقد قطعت كل علاقة مع القرية وأهلها.

ثم تردّد، وغيّر رأيهُ معتذراً: "لكنني وعدتُ الوالد أن أكتم السرّ، كما طلب".

– آه! عفواً صديقي، عندك ألف حق. اعذرني على السؤال. لننسَ الماضي.

المهم: ما يسعدني أنك اليوم في عدَن، نجمٌ متألق في سماء الشيوعية الدولية! ما تبقّى: ذكرياتُ أطفال.

ابتسمَ، وهو يلاحظ في ردّي سخريةً وديّة لم تتغيّر، منذ صبانا في طور الرعد.

ثم انفجر ضحكاً هذه المرّة على نحوٍ مسموع، ودون توقف (كان مخموراً نشوانَ أكثر من عادته)، قبل أن يضيف: "صدِّقْ أو لا تصدِّقْ، قال لي أبي

سأفضي لك بما تريد معرفته، لكن لا تقل حرفاً مما يدور بيننا لأحد. اعلم، يا بنيّ: الناس بحاجة قبل كل شيء إلى من يُطمئنهم، وإلى من يُبعد عنهم الخوف، وإلى من يدعم شعورهم بقوّة إلهية تساندهم.

يولد الطفل وهو بحاجة عضويّة إلى أمٍّ وأب، يحيطانه بالرعاية والحنان والدعم الدائم.

ثم يكبر، وتكبر هاوية حياته، وحاجته إلى عواطف ورعايةِ قوّةٍ أهمٍّ منهما، يشعر أنها تعرف ما يدور في وجدانه، وتدرك مبتغاه، تحبّهُ وترعاهُ، مثلهما وأكثر: قوّة الله عزّ وجل.

لا يوجد جنٌّ يا ابني، حسب علمي، ولا شياطين. ليس ثمّة غير خوف الإنسان من المجهول، ومن مطبات القَدر، وفتك الطمع والأنانية، وما تُسوِّلهُ النفس البشرية من شرور وخبث وانتقامات.

كل ما أفعله هو دعمٌ نفسيٌّ للناس بالطريقة التي تطمّئنهم: بدعاءٍ لله فقط، كي يساندهم ويوفّقهم ويكون حامياً لهم.

أما الوحي الذي تريد معرفة أسراره، فيأتي إلى الأنبياء عبر جبريل مباشرة، من السماء السابعة، أو بالكلام المباشر. يقول عزّ وجل: {وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى

تَكْلِيمًا}، ويقول: {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ}، ويقول: {إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (4) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (5) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (6) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (7) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (8) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (9) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى}.

ويأتي الوحي الأنبياءَ أحياناً في الحلم أيضاً: {إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ}.

أما نحن معشر البشر، فلا نحظى به، بطريقة أو بأخرى، إلا في الحلم فقط: حلمتُ، ذات ليلة، أن الشيخ نور الدين زار قريتنا. بعثت من يبحث عنه، ويصر على مجيئه بأي ثمن، رغم أنه لا يغادر بسهولة قريته في أعالي جبال قَدَس.

مجيء الشيخ نور الدين شدّ أزر أهالي القرية والحواشب، وقوّى قلوبهم، لأنهم يعتقدون بأن جلّ جلاله سيستجيب لتضرعاتهم إذا كان الشيخ نور الدين يصغي إليهم، ويتوسط بينهم وبين الباري عزّ وجل.

اعلم يا بني: نحتاج جميعاً، وعلى الدوام، إلى الأمل والإيمان والتطمين والراحة النفسية

والرعاية والحنان الإلهي، مثل حاجتنا إلى الأب والأم في الطفولة.

سنظلّ جميعاً أطفالاً، نخاف من قضاء الله وقدَره، وإن بلغنا من السنّ عتيّاً!

والابتهال للهِ مفتاح كلّ النيات الحسنة. به نلوذ في مواجهة ضعفنا الدائم. وكما قال الحديث الشريف: "الأعمال بالنيّات"".

صمتَ عبد الباري طويلاً. كان بعيداً جداً عني، في خواءٍ بلا قرار.

جرعةٌ ثوريةٌ "ديالكتيكية" من كحوله النبويّ أعادته إلى أرض الواقع. ثمّ أردف: "حالما اكتشفتُ أنني عشتُ حياتي أكذوبةً بهذا الحجم، وأنني بنيتُ قصوراً من ورق وأنا أعتقد بمقدرات خارقة حقيقية يمتلكها والدي والشيخ نور الدين، ولغة سريانية يستخدمها الشيخ للحديث مع الملائكة، هربتُ من القرية إلى عدَن. وإلى ماركس وإنجلس ولينين، وحسُنَ أولئك رفيقاً!".

***

"هل ذهبتَ مرّة أخرى في الفجر لِتصوير أسْود البحر؟"، تسألني شُهدُ بعد أن عدتُ من الشاطئ إلى الفندق لصّاً

يمشي على أطراف الأصابع. وجدتها قد استيقظتْ على نحو مبكّر أكثر من عادتها.

في عينيها قلقٌ وامتعاظٌ صارخان.

– نعم، حياتي!

– أنت متأكدٌ أنكَ لم تعد تتبادل الرسائل مع تلك الغريبة العجيبة، وحي؟

– طبعاً، نسيتُها تماماً... لماذا هذا السؤال الغريب؟

صمتٌ حاد. تتغيّرُ شُهدُ بعد ردّي، وتدخل رويداً رويداً في إضرابٍ صامت.

ولا يوجد ما هو أشدّ رعديّةً من إضرابِ صمتها بما في ذلك رعد قريتنا ("مرقص الرعود"، كما أسمّيها أحياناً) التي أُطلِق عليها اسم "طور الرعد"، بسبب عنفوانه، كما أظن: عندما يتفجّر بين جبال قريتنا يصمّ الآذان ويدكُّ الجماجم.

ما إن غادرنا غلاباغوس بعد عطلة الخريف (شُهد إلى باريس، وأنا إلى اليمن التي وجدتُها في خريفِ العمر وأرذلِه، وأسوأِ حالاتها وأخطرِها إطلاقاً)، إلا وأستلمُ من وحي إيميلاً تُعبّر فيه عن اختلافها، كما وعدَتني، مع ردّي السابق الرافض لأطروحاتها حول "الدَنمتة" والمواجهة "الناسفة" لما تسمّيهِ "جذر جذورِ موت العقلية العلميّة، وينبوعِ ينابيع المسلّمات الغيبية": الإيمان بالوحي.

شعرتُ بدوخة بعد أن قرأتُه: هذه الشابة المسكينة تقود حروباً فكرية جبارة أمامي، فيما هي مسجونة في قصرٍ، لا أدري أين!

الخوف يحكم حياتها (كما هو واضح للعين المجرّدة، لدرجةِ أنها لا تفصح عن بلدِ جنسية أمّها، وتكتفي بالقول إنها "أوروبية"!)، والرعب الدائم يخنقها منذ تعارُفِنا الرقمي قبل عدة أشهر: لا تتجرأ، حتى اليوم، على الحديثَ بتفصيلِ أكثر عن معاناتها.

مع ذلك، تقود في هذا الفضاء الافتراضي الثنائي الذي يجمعنا، نحن الاثنين فقط، "ثورةً فكرية" راديكالية، بروحٍ عسكريةٍ جيفارية، تُصمّم صواريخها

الباليستية ضد الظلمات، بجرأةٍ يصعب محاكاتها، وإن كانت في الواقع تصرخ منفردةً بصوتٍ لا يسمعه أحد.

تقول:

> لا أتّفقُ معك، أستاذي الحبيب، حول رفضك الدنمتة. لأن ثمّة حرباً روحية بيننا والظلمات. و"الحرب الروحية لا تقل ضراوة عن حروب الفرسان"، كما قال رامبو.

لا أتفق معك، ليس فقط للأسباب التي ذكرتُها في إيميلي السابق: مسلّمات الظلاميين عن الوحي تؤدي إلى فرض كتابتهم للتاريخ على الجميع، وإلى إغراق العقل في أثيرٍ إلهي وضبابٍ ميتافيزيقي، وإلى سيطرتهم على اللغة وعلى التفكير كنتيجة لذلك، وإلى تحجيم العقل ومنعِه، إذا لم يتفق مع الوحي، كما قال الغزالي.

لكن لأن الإيمان بالوحي يقود أيضاً إلى الاستبداد، ويُجمِّد "غَزولَة" حياتنا في نقطة ثابتة مستديمة، إذ بينه والاستبداد علاقة بيولوجية توحّدية: الوحي يمجد الفرد واليقين، يقود مباشرة إلى المحراب كمركز للحقيقة، أو إلى الحزب الطليعي الواحد أحياناً، كبديل للمحراب.

وكما تعرف: امتلاك "وزارة الحق المطلق"، والإيمان بمعتقدٍ ما كحقيقةٍ لا جدل حولها: مفتاح

الاستبداد.

وعندما يتقوقع المرء طويلاً في أرضية الاستبداد والظلمات وموت العقل، كما هو حالنا كعرب، فثمة خطر الديمومة الراسخة والتأبد في الأرضية نفسها، أو ما يسميه المفكّر الفرنسي اتيان دي لابويسي (1530–1563) في كتابه **مقالة عن العبودية الطوعية**: خطر خلق "المواطن المستقر".

يقول: "عندما يتعرض بلدٌ ما لقمعٍ طويل، تنشأ أجيال من الناس لا تحتاج إلى الحرية، وتتواءم مع الاستبداد، ويظهر فيه ما يمكن أن نسميه "المواطن المستقر""، ما جعل كاتباً عربياً (لعلّه علاء الأسواني) يضيف: "في أيامنا، يعيش المواطن المستقر في عالم خاص به، وتنحصر اهتماماته في ثلاثة أشياء: 1 الدين، 2 لقمة العيش، 3 كرة القدم. فالدين عند "المواطن المستقر" لاعلاقة له بالحق والعدل، وإنما هو مجرد أداء للشعائر واستيفاء للشكل، لا ينصرف غالباً إلى السلوك. فالذين يمارسون الكذب والنفاق والرشوة بلا حرج، يشعرون بالذنب فقط إذا فاتتهم إحدى الصلوات!

وهذا المواطن لا يدافع عن دينه إلا إذا تأكد أنه لن يصيبه أذى من ذلك، فقد يتظاهر مثلاً ضد الدنمارك عندما تنشر رسوماً مسيئة للرسول صلى الله عليه وسلم، لكنه لا يفتح فمه بكلمة واحدة مهما بلغ عدد المعتقلين في بلاده ظلماً وعدد الذين ماتوا من التعذيب!

لقمة العيش هي الركن الثاني لحياة "المواطن المستقر"، فهو لا يعبأ إطلاقاً بحقوقه السياسية، ويعمل فقط من أجل تربية أطفاله حتى يكبروا، فيزوج البنات ويشغل أولاده، ثم يحج إلى بيت الله استعداداً لحسن الختام.

أما في كرة القدم، فيجد "المواطن المستقر" تعويضاً له عن أشياء حرمها في حياته اليومية. كرة القدم تنسيه همومه وتحقق له العدالة التي فقدها. فخلال 9<0 دقيقة تخضع هذه اللعبة لقواعد واضحة عادلة تُطبَّق على الجميع.

"المواطن المستقر" هو العائق الحقيقي أمام كل تقدم ممكن. ولن يتحقق التغيير إلا عندما يخرج هذا المواطن من عالمه الضيق، ويتأكد أن ثمن السكوت على الاستبداد أفدح بكثير من عواقب الثورة ضده!".

باختصار، أستاذي الغالي الحبيب: النسف هو الحل الوحيد، بعد كل هذه القرون، لأن ديمومة الإيمان بالوحي قاد إلى هذا الاستبداد المستقر، الذي يعيد وسيعيد نفسه على الدوام، إذا واصلنا التفاوض مع جذوره الفكرية بالطرق الناعمة التقليدية التي تقترحُها كحل!

أثارتني هذه الرسالة، فبعثتُ لها بردّ معارض لا يخلو أيضاً من رغبة في اقتحام تحصينات سياج هويّتها الموصدة المبهمة، وكشف شذرات جديدة من أسرارها الشخصية.

لأقُلْ أولاً، عزيزي وحي: عندما أرى تصميمكَ على الصراع الجبهوي مع الظلمات، كما تقول، وأتذكّر أنك قلت لي إنك تعيش مسجوناً في قصر، ولكنك لم تتجرأ حتى الآن الحديث أكثر عن هويّتك، أدركُ حينئذ عمقَ وتناقضَ حياتك، وصراعاتك النفسية، وآلامك التي حدّثتني عنها في إيميلك الأول.

جرأةٌ وشجاعةٌ فكرية كاميكازية لا مثيل لهما، بجانب خضوعٍ واستسلامٍ لاستبدادٍ أصم، لا مثيل لهما أيضاً، عزيزي الغالي وحي.

قلتَ لي في إيميلك الأول إنك تأسف لأنني لم أكتب روايةً جديدة بعدَ "حياة ثانية". هل تعرف

ما هي الرواية التي أحلم بكتابتها الآن؟

رواية حياتك! رواية السجن في القصر. لا أحلم بغيرها، وليس ثمّة عَدَاك من يستطيع مدّي بقليل من المواد الخام حولها، لأكون في تخيّلي موازياً للواقع، مقنِعاً وقابلاً أن أُصدَّق.

فكِّرْ في هذا المقترح، لو سمحتَ، عزيزي الغالي وحي.

لأعدْ إلى موضوعنا الآن. الحروب الروحية لا تعني خوض الهجوم الإلحادي على الإيمان بالوحي، لِمجرّدِ أنك غير متفقٍ مع الحقيقة الغيبية التي ينزلها، ولأنك تراها تقود إلى الاستبداد.

لا يفيد الهدم إذا لم تكن هناك أفكارٌ موازيةٌ مقنِعة، تُبلورُ عقليةَ البحث عن الحقيقة بطرق أخرى: البرهانُ العلمي، الجدلُ ومرورُ التيار بين الرأي والرأي الآخر، كما تعرفُ أكثر مني ربما.

هل تدري من نفع الغرب في تأسيس مداميك هذه العقلية؟

هوميروس، في رأيي، وتراث الإغريق عموماً.

عشقَ الإغريقُ المناظرات والجدل والبرهنة التجريبية أو النظرية لاستخلاص الحقيقة من تصادم واختلاف وجهات النظر والفرضيات. كان ديدَنُهم تجنب التطرف في الرؤية الأحادية. يكفي

رؤية موقف هوميروس المحايد من طرفي حرب طروادة، لدرجة أن بعضهم ظنّوا أنه، هو الأثيني، منحازٌ إلى طروادة.

خلقتْ هذه الأرضية قاعدةً عقلية تجعل الإيمان بالوحي (كساعي بريد، أو كهدهد، يحمل الحقيقة الغيبية المطْلقة) غير ممكنٍ كثيراً، إن لم يكن أشبه بنوع من الخمول الفكري وموت العقل.

لاحظ أيضاً عزيزي: الفصل الأول من أوديسة هوميروس يبدأ باجتماع برلمان الآلهة. يفتتح الإله الأكبر زوس الاجتماع، ثم تبدأ الإلهة أثينا مداخلتها.

لا تنجح جلالتُها إلا بعد مرافعات عدة.

والفصل الثاني من **الأوديسة** يبدأ باجتماع برلمان أثيكا. مزاج الحوار والجدل لاكتشاف الحقيقة عريقٌ في ثقافة الإغريق.

"الحقيقة التي تأتي عبر الوحي ليست فكرةً إغريقية"، كما قالت، بحصافة، متخصِّصةٌ كبيرة بتاريخ الإغريق.

عندما تُرسي، عزيزي وحي، أسس الثقافة المبنية على التساؤل والجدل والبرهان، فأنت تضمن أرضيةً خصبة للعقلانية، وترفض إقحامَ الغيب في كتابة التاريخ والعلوم، دون الحاجة إلى

أن تمنع أحداً من الإيمان بالوحي، إذا أحب طبعاً (ما لم، فأنت تُكرِّس ديكتاتوريةً توليتاريةً قامعة).

كان بالإمكان، في أي لحظة، أن يوجد مجذوبٌ أو مصروعٌ أو "مرعوشٌ" في الغرب (ككثير من خطباء "هايد بارك" في لندن، مثلاً) يَدّعي بنبوءته، مثل كل المصابين بهلوسات، والمسكونينَ بأصوات داخلية، بهوَس دائم... لكن لن يجد من يأخذه بجديّة، ويقتلُ نفسه في سبيل وعوده.

باختصار: عندما نستطيع إرساء هذه الطريقة العقلانية في الحوار والتفاوض مع الحياة واستيعاب حقائقها، فسننجو. وليس بالهدم والدنمتة، أو بطلب م/ق باتخاذ قرار يطالب الجماهير بعدم الإيمان بالوحي، على غرار مشروع قرار قهّاروف الذي حدّثتك عنه!

لذلك: من الواجب المدنيّ بمكان تجنب شتم وتجريح الآخر بسبب إيمانه وقناعاته. هذه حريّته المطلَقة. ما نحتاجه نقد الأفكار بالتأكيد، بما فيها الدينية والإلحادية، لكن الأهم تقديم قِيَمِ تنويرية جديدة تجد طريقها إلى عقول الناس.

ثمّ علينا أن نعترف بعجزنا؛ لم نستطع ذلك بعد. واليوم، بعد استدامة "غَزولَة" – وفق مصطلحك الجميل – حياتنا كل هذه القرون، فالمهمة أصعبُ،

أتّفقُ معك. لكن تاريخ البشر متغيّرٌ دوماً، لا يعرف المنحنيات الثابتة إلى الأبد. وديمومةُ تقوقعنا ليست قَدراً مفروغاً منه.

لاحظ عزيزي: كونكَ تُفكِّر بهذه الطريقة وأنت قابعٌ في سجنٍ مظلم (لا أدري أين)، أكبرُ دليل على ذلك.

ما الذي يمنع الآخرين من أن يصلوا إلى استخلاصاتك، أو إلى أفكار أكثر أو أقل كاميكازية وتطرفاً من أفكارك، أكثر أو أقل حكمة؟

جاء رد وحي، سريعاً عنوداً رافضاً، كالمرة السابقة:

عن هويّتي وآلامي الخاصة، أستاذي الحبيب: لن أقول حالياً أكثر مما قلتُ في إيميلي الأول.

عن موضوع الرواية: مشروع مخيف جداً لي. أعطني الوقت للتفكير في مدى عدم استحالته.

من يدري، قد نلتقي يوماً (أتمنى ذلك من كل قلبي، أكثر من أي وقتٍ مضى). لكن الحياة أصعب مما تتصوّر، أستاذي الغالي غسّان.

ولحديثنا عن أجدى أساليب مواجهة الظلمات بقية في إيميلات مقبلة.

إذ ما زلتُ غير موافقة على طرحك التقليدي الفاتر حول هذه القضية العملية المفصلية

الرئيسية.

لاحظتُ لمرة أخرى، تستخدم وحي ضمير الأنثى وهي تقول "موافقة".

أما عبارتها "قد نلتقي يوماً. أتمنى ذلك من كل قلبي، أكثر من أي وقتٍ مضى"، فجعلتني أفرحُ كطفل، بل أكثر من ذلك: أجّجتْ من جديد أحاسيس حميمة غريبة، عميقة، في غُرفٍ خفيّة في سراديب دماغي.

تسألني وحي عن بقية عتبات سيرورة علاقتي بالإيمان.

ليس سهلاً أن توجِّه عدستك لتصوير روحِك داخل جدرانِها وخارجها في الوقت نفسه، أن تصوِّبها في القعر، وبانورامياً في آن واحد، أن تكون الخصم والحكم معاً، كما قال أبو الطيب المتنبي.

ليس هذا ما تبحث عنه وحيِ طبعاً؛ تريد شهادةً ذاتيةً صادقة حيّة، مادةً خام كثيفة وثريّة، تقرؤها بطريقتها، كما تحب.

وهذا ما سأفعل. قلتُ لها:

عزيزتي الحبيبة وحي: ظلّت حكاية إنقاذي البطولي للطفل الغارق في الطين، خلف العمارة، إثر "وحيٍ" قادني إليه، الغصنَ الذي أتعلّق به، حتى نهاية الثمانينيات، لأبرِّر إيماناً "منطقياً" رشيقاً ناعماً، ضامراً جداً، بعالَمٍ آخر، وبإلهٍ لم أعد أثبُ لتذكُّرِهِ إلا عندما تمرّ الطائرة بمطبات هوائية مخيفة، ترتجّ خلالها أوصالي، وأجد نفسي أتلو بصمتٍ وخجل، في قرارة نفسي، رتلاً من السور والآيات

القرآنية، وأدعيةً ربانيّةً تعلّمناها في جامع العيدروس.

أتلوها بخشوع، بحرارة، بإيمانٍ مفاجئ جبار، كأنه لم يفارقني يوماً: "إيمان الطوارئ"، كما أحب تسميته.

ثمّ أنسى كل شيء حالما تستعيد الطائرة مسارها الهادئ.

هذا كل ما تبقّى من إيمانٍ يتفجّر بين جوانحي فجأة في لحظات الخوف، ثم يدخل في سبات شتوي، بانتظار خوفٍ آخر.

طفقتُ أمارس هذه "العلاقة الانتهازية" بالعالَم الآخر حتى قبيل نهاية الثمانينيات من القرن المنصرم. لكنني كنتُ، قبل ذلك بكثير، لحسن الحظ، قد قطعتُ جذرياً وعلى نحوٍ مُطلَق (في زمنٍ لا أستطيع تحديد موعده، بين السفر لدراسة طب الأسنان في أذربيجان، ومنتصف الثمانينيات) علاقتي مع "أخلاق الحسنات والسيئات".

أعتبرُ الفضيلة غايةً بحد ذاتها، يعملها الإنسان النبيل من أجلها ولجمالها، كهدف لِنفسه، وليس كوسيلةٍ لشراء صكوك حسنات، من أجل زيادةِ عددها، وترجيح ميزانها على ميزان سيئاتِه، بغية دخول الجنة بعد الموت.

أزعجتني في الحقيقة تماماً فكرة محو بعض السيئات بعددٍ من الحسنات، كأننا في دفتر حساب الدكاكين، أو في معاملات البنوك، حيث أمامنا مؤشران: "لنا" (ما يدفعه الزبون من مبالغ لبائع الدكان، أو للبنك)، و"علينا" (ديونه، قيمة ما يشتريه، أو ما يسحبه من رصيده في البنك).

ولِتحديد صافي الحساب الإجمالي، يوماً بعد يوم، يلزم طرح ما "علينا" مما "لنا".

أي ما أسماها نيتشه بامتياز "أخلاق العبيد".

أفضِّلُ أخلاقَ الصوفيين والبوذيين، أخلاق أبي العلاء الذي قال:

توخّي جميلاً، وافعليهِ لحسنهِ
ولا تحكمي إن المليك بهِ يجزي

أو:

فلتفعلِ النفس الجميلَ لأنهُ
خيرٌ وأحسنُ، لا لأجلِ ثوابها

كل الشعائر التي تؤدي إلى كسب الحسنات في هذه العلاقة النفعية التجارية، لم تجذبني قط، بل لم تدخل ببالي، إن لم تثر كل امتعاظي حقاً.

أعطي كل ما لديّ للآخرين بتعاطف، لا أحسد ولا أكره أحداً. لا أحقد على إنسان. معينُ طاقتي حبُّ الآخرين لي. وأحاول توسيع "دوائري

الأخلاقية"، يوماً بعد يوم، لتتّسِع لمحبة كل بشر وحيوانات ونباتات الأرض، لاحترام الأقليات والمستضعَفين، ولرفض الاستبداد والقهر ومواجهة كل الطغاة والظالمين على الدوام.

نعم، قطعتُ علاقتي بسلوك الأخلاق النفعية التي تجاوزَتْها، بسنوات ضوئية اليوم، أخلاق الإنسان الحرّ الأعلى، أخلاق الحداثة ومجتمع المدنية والقانون.

قطعتُ أيضاً رغبة الانضمام إلى نادي هواة ما يسمّى "رهان باسكال"، أي ما معناه: "عليك بالإيمان باللّه وممارسة الشعائر، فإذا لم يكن هناك إلهٌ وعالَمٌ آخرٌ، فلن تخسر شيئاً، وإن وُجِد، فستكون قد ربحتَ، وأنقذتَ نفسك من الجحيم".

لم يناسب مزاجي هذا السلوك المنافق يوماً: إما أن يكون إيماني خالصاً نقياً بِقناعة مطلقة، أو لا يكون. هكذا ما كنتُ أريده، لا غير.

ولطالما لمتُ أبا العلاء لقبولهِ هذا المبدأ، قبل الفيلسوف باسكال بسبعة قرون، في بيتِ شعرٍ له، طالما كرّرتُ عند قراءته: حتى أنت يا أبا العلاء!

مع ذلك، ظلّتْ عودة ابتهالاتي الدينية الخاشعة في دقائق الخوف، كتلك التي تقتحمني فجأة عندما تمرّ الطائرة التي أركبها بمطبات هوائية

مفجعة ("دقائق الإيمان الانتهازي"، كما أسمّيها) تزعجني، تزعجني جداً، لأنها في الأخير تذبذبٌ مفاجئٌ في لحظة ضعف، استجداءٌ جبانٌ رخيصٌ جداً، ونمطٌ خاطفٌ من أنماط ذلك التديّن المنافق الذي أدّعي أنني أرفضه.

هكذا كان وضعي الإيماني، عزيزي وحي، حتى منتصف الثمانينيات من القرن المنصرم.

ماذا حدث بعد ذلك؟

في النصف الأخير من الثمانينيات، مرّتْ أحداث متنوّعة هزّت كياني، وغيّرت كلّ حياتي. لا أعرف الربط بينها، ولا تحليلها، لكنها قادت إلى عتبة جديدة.

***

توقّفتُ بضعة أيام عن بعث أي رسالة إلى وحي. لا أحبّ نبش جراحٍ قديمة ما زالت حيّةً ملتهبة: الاستطراد في كتابة هذا النص يعني أن أسردَ أسوأ موضوع أمقتُ الخوضَ فيه، وأشعرُ فعلاً بالغثيان والرغبة في التقيؤ عند الاضطرار إلى الحديث عنه.

إيميلات عدّة من وحي لم أجبْ عليها. تحاول حثّي على الاستئناف السريع، ناسيةً ما قالته في أول رسالة: إذا لم أرد عليها، فستتوقف عن بعث أي إيميلٍ لي، لأن

ذلك يعني بالنسبة إلينا أنني قرّرتُ توقيف مغامرة حوارنا، وعليها الخروج من حياتي حالاً، كما رسمتُ في البند الأول من بروتوكولها حينذاك.

هل صارتْ تحتاج نصوصي إلى هذا الحد؟

هل أصبحتْ مهمّاً، ضرورياً، لاستمرار حياتها في سجن القصر؟

تستفسر عن حالتي، تقلق، تعتذر على توريطي في هذه المغامرة... وتُكرِّر بعث إيميلاتها عبثاً: في حلقي غصّة، وفي أصابعي شللٌ كليّ...

ثم فتحتُ لها فوهة بركان الجرح، لأنني أقلقتُها فعلاً، أنا الذي لا أحب إلا إضحاكها فقط.

كنت في "بنك جولَة كريتر"، في قلب عدَن، في العاشرة صباحاً من يوم كالحِ قمطرير، 13 يناير 19>86، عندما انفجرت الحرب بين تيارين في الحزب الحاكم "الذي لا صوت يعلو فوق صوته".

ولأنه كان زمنَ بلاغةٍ خشبية لا تتكرّر، كان لكل تيار اسم: "الطغمة"، و"الزمرة".

اختبأث، مع زبائن البنك، في سراديبه تحت الأرضية، عشرة أيام، دون أكل، وبماء شحيح.

عشرة أيام وليال قضّيناها نرتجف، دون توقّف، من لعلعة ودويّ الأسلحة الثقيلة والخفيفة، على بعد أشبار من البنك، ومن قصف المدرعات وأسلحة الطيران والسفن في الوقت نفسه.

لم تكن حرباً كبقية الحروب. كانت مذبحةً جماعية، زلزالاً حطَم الأخضرَ واليابس، الجدرانَ والأسسَ والمداميك.

زلزالٌ كلُّ ما يليه في السنوات والعقود المقبلة هو النكبة والنكسة عينها، إذ لا تكمن تراجيديته وخرائبه في الأيام التي تفجّر فيها فقط، لكن في تفاقم هذه الخرائب والتراجيديات مع مرور الزمن.

هكذا كانت مذبحة 13 يناير: نهاية شيءٍ ما، وحلم ما، إلى الأبد: فاتحةُ خرابٍ جذريٍّ نهائي، أسوأ وأشنع مما سبقه، يزداد إلى الآن يوماً بعد يوم.

أنهار دماء سالت خلالها في كل أحياء عدَن. 13 ألف قتيل خلال عشرة أيام. ليس ذلك الأهم ربما. الأهم والأبشع معاً: كيف حدثت هذه الشناعات، وكيف مرّت تلك الأيام، وماذا تركت بعد ذلك من تداعيات وعواقب، حتى اليوم؟

كانت مذبحة تدميرية شاملة، بلا أخلاق، كشفتْ حجم الشرّ والشيطنة في النفس البشرية.

بدأتْ، كما يعرف الجميع، بِترموست شاي يحمله حارسٌ إلى مقعد الأمين العام للحزب (رئيس الزمرة)، قبل مجيئه إلى الاجتماع، حيث ينتظره بقيةُ أعضاء المكتب السياسي، خلا أعضاء المكتب السياسي الموالين له من الزمرة.

قبل مغادرة باب الصالة، يدور الحارس ليطلق النار على أعضاء المكتب السياسي الحاضرين!

واااااو!

هكذا، بكلِّ سهولة، بعد رُبع قرنٍ من كفاحهم المسلّح المشترك لتحرير عدن وجنوب اليمن من الاستعمار الإنكليزي، ثمّ بنائهم "أول تجربة اشتراكية علْمية في

العالَم العربي"، في ج.ي.د.ش، يتبادل "رفاق الثورة والنضال" رصاصاً في الظهر!

غدرٌ صارخ: الأمين العام كان مختفيا خارج عدَن، مع بقية أعضاء الزمرة من المكتب السياسي. وما مجيء ترموست الشاي إلا تمويه فنيّ يسمح بدخول الحارس للقاعة، لإيهام الحاضرين أن كلَّ شيء على ما يرام، والاجتماعَ قائمٌ، والأمينَ العام قادمٌ بين دقيقة وأخرى.

أي لمن لم يفهم بعد: لم يكن ترموست الشاي، ووابل رصاص الرشاش في أظهر الحاضرين، غير صفَارة بدء المجزرة.

من ينسى صفارات بدء مجازر الغدر الكبرى في أحلك أيام العصور البائدة؟

500 من قادة المماليك يدعوهم محمد علي باشا، حاكم مصر، بمناسبة سفر جيشه في حملةٍ على الحجاز بطلبٍ من "الباب العالي".

يُنظِّم جلالته حفلاً سلطانياً متخماً بألذّ الموائد وأطيبها لتكريم المماليك: أكلٌ وفير، شرابٌ هبط من أنهار الفردوس، وغناء لا أعذب منه.

ثم يتوجّه موكبهم لتوديع الجيش الذي يسير أمامهم في طريقٍ منحدرٍ تمّ اختياره بعناية.

خلفهم فريق من العسكرِ الألبان، أعطاه "عزيزُ مصر" مهمةً خاصّة.

ثم طلقة نار (كلمة السر، صفارة بدء المجزرة)، ويحصد العسكرُ الألبان المماليكَ بالنيران من الخلف.

غير بعيد من هناك، بجانب باب قلعة القاهرة، كان محمد علي باشا "مُطَنْطِناً"، يدخن غليونه بهدوء!

قبل ذلك بقرون عدة، ملِكَان يحتفلان بتوقيع هدنة، في مائدة شهيرة يُطلَقُ عليها "مائدة رافين"، باسم المدينة الإيطالية التي سيتم فيها التوقيع، بعد قليل.

الأول ملِكٌ تدعمه الإمبراطورية البيزنطية، والثاني ملِكٌ تدعمه الإمبراطورية الرومانية.

المدعوون إلى المائدة مئات، بل آلاف، من قادة الجيشين وكبار الأعيان.

يجلس حول المائدة كل ممثل من الإمبراطورية الأولى بجانب كل ممثل من الإمبراطورية الثانية، لتعميد حفلة التآخي والسلام والصداقة بين الشعوب. وليمةٌ إمبراطوريّة، لحومٌ فاخرة، شرابٌ معتّقٌ خاص، وغناءٌ أخوي مشترك، تتخلّله دردشاتٌ ثنائية مترعةٌ بالحب والصفاء، بين كل جارَينِ في المائدة.

ثمّ يقف الملِك البيزنطيّ ليفتتح رسمياً حفلةَ الصداقة وتوقيع الهدنة، برفع نخبٍ بصحة الملك الرومانيّ وعساكره وديوانه وأعيانه.

تدقّ الموسيقا (كلمة السر، صفارة بدء المجزرة): يُخرِج كلُّ مدعوٍّ من المملكة الأولى خنجرَه ليضعه في

مركز قلب جاره الأيسر من أبناء المملكة الثانية!

بعد صفارة غدر 13 يناير، تتفجر الحرب التي استعدَّت لها الزمرةُ منذ أشهر، وانتصرتْ فيها الطغمةُ، لأن موازين القوى كانت لمصلحتها.

غدرُ الزمرة، ثم التصفيات الانتقامية الحاقدة المضادة التي قامت عليها الطغمة (بمجرد فحص البطاقة الشخصية لهذا أو ذاك، وملاحظة أنه وُلِدَ في منطقة هذا القيادي أو ذاك من الزمرة!) كشفَتْ الوجه القبلي والمناطقي القبيح لمن لبسوا قناع الماركسية اللينينية.

ما حدث لم يكن غدراً ولا تصفيات اعتيادية يمكن أن تُنسى: بشرٌ تجمعهم صداقات وعلاقات حميمة في الظاهر، حتى ليلة المذبحة، بل حتى صباحها، ينزعون الأقنعة لِيتقاتلون فجأة بجنون وشراسة وحقد.

أيُّ إبليسٍ درَّب بعض أنصار الزمرة، في هذا المرفق أو ذاك، على إخفاء مؤامراتهم للقبض على أنصار الطغمة، وقتلِهم حال إطلاق أوّل رصاصات اجتماع ترموست الشاي؟

وأي إبليس دفع أنصار الطغمة إلى تصفية كل من هو محسوب على الزمرة، وإبادتِه وإن كان بريئاً، لمجرّد أنه من مواليد مناطق بعض قيادات الزمرة فقط، رغبةً في الانتقام الوحشي المناطقي الشنيع.

دُهِمَ بعض المرضى في المستشفيات لِقتلهم ببرودة، لمجرد أن للمريض علاقةَ صداقة أو انتماءٍ أسريٍّ أو مناطقيّ، مع أحد المنتمين إلى الطغمة أو الزمرة.

شعبٌ يتآمر على نفسه بنفسه، يبيدها إبادةً ذاتية مُثلى، بنجاحٍ منقطع النظير، وبقبحٍ لا يخطر ببال.

انتهتْ بعدها تجربة الاشتراكية العلمية في اليمن، سقطت كل المكاسب الاجتماعية، وماتت دولة النظام والقانون. أقفَلَتْ "الكلية العليا لِعلوم الماركسية اللينينية" أبوابها، نسي الجميع كلمتهم الأثيرة: ديالكتيك، وأضحت الأرضية جاهزة للانتقال من تطرُّفٍ إلى آخر، تطرّفُ السلفية والظلامية التي أرساها العائدون من أفغانستان، بالتحالف مع أسوأ طاغية كان يحكم شمال اليمن، ثم استولى على اليمن كليّة (بعد الوحدة اليمنية)، وحوّل جنوبه إلى غنيمة حرب له ولقبيلته وأعوانه، ولكل السلفيين والظلاميين، ولاسيما بعد حرب جديدة أخرى في 1994، عندما غزت قبائله وأنصاره وجيشه خلالها جنوب اليمن وامتهنه كلية.

قبيل هذه المعركة الجديدة، الطويلة والشنيعة جداً أيضاً، بأربع سنوات، في 22 مايو 1990 توحّدت اليمن.

كان ذلك يوماً خالداً، حلماً كبيراً، فتح الأمل للجميع. عشتُهُ بسعادةٍ لا توصف. لم يستمر الحلم غير سنتين تقريباً. ثمّ بدأتْ التهيئة لكارثة 1994 التي نجحت

تماماً، كما قلتُ قبل قليل وبألمٍ لم ينضب حتى اليوم، بالإطاحة بمكاسب جنوب اليمن والتهامِها على طبقٍ من ذهب.

لأعُدْ، عزيزي الغالي وحي، إلى جُرح مذبحة 1986 الذي لا يندمل.

كنتُ قُبَيله فقط قد بدأتُ، بعد 10 سنين من غيابي شبه الدائم عن عدَن للعمل الشاق في الغرب، الرجوعَ المنتظم إلى اليمن الذي لا يمكنني العيش دون الاستقرار فيه.

عندما خرجتُ من البنك، بعد عشرة أيام من الانبطاح المهين والجوع والظمأ في كهفٍ مظلم، لم أجد معشوقتي.

ماتتْ عدَنُ التي عرفتها، وحلّت محلها أخرى، حزينةٌ مغتصبةٌ حتى اليوم، تزدادُ آلامها مع مرّ الزمن.

لمدّة شهر تقريباً، كنت أسيرُ في شوارعها كالمجنون، أبكي كل يوم. أسأل عن مصير هذا أو ذاك.

إن لم يكن ممن اغتيلوا في مؤامرات الغدر في كل مرفق عمل، في الساعات الأولى لاندلاع الحرب، ضمن من قتلتهم الزمرة ببشاعة، فهو ممن صفَّتهم الطغمة المنتصرة بخساسة، لاعتبارات انتقامية أو مناطقية حاقدة.

عشتُ منتَهكَ الروح، منكوباً، مطعوناً في الظهر. أبكي خلال شهر، وأنا أطوفُ مدينتي المغدورة. لم أبكِ في حياتي مثل ذلك الشهر. وربما انقطعتْ مقدرتي على البكاء بعده، وحتى الآن.

سألتُ عن عبد الباري فيمن سألت.

قال لي صديقٌ حميم: كان الطيب عبد الباري ضمن رتلٍ طويلٍ تمَّ القبض عليهم بيد أعضاء الزمرة، داخل مكاتبهم في مقر اللجنة المركزية للحزب. أُخِذوا بعد ذلك في باصات إلى موقع بين جبال لقتلهم ودفنهم في مقبرة جماعية.

كانوا الفاتحة لا غير: جُزِرت رقابُهم بعد إطلاق أوّل رصاصة في اجتماع المكتب السياسي، حال بدء مسرحية ترموست الشاي مباشرة.

ثمّ تكرّرت مفاجآت إلقاء القبض والإبادات الجماعية في كل مرافق الدولة، على غرار سيناريو تصفية "كوادر" اللجنة المركزية.

لسببٍ غامض غريب، لم يُقتل عبد الباري واثنان من رفاقه، في مجزرة القتل الجماعي لـ"كوادر" اللجنة المركزية المحسوبين على الطغمة. لا يعرف أحد سرّ تلك النجاة إلا عبد الباري ورفيقاه.

ربما ترك القتلةُ ثلاثتَهم يغادرون عمداً، رحمةً بهم، وربما هربوا خفية على حين غرّة.

ثم استطرد الصديقُ الحميم: قضى عبد الباري ليلتَهُ في ذروة السكر حتى الفجر، كما لم يسكر في حياته قبل ذلك.

ثم صحا إنساناً آخر. انتقل في لحظةٍ ما، شديدة الحساسية والسريالية، خلال سكرتِهِ التاريخية، من دِينٍ إلى دِين.

تمكّن من الهرب سرّاً خلال الحرب، واختفى في طور الرعد، ولم يعد إلى عدن بعد انتصار تيار الطغمة الذي كان محسوباً عليه مع ذلك، لأنه صار...

"صار ماذا؟"، سألتُ صديقي.

– متديّناً سلفياً...

بعد شهر من الحرب، توجّهتُ إلى طور الرعد، لحاجتي إلى العزلةِ والهدوء، بعد دهرٍ من الابتعاد عن القرية. كنتُ في حالةٍ عصبيّةٍ لا شفاء لها.

وصلتُها ليلاً بعد سنوات طويلة من الغياب. ذهبتُ للنوم مباشرة. لم تكن في البيت إلا أمّي التي تنزل من القرية إلى عدَن عندما أكون فيها غالباً، لكنها لم تعش أيّام هذه الحرب معي هناك، لحسن الحظ.

في الخامسة فجراً، صحوتُ مذعوراً من صوتٍ صادمٍ حاد، مريعٍ جداً، آتٍ من جامع العيدروس، عقب أذان صلاة الفجر مباشرة. يشبه زئير وحشٍ جريح، تتلاطم أصداؤه بين جبال الحواشب.

كنتُ أرتعش، كمن يخرج من كابوسٍ عنيف. لكن الكابوس كان أمامي: نشيجاً صارخاً يمزّق نياط القلب ويهزّ كل جدران بيوت طور الرعد (لو لم يكن اسمها طور الرعد، لاستحقّت ربما اسمَها، من آهات ذلك البكاء الدامي الذي يدكّ الروح، ويرجّ الجمجمة).

آهاتٌ نقيّةٌ مدويّة تصعد من الأحشاء في فجر قريتنا الناعم.

نافورةُ بكاء حاد وأنين تجتاح أصداؤها مسمعي حتى اليوم.

خرجتُ مرتبكاً قلقاً باتجاه مصدر الصوت، عندما أوقفني جاري.

بعد عناق وتحيات، طلب مني ألا أذهب إلى هناك إلا إذا كنتُ في طريقي لصلاة الفجر.

"ما سبب هذا العويل والصراخ المرعِبَين؟"، سألته.

"الشيوعي!"، رد بصوتٍ باهتٍ أصفر.

– ماذا تقصد؟

– عبد الباري.

"أين هو؟"، سألتُ بقلقٍ وشوقٍ لرؤيته.

– بعد أذان الفجر، يتّجه عبد الباري إلى قرب المسجد، ويعوي بمثل هذا النشيج الحاد، كل ليلة، منذ نحو 5 أسابيع!

– لماذا، ما به؟

– بعد مجيئه هارباً إلى القرية في ثالث أو رابع يوم من الحرب، مع طفله الأصغر (لهذا أخَوان آخران أكبر منه)، كان يعيش صدمة يصعب السيطرة عليها أو التفاوض معها. تغيّرَ كليّة، لم نعرفه.

حلَم ليلتها أن عليه ذبح طفله، مثل النبي إبراهيم، قُرب باب الجامع بعد أذان الفجر مباشرة، قرباناً إلى اللّه، لتتوقف الحرب، وينتهي الشرّ في هذا العالَم.

استيقظ فعلاً ليلة الحلم مباشرة، انتظر أذان الفجر، أيقظ طفله وحملَهُ معه، مُخفياً ساطوراً كان قد شحذهُ بعناية.

وفق الحلم، يلزمه أن يذبح طفله بالساطور الإبراهيمي، وليس بمسدس، وأن يبيع مسدسه بعد ذلك لِشراء ثمن قبر ابنه، وأن يدفنه بيديه مع الساطور.

حينئذ، وحينئذ فقط، ستنتهي الحرب والعنف في هذا العالَم.

انتظرَ نهاية الأذان مباشرة. حربٌ أهليّةٌ جديدة تتفجّر في جوفِه وبين أضلعه. كلّ أفاعي العالَم تلتفّ على بعضها في صدره.

توكّل على اللّه، بسمَلَ، قرأ آيات الكرسي والفاتحة، وذبحَ ابنَهُ عند باب الجامع مباشرة، استجابةً لدعوة اللّه له في الحلم، وقرباناً لتتوقّف الحرب ولينتهي الشر في كلّ العالَم.

منذ تلك الليلة، يخرج بعد أذان كل فجر، يبكي ويصرخ هكذا، كل يوم. بعد أن أدرك أنه قتل ابنه بيديه، بجنونٍ لا يقلّ عن كل جنون حرب 13 يناير.

صدمةٌ كهربائيةٌ اجتاحتني وأنا أسمعُ هذه الكلمات على أصداء عويل عبد الباري وهو ينادي طفله الحبيب بالرجوع إليه!

كنت مذعوراً من الفزعة والوجع، مطعوناً في الصميم كمن وخَزَتْهُ شفرةُ خنجرٍ ساخن. أيقنتُ أن ثمّة لعنةً خطيرةً تطاردنا، تطيح بحياتنا، تطلّ علينا من زمنٍ أسطوريٍّ توراتيٍّ خارج الزمن، من زمن الوحي الإبراهيمي، ومن قبل ذلك ربما.

كيف يمكن لساطور، في قصة توراتية أسطورية، راود إنساناً في حلم، أن يخترق كلّ طبقات الوهم، ويتسلّل إلى الواقع، ويحزّ رقبة طفل بريء، سعيدٍ بالخروج من الدار مع والده، في فجر قرية طور الرعد الساحر؟ ولاسيّما إذا كان القاتل ملاكاً بريئاً كعبد الباري، أب الطفل القتيل نفسه!

كيف يمكن لهذه الطبقات من الأساطير والأوهام والأحلام الليلية أن تغزو حياة اليقظة، أن تعثو في الواقع فساداً، وأن تغرس براثنها في نخاعه الشوكي؟

التهمني رعبٌ جديد، في ذلك الفجر الذي أردتُ فيه الهدوء والراحة، بعيداً عن جراح عدَن، بانتظار الظهيرة

التي سأذهب فيها لتناول القات مع رجال القرية، في مجلس عام.

كنتُ مكسورَ القلب يومذاك لأجد السعادة في رؤية جبل القُلَّة والثرثرة الطويلة معه. كم كنتُ أحبّه كثيراً مع ذلك، وكم حدّقتُ كثيراً وبوَله في هيئته العملاقة، بتماثُلِه الهندسيّ الباهر، وبرأسِه الذي يُشبِه رأسَ إنسان!

كم كنت أفكّر بهذا الرأس، وأقلق عليه من أي مصائر رمادية تنتظره، عندما كان الرفيق قهّاروف يطالب بـ"نسف المرتفعات الاقتصادية"!

كنتُ أعمى البصر والبصيرة يوم عودتي إلى القرية، مسكوناً بالغثيان من كل شيء، لاكتشفَ أن لكل جبال الحواشب الجرانيتية الجرداء جمالاً باهراً: "جرحُ المنظر يطفئ جمالَه" (مع الاعتذار للشاعر الصيني الذي أعكسُ بيتَه الشعري: "جمالُ المنظر يطفئ جرحَه")، لهيب الجرح الذي نعيشه في هذا البلد يغشى البصر، ويمنعه من تذوّق الجَمال.

لم أكن أكنّ لهذه الجبال أي إعجاب سابقاً، ولا أستطيع الاعتذار لها على عدم انحنائي يوماً أمام روعتها: "أجواء الجحيم لا تحتمل التراتيل"، كما قال رامبو.

كنتُ يومها في دوّامة، أستحضر أصداء بكاء عبد الباري، وأحاول أن أفهم هذا الجنون الذي اجتاح كل

البلد، والثقافة العربية عموماً، وهذه الماركسية اللينينية المعتوهة التي تفتح الباب للرأسمالية الوحشية التي لا تُبقي ولا تذر، وللشعوذة والقتل وإبادة الذات والشقاء الصارخ.

لم يكن لديّ غير حلمٍ واحد: الهرب للجوء السياسي والعاطفي والوجودي في "مايا"، عالَمي الطوباوي الجميل، الذي لم أعد أمتلك الطاقة والشجاعة والمقدرة حتّى على مواصلة توسيعه وتعميره، كحلٍّ لخراب هذا العالَم.

أيجوز لي الاستمرار في تأثيثه، عندما يبلغ الشقاء اليومي في عالَمي الأرضي هذه الذروة؟

في مجلس القات، جاء كلّ رجال القرية لاستقبالي. ماتت رغبة الضحك لدى الجميع. الكلّ يعدّون ضحاياهم و"شهداءهم".

في كل حروبنا: المقتول والمقتول الآخر "شهيدان"، وفق مجلس كبار الفقهاء والمفتين، أو قرارات اللجنة المركزية، بغض النظر عن الطرف الذي ينتمي إليه هذا أو ذاك، ودون أدنى اكتراث بأوجاع صداع الرأس الذي تسبّبه هذه التصانيف والفتاوى للحضرة الإلهية.

إذا حاربتَ في اليوم الأول مع فريق، وفي اليوم الثاني مع الفريق المضاد، ثم عدتَ في اليوم الثالث والخامس وفي كل الأيام الفردية لتقاتل مع الفريق

الأول، وحاربتَ في اليوم الرابع والسادس وفي كل الأيام الزوجية بجانب فريق العدوّ، وقُتِلتَ بعد ذلك في يومٍ فرديٍّ أو زوجيٍّ، سيّان، فأنت شهيد، والجنّة تحت أقدامك!

في ركن المجلس، في زاوية مظلمة، يقبع مثل كل يوم من انفطر قلبي رأفةً حال رؤيته. لا ينبس بكلمة. عيناه غائبتان، غارقتان في لجّ العدم. حولهما حلقتان سوداوان داكنتان تشرحان كلَ مأساته.

جيوبٌ أسفلهما تكشف علاقةً ليليةً قاتمة مع قوىً ضاربة خفيّة.

شاخ سريعاً، برزت عظام وجهه على نحو مفاجئ، وماتت الابتسامة في محياه إلى الأبد.

لا يتحدّث معه أحد، ولا يخاطب أحداً. يزيغ نظره، دموعٌ لا مرئيةٌ لا تتوقف من الانهمار على وجهه الضامر. يهوي في دوّامة لا يراه فيها أحد.

رؤيته تثير الفزع، والفزعُ من كل شيء ينهشهُ بصمت، يسكن نظراته وهي تُحدِّقُ في القاع، وسط المجلس، حيث يقبع ترموست شاي صدئ، على لوحِ شائبٍ مشروخٍ وسخ، تحيطه أكوام أغصان القات المرميةِ، بعد نزعِ ولوكِ وريقاتها.

تحومُ نظراته في اللاشيء المحيط بالترموست. تبحث، كما يبدو، عن طيفِ طفلٍ يترنّح بعيداً في مملكة

الموتى.

النظراتُ الأخيرة لهذا الطفل (ورأسهُ مفصولٌ عن جسده بين يدي والده)، تعود مع بدء كل يوم، إلى ذاكرة قريتنا المنكوبة. تحوَّل فجرها مأتماً وعذابات، وحفلة تأبينٍ جماعية دائمة.

لم نتعانق كعناق لقائنا في مطار عدَن، الذي كاد ألّا ينتهي، لكنّني قبّلتهُ في رأسه وهو جالس.

لم أعرف هل وكيف أعزّيهِ على مقتلِ ابنه، لكن ابتسامة حبي له كانت كافية للتعبير عن كل شيء.

يراقبه الجميع، يحرصون على إحضارِه كل يوم إلى مجلس القات لإخراجه من عزلته المجنونة... بانتظار سماعهِ يصرخُ ويتقيأ كلَّ آلام العالَم، في الخامسة فجراً، عقب أذان صلاة الفجر في جامع العيدروس.

أسئلةٌ داكنةٌ تعصرني بصمت:

لماذا لم يتأثر الحلم بلغة لعلعات الرصاص والقذائف والأسلحة الثقيلة الحديثة، وهي تحصد الأرواح في عدَن وفي كل حروب زمننا الحديث، ويعتمدها وسيلة لقتلِ إسماعيل اليوم، بدلاً من الساطور؟

وكيف استطاعت هذه الأسطورة الجبّارة العاتية أن تفرض على الحلم اختيارَ الساطور، وليس المسدس، دون أدنى اعتبار لِتحوّلات وسائل القتل، وتطورات الصناعات الحربية، منذ ذلك الزمن الذي لم يعد قطعُ

الرأس بعده وسيلةَ القتل الرسمية (قبل أن نتقدّم إلى الماضي أكثر فأكثر، وتعيده "داعش" أخيراً إلى الواجهة، وسيلةً وغايةً في الوقت نفسه)؟

كنتُ صامتاً طوال الوقت أيضاً. ماتتْ في الجميع روح البهجة التي تتفجّر في مجالس القات عادة. أرمق عبد الباري بألم، استحضرُ مجدّداً لقاءنا في المطار قبيل مغادرتي عدن لدراسة طب الأسنانْ في أذربيجانْ...

ثم ألاحظ: تجمعُنا الاثنين، ولو على نحو متعاكس تماماً، قصّةٌ مشتركة: الوحي الإبراهيمي!

أنا إبراهيم في قصة وهمية اخترعتُها لإنقاذ إسماعيلِ افتراضي من بِركةِ طينٍ خلف عمارة.

وهو إبراهيمٌ لم يأت جبريل لمنعهِ من قتل إسماعيلهِ الحقيقي أمام باب المسجد...

أنا لِلَمْلمة إيمانٍ تهشّم تماماً، وهو للتعميدِ الدموي الرسمي في حفلة استعادة إيمانهِ بدينهِ القديم، بعد كفرهِ بدين الماركسية اللينينية الذي اعتنقه منذ هربه من القرية...

يجمعنا هكذا إسماعيلٌ ما، ووحيٌ يربطنا بدِينٍ ما، وعالَمٍ آخرٍ يقحم نفسه في كل أمور عالَمنا الأرضي.

إلهي، ما هذا الحضورُ الكثيفُ الثقيلُ الفاعل، في حياتنا، للوحي وللعالَم الآخر وللأساطير القديمة، إلى هذا الحد التدميريّ الشامل؟

تذكّرتُ إضرابَه عن الطعام، وردَّ والدِه له بأن الكشف والوحي الإلهي لا يأتي إلا في الحلم.

استحضرتُ أيضاً ما قاله لي عبد الباري في مطار عدَن عن حلم والده بمجيء الشيخ نور الدين إلى قريتنا، وقرارِه بعد ذلك جلب الشيخ المريض الذي لا يستطيع المشي، بأي ثمن، ولو على أعناق رتلٍ من حرَاسِهِ وحوارييه، لثمطر السماء ثلاثة أيام، كما حدث فعلاً بالمصادفة (وإن كنّا حينذاك في بداية موسم الأمطار، يلزم التذكير)، ولتتحققَ دعوات وابتهالات أهالي القرية التي لم تتحقق حتى الآن...

"لا يحظى معشر البشر، خارج دائرة الأنبياء، بالوحي إلا في الحلم"، قال الأب لعبد الباري، أثناء اجتماعهما المغلق.

وها هو الكشف الإلهي قد أتاه في الحلم، يطلب منه تقديم ابنِه أضحيةً للّه، وبالساطور أيضاً، كما أتى قبله لإبراهيم عليه السلام.

ألهذا أخذ عبد الباري حلمَهُ على محملِ الجد، كما لو كان تجلياً دقيقاً لإرادة اللّه، ونداءً إلزامياً منه عزّ وجل له بذبحِ ابنه؟

ألمٌ عميقٌ حادٌ يعصرني. وجعٌ تتغلغل جذوره في قاع التاريخ. إلهي، أسألك للمرّة الأخيرة، ما هذا الحضور

التراجيدي الخانق الساحق للعالَم الآخر في حياتنا البائسة القاحلة؟

لم أعد أحكي لأحد قصتي مع الطفل الذي أنقذتُهُ في بِركة طينٍ خلف العمارة، بل شعرتُ بالخجل منها (كتبتُ هذه الجملة لِوحي، باللون الأحمر، كما تفعل هيَ عندما تريد أن تسترعي اهتمامي).

سوقُ الوحيِّ والنبوءات ازدهر كثيراً بعد صدمة 13 يناير، وإثر انكسار المجتمع اليمني بعد هذه الحرب، وفقدانِ كل بوصلة.

ها هي أستاذةٌ جامعيّةٌ للفلسفة، مناضلةٌ عدَنيّةٌ قديرة، ومثقفة ومفكّرة عربية معروفة (طُبِعتْ لها كتب ماركسية شهيرة في بيروت السبعينيات)، تعلنُ، بعد الحرب، أنها أوّل نبية امرأة، وأن محمداً كان خاتم النبيين الرجال، لكننا دخلنا عصر نبوءة النساء. وتطالب رسمياً، وبنشاط منقطع النظير، بالإيمان بها كنبيةٍ ستُخرِجُ العالَم من الظلمات إلى النور!

تقول في مقابلة رسميّةٍ لها: "البشريّة اليوم، شعوباً وجماعات، وصلتْ إلى الاختناق، ولا مخرج إلا الوحي والنبوءة".

"كيف يأتيك الوحي؟"، سألها الصحافي هذا السؤالَ الساحق السحيق.

"هو مثل الرادار، بيني وبين السماء!"، تردّ حضرتها.

إلهي، ما هذه العودة المفاجئة لسوق الوحي والنبوءات في زمن الهندسة الجينية والرادارات وغزو الفضاء والإنترنت والذكاء الاصطناعي؟

كتب عنها رفيقها الشاعر العراقي الكبير سعدي يوسف قصيدة جميلة، هذه بدايتها:

يحلو لثُرَيّا منقوشٍ أن تفعلَ ما لم يفعلْهُ أحدٌ
منذُ القَرنِ الأوّلِ!
قد دخلتْ يوماً عند رئيس اليمنِ الجمهوريّ:
علي عبد الله صالح.
قالت:
إني منذ اليومِ نبيّةُ قومي!
فلْتؤمِنْ بي...
كُنْ أوّلَ مَن يؤمِنُ بي!
قالَ:
ولكنّي حافظُ عهدٍ، مؤتمَنٌ
هل أكفرُ من أجلِ ثريّا منقوشٍ؟
قالت: لن تكفرَ...
إنّ محمّداً الأجملَ قال...
"لا نبيَّ بَعدي".
محمّدٌ الأجملُ ما قال...
"لا نبيّةَ بَعدي".

لم تعقّب وحي بعد على مناشدتي لها بكتابة روايةٍ عن سجن القصر الذي تقبع فيه. تُفكّر في المقترح، كما قالتْ. أنتظر ردّها الإيجابي بأملٍ وحماسة كبيرين.

ستعترف لي حينئذ بأنها أنثى، وسنتغلغل معاً في أسرار القصر وسراديب هذه الحياة الغريبة التي تُبدّدها في ترجمة صفحات "الويكيبيديا"، والتفاعل بالإيميل مع بشرٍ مثلي في أقصى الأرض، حول أسرار لحظات غامضة ذات أهمية مفصلية: تجلّيات الوحي السماوي وأخواتها، وتقاليد الإيمان واللاإيمان بها، وما إلى ذلك من ممارسات زئبقية، وتداعيات حاسمة، ومراجعات وتقلّبات تحدّد وتوجّهُ مسار الذات الإنسانية غالباً.

للتدقيق في فكرة المشروع وتأكيده، أضفتُ لها ما يلي:

> أرجو أن تكون، عزيزي الغالي وحي، قد فكّرتَ مليّاً في مقترحي حول كتابة روايةٍ عن القصر وسجنه، ويوميات عذاباتك فيه، على نحوٍ تخيلي لا يكشفك شخصياً، بل يموّه محيطك كما ينبغي.

لا أودّ كتابتها وحدي. عندما أرى ثراء تفاعلنا معاً، وعمق نصوصك، أقول: من الأفضل أن تكون رواية باسمَينا معاً، وبقلَمينا معاً.

سنضيف إليها ما يلزم من التخيل وإخفاء الاسماء والمكان، حتى لا تخلق لك، كما قلتُ، أي إشكال.

وبإمكان اسمك، في غلاف الرواية، أن يكون بالطبع لقباً تنكرياً. "وحي"، على سبيل المثال. ما أجمل هذه الكلمة!

وأقترح أن يكون عنوان روايتنا "وحي". ما أروعه من عنوان!

بانتظار أن تتحرّرَ من وطأة السجن – أتمنى – وينجلي اسمكَ الحقيقي للعالَم، إذا أحببتَ.

هذه مجرد مقترحات لا غير، بانتظار آرائك لتعديلها كما تحب، علماً بأننا سنتبادل الأفكار حول موضوع الرواية، وطريقة سبكِها الفنيّ، في حواراتنا الثنائية.

المشروع يناسبني جداً، يثيرني، يهمّني، حتى لا أقول لك: لا أفكّر إلا فيه حالياً.

أنتظر رأيك سريعاً، ولاسيّما أنني أودّ، بهذا الإيميل، إنهاء موضوع العتبات الإيمانية، التي سألتني عنها.

في 1988، تعرَّفتُ على زوجتي شُهد. توفّي والدها السوريّ وهي في العاشرة، بمثل عمري تقريباً عندما توفّي والدي.

من لا يعرف جرح وفاة الأب أو الأم، في التاسعة أو العاشرة من العمر، لا يعرف قسوة الحياة.

أمُّها أستاذة فلسفة، تدين لها شُهد بكل شيء تقريباً.

ثقافة شهد، كثقافة ابناء جيلها ممن درسوا في المدارس الابتدائية حتّى الثانوية الفرنسية، نقيّة من أي تأثير ميتافيزيقي أو لاهوتي أو ديني أو غيبي أو أيديولوجي. ثقافة عقلانية حديثة مبنيّة على التساؤل والشك والرفض والبرهان. لا يسمع الطالب في مدرسته هناك كلمة واحدة تحثُّه على الإيمان بإلهٍ، بدِينٍ أو مسيح، أو على عداءِ أي دين كان.

لذلك، لو أخبرَها أحدٌ عندما كانت في سنّي، وأنا أعيش حادث جامع العيدروس في طور الرعد، بأن الحياة بدأت بطرد شاب وشابة جميلين من السماء إلى الأرض، بسبب تفاحة ممنوعة وثعبان ماكر، لاتّصلتْ على نحوٍ عاجل بهاتف رقم 15 (الذي

يَطلب، في فرنسا، سيارةَ الإسعاف الطبي بالمجيء فوراً)، لأنها ستعتبره مصاباً بمرض عقلي.

لكن شهد تندم حالياً، بعد أن درَست الفلسفة وآراء كبار الفلاسفة حول الأديان، أنها لا تعرف تفاصيل قصص هذه الأديان ومسلّماتها، وما تدور في ذهن الإنسان المتديّن من أسئلة، لتستوعب ما يحدث في عالمنا العربي منذ نهاية القرن العشرين، وكل عمليات القتل والحروب الدينية المعاصرة.

تحاول قراءة الكثير عن ذلك، لكنها لا تفهم في العمق كيف يشتغل دماغ المؤمن أو "المواطن المستقر"، أو الظلامي أو الإرهابي المتأسلم فعلاً.

تسألني أحياناً أسئلة دقيقة عن المعتقدات والأساطير الدينية. أجيبها قدر ما أستطيع، أنا ابن القرى الضائعة (في البدء، وفي الأساس) وأركان الشوارع العربية الفقيرة (بعد ذلك)، وإن تطوّرتْ حياتي أخيراً، وصرتُ ابن العالَم.

ماذا أضيف عنها؟

توفّيتْ والدتُها قبيل تعارفنا بأشهر. بعد رحيل أمّها، بدأتْ شهدُ حياةً جديدة لولاها ما ارتبطنا، نحن الاثنين. لها طفلة من زواجها السابق اسمها سناء (تحمله بجدارة).

ما يهمّني، عزيزي وحي، هو اكتشافي بُعداً غريباً لم يخطر ببالي قبل ذلك: بالإمكان أن يوجد بشرٌ في هذا العالَم، عدمُ إيمانِهم الدينيّ نقيٌّ خالص، لا مواربة فيه.

الأعجب: هم أيضاً لا يستوعبون أن هناك بشراً يؤمنون بعالَم آخر، أو يلجؤون إليه مثلي، في لحظةِ انتهازية خاطفة فقط، ثم ينسونه تماماً.

ذات يوم، في أقصى أواخر الثمانينيات، كنّا في طائرة عبرت سماء خليج البنغال، قادمةً من أندونيسيا وماليزيا، باتجاه اليمن.

وفي لحظةٍ ما بدأتْ الطائرة بالاهتزاز بقوة. وأحياناً كنا نشعر أنها تسقط فجأة أمتاراً في فراغ.

مطبّاتٌ غير اعتيادية في مناخٍ مضطرب جداً؟ خللٌ خطير في ماكينة الطائرة يُضاف إلى سوء الطقس الجويّ؟... لا نعرف.

ولْوَلَاتٌ وصلواتٌ وتضرُّعاتٌ وابتهالاتُ السيّداتِ الأندونسيات والماليزيات (في اتجاههنّ إلى دول الخليج للعمل) وهنّ يُرتّلن ما تيسّر من الذكر الحكيم، ترجُّ الطائرة رجّاً كلما ارتفع الشعور الجماعي بالخطر.

يرفعْنَ بأيديهنّ اليُمنى **القرآنَ** عالياً، ثمّ يُقبّلنهُ ويرفعنهُ من جديد، بحركةٍ جماعية مشتركة

متواترة غريبة، كما لو كنّ في مسيرات شعبية ثورية أو استعراضٍ فنيّ.

تهتزّ أوصالهنّ ويسردن ما يحفظنه عالياً، أو يقرأن ما تيسّر من الذكر الحكيم، من المصحف الكريم مباشرة.

يخاطبن سماء خليج البنغال المخيفة، من نوافذ الطائرة التي تلمع حولها بروقٌ وصواعق تهزّ القلوب الضعيفة.

القلق على أعينهن يفجع القلب.

أما القلق الذي بدا فجأة على مضيّفات الطائرة، فهو المخيف حقاً وبشدّة، لأنهن حافظن طويلاً على هدوئهن المصطنع لتطمين الجميع، وعلى ابتسامةٍ أكثر أو أقلّ تمويهاً.

أما الآن، فيبدو أن الخطر الحقيقي مدلهِمٌّ فعلاً، يحوم حول طائرةٍ سكرانة، تتأرجح بين الأمواج الهائجة لهذا المحيط السماوي المستعر، ولاسيّما أن سقوطاً آخر، أفظع مما سبق، في مطبّ هوائي جديد، أشبه بهاوية، جعل الجميع يشهق في الوقت نفسه شهقةً مشتركةً مدويّةً واحدة، كما لو كنا على حافة الموت.

"يا ساتر"، كنتُ أردِّد بصمت!

لم أرتجف وأخف في حياتي كما في تلك الدقائق التي مرّت طويلة لا نهائية. كنت واثقاً من الموت هذه المرّة لا محالة.

لم تعرف شهدُ بالطبع أن ثمّة تغيّرات مناخية مضطربة حادّة في جوفي أيضاً: أوبرات من الأدعية الربانيّة وجوقات من الآيات القرآنية تتسارع وتتلاطم وتتزاحم في وجداني بتركيزٍ وصمتٍ وسريّة.

كانت شهد أكثر من التهمَها الخوفُ في الطائرة، ولا شك، خوفٌ أزرق لا يشبه خوفَ بقية الركاب: صامتٌ، عميقٌ، كليّ... تغيّر لونُها.

رعبٌ من طراز جديد. لم أرَ هذا النوع من الرعب على قسماتها سابقاً، أو على إنسانٍ آخر، في كلِّ حياتي.

لكنه كان نظيفاً، لم تتسلّل فيه أي خاطرة دينية، بل كانت شهد مستغربةً مما تراه حولها، لا تفهم شيئاً من الضجيج المحيط الذي يمنعها من التفكير المركّز ونحن على بعد ثوانٍ من انتصار الفناء والعدَم.

التصقت شهد بي حال ازدياد هولِ المطبات. التصاقٌ توحديٌّ كلّي. بل اندماجٌ عنفواني، بسبب الخوف، أكثر مما هو التصاق.

تنظر بعجب، لا تستوعب ما يدور في الطائرة التي تحوّلتْ إلى "مولدٍ ديني" صارخ.

تفقد هدوءها، تتمتم برعب: "ما هذا الضجيج؟ ما هذا الجنون والمهزلة؟ سيُربِكنَ المضيفات وطاقم الطائرة".

أراقب شُهدَ بدقّة. خوفُها يتفاقم في كل ثانية. تُدهشها وتثير توترَها مع ذلك هذه الجماهير التي ترنو إلى الرحمة الإلهية، تلتصق بإلهٍ بعيد مثل التصاق شُهد بي. ترجو النجاةَ وتتوسّلها بِلغةٍ لا تستوعبها شُهد. لا تؤمن بها إطلاقاً.

تتمنّى فيلسوفتي الصغيرة، ربما، لو كانت تستطيع أن تكون ضمن هذا القطيع الطيّب الذي يعرف كيف يبدّد خوفه ببساطة. من يدري؟!

تراقبه وهو في اتصالٍ حميمي مباشر مع عالَم آخر. تحسدهُ، من يدري؟!

ثمّ ازداد الخطر بجد: سمعنا، إثر سقوطٍ جديدٍ مفاجئ وطويلٍ هذه المرّة في مطبٍّ هوائي عميقٍ آخر، صرخةً عفوية من مضيّفةٍ قريبة، اضطرب الجميع عند سماعها.

بدأتْ لذلك ساعة التشهيد والتكبير الجماعية.

عزرائيل (مُنهي اللذات ومفرّق الجماعات) يفرك يديه داخل الطائرة، يغمز ويقهقه ساخراً في وجهِ

من دهمه إيمان الطوارئ مثلي، وصار مؤمناً بين ثانيةٍ وضحاها.

يلفُّ ويدور شاحذاً ساطوره، مشمّراً أكمامه، استعداداً للحصاد.

تضاعفتْ تضرّعاتي الصامتة، وتعاظمَ خوفي، ووعدتُ ربَّ السموات والأرض ألفَ وعدٍ بالتوبة (لا أدري لماذا) وتوسّلتهُ ألفَ توسُّلٍ الغفرانَ (لا أدري على ماذا)، أنا الذي كنتُ متحفّظاً حول فرضية وجود جلّ جلاله، هو نفسه، طوال سنين!

شعرَتْ شهد أن الخطر محلّقٌ فعلاً.

زاد خوفها. حاولَتْ تهدئة نفسها بالالتصاق بي أكثر، وبِاستفسارات قلقة حول كلِّ شيءٍ ولا شيء.

أحاول تطمينها بلا جدوى: لم أكن مقتنِعاً ولا مُقنِعاً.

ثم أخذَتْ قلماً وورقة، وبدأتْ تكتب، بتركيز شديد، لابنتها سناء، رسالة وداعٍ حزينة مؤثرة، تتفجّر كلماتها عشقاً وألماً على فراقها، ممزوجة بتأملات فلسفية حول الحياة والمصادفة، بأسلوب أستاذةٍ فلسفةٍ شابة موهوبة درست في مدرسة نخبة النخبة الفرنسية، وتريد أن تترك لابنتها والعالَم أجمل الكلمات الأخيرة، و"نحن على بُعدِ شبرٍ من العَدَم"، كما قالتْ.

كلماتٌ صافيةٌ لِوداعٍ أخير، كنتُ أرمق بعض أحرفها، مفتوناً بنقاءِ وجمالِ أسلوبِها، بين خمسين دعاء أرتِّلها بصمت.

لم أرَ في رسالتها بالطبع أي حديث عن قضاء وقدَر، أو أي دعاء ديني، أو أي إيمانٍ طارئ يتسلَل من قريب أو بعيد إلى دماغها في الربع الأخير من الثانية.

تتأفّف شُهد، بين كل جملتين، امتعاضاً من هذا "الصراخ الجنائزي العبثي" للركّاب، كما تقول، "كأنّ رجّات الطائرة لا تكفي".

يمنعها من التركيز والهرب، بين أسطر رسالتها، بعيداً عن رعشات الموكب الجنائزي، وعن سونات نفخِ ناقور عزرائيل، وهو يزمجر ويرجّ نوافذ السماء وأعصاب رُكّاب الطائرة.

هدأتْ الطائرة قليلاً قبل أن تُنهي شهدُ رسالتها. وقلّ اندفاع أدعيتي الدينية على إيقاع استعادةِ جأشي...

تركَ هذا الحادثُ شيئاً عميقاً في نفسي: رؤيةُ خوف شُهد الجبار، غير الانتهازي، النقي جداً، أصابني قليلاً بِعدْواهُ المباركة.

خلخلَ، رويداً رويداً، مع مرّ الزمن، مداميك علاقتي الانتهازية بصلوات وابتهالات التديّن

النفعي، وإيمان الطوارئ.

جفّفَ منابعها قليلاً، أصابها بقليل من الشحوب والضمور والانكماش.

لكنهُ – ويحي! – لم يقطعها كلية، عليّ أن اعترف بخجل، عزيزي وحي!

تستأنفُ وحي حوارنا حول "الدنمتة" دون أن تردّ بعد على مقترحي حول نصّنا الروائي المشترك.

عليّ أن أنتظر، إذن، وأستمرَّ في التفاعل، من موقع المجيبِ عن أسئلتها، وليس من موقع المبادِر والموجِّه لسؤال:

أعود إلى حيث توقفنا حول رأيي بـ"الدَنمتة" ورأيك بالحلول الناعمة، أستاذي الحبيب. كيف يمكنك نشر الأفكار والقيم الجديدة التي تقود إلى العقلانية وروح الجدل، في شِعاب ثقافةٍ انقطع في جبينها عِرق الشك؟

لاحظ أن الدليل الوحيد في ثقافتنا على صحة وجود الوحي ما قاله ابن هشام: "قال ابن اسحاق: وحدّثني ابن حكيم مولى آل زبير أنه حدّث عن خديجة رضي الله عنها أنها قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أي ابن عم، أتستطيع أن تخبرني بصاحبك هذا الذي يأتيك إذا جاءك؟ قال: نعم. قالت: فإذا جاءك فأخبرني به.

فجاءه جبريل عليه السلام كما كان يصنع. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا خديجة، هذا

جبريل قد جاءني. قالت: قم يا بن عم، فاجلس على فخذي اليسرى. فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس عليها. قالت: هل تراه؟ قال: نعم. قالت: فتحول، فاجلس على فخذي اليمنى. فتحول رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس على فخذها اليمنى. قالت: هل تراه؟ قال: نعم. قالت: فاتحول، فاجلس في حجري. فتحول رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس في حجرها. قالت: هل تراه؟ قال: نعم. قال: فتحسرت وألقت خمارها ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في حجرها. قالت: هل تراه؟ قال: لا. قالت: يا بن عم، اثبت وأبشر، فوالله إنه لملَكٌ وما هذا بشيطان".

الأجمل، في هذه الحكاية، أن الشك من حقيقة الوحي مسَّ خديجة نفسها. لكن، لِنعترفْ: الفخ، الذي اخترعتْهُ للتأكد من مجيء جبريل، طفوليٌّ، يثير الضحك!

لماذا لا يسمحون لنا على الأقل بإطلاق هذا السؤال فقط: ماذا لو كان الوحي وهماً تاريخياً، أبَ الأوهام، فيما استطاع فلاسفتنا في الماضي التعبير عن أكثر من شكٍّ رافض، دون خوف من أحد، ودون رقيبٍ أو عتيد.

أنظر أبا العلاء عندما قال:

ولا تحسبْ مقال الرُّسلِ حقاً

ولكن قولَ زورٍ لفَّقوهُ

وكان الناسُ في عيشٍ رغيدٍ

فجاؤوا بالمحالِ فكدَّروهُ

اسمح لي، أستاذي العزيز، أن أقول دون أن تفقد أعصابك: من يستطيع أن يجعلك تصدق الهراء، يستطيع أن يجعلك تُمارس الشناعة. من يؤمن بالوحي يعتقد أنه ورث الحق، ولا يجيد التفكير الحر.

وبالنسبة إلى الكهنة: يكفي جعلُ الناس تؤمن بالوحي. ما تبقّى من خضوعٍ وتبعيّةٍ وإيمانٍ أعمى يأتي لحالهِ بعد ذلك آلياً.

بالنسبة إليهم: الحقيقة هي ما يؤمن أغلب الناس به، وليست الحقيقة الواقعية. والمسلَّمة الإيمانية أكثر فعالية من الحقيقة العقلانية. والبسيط غير الصحيح (كهذه القصة في سيرة ابن هشام، ومعظم السرد التاريخي الديني والمسلمات الغيبية) أفضل من المعقَّدِ الصحيحِ (كالتفكير العقلاني وبرهنة الحقائق).

إذا ما زلتَ ترى رأيي تشنّجاً وتطرفاً، عزيزي وأستاذي الغالي، فاشرح لي كيف نتعامل مع قصةِ

كهذه جعلَت هيكلَ كل ثقافتنا السائدة مؤسساً على فرضية اسمها جبريل؟

وكيف نجعل الناس تعيد النظر في إيمانها الحَرْفي بقصة كهذه، كدليلٍ رسميّ على هبوط جبريل والحقيقة في جعبته، كي نوقف تأثير نتائجها: سبات العقل وموته في عالَمنا العربي؟

وكيف الحديث مع بشر يعتبر قصَةً كهذه حقيقةً تاريخية؟

رددتُ مرتبكاً:

عزيزي وحي، لنترك كلمات النسف والتهشيم جانباً. لا ينفع ذلك كما قلتُ مراراً، إن لم يكن دليل عجزٍ وعداءٍ للحرية.

يفضَّلُ تعليم الناس قراءة هذه القصص، ومثيلاتها، على نحو مجازي، كميثولوجيا وليس كتاريخ. يكفي ذلك. عندما نتعلم المستويات المختلفة لقراءة النصوص، ونفصلُ بين التاريخ الديني والتاريخ العلمي، فسنسير في الاتجاه الصحيح.

هذا ما نحتاجه فقط.

شخصياً، أحب قراءةَ هذه القصة الممتعة اللذيذة، كميثولوجيا طبعاً.

ابن هشام وحده ميثولوجيا بحجم وطن!

وأحب قراءة هذه القصة لابن هشام أيضاً، التي لا تقلّ عنها جذباً:

"قال ابن اسحاق: وحدّثني ثور بن يزيد عن بعض أهل العِلم، ولا أحسبه إلا خالد بن معدان الكلاعي، أن نفراً من أصحاب رسول الله قالوا له: أخبرنا عن نفسك. قال: نعم، أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى أخي عيسى، ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نورٌ أضاء لها قصور الشام، واسترضعتُ في بني سعد بن بكر، فبينما أنا مع أخٍ لي خلف بيوتنا نرعي بهما لنا، إذ أتاني رجلان عليهما ثيابٌ بيض بِطستٍ من ذهب مملوءة ثلجاً، ثم أخذاني فشقّا بطني، واستخرجا قلبي فشقّاه، فاستخرجا منه علقةً سوداء فطرحاها، ثم غسلا قلبي وبطني بذلك الثلج فأنقياه، ثم قال أحدهما لصاحبه: زنه بعشرة من أمّته، فوزنني بهم فوزنتهم، ثم قال: زنه بألفٍ من أمّته، فوزنني بهم فوزنتهم، ثم قال: دعهُ عنك، فوالله لو وزنته بأمّته لوزنها".

بالطبع، القراءة الحرفية لقصة استخراج قلب الرسول محمد، كما سردها ابن هشام هنا، غير مبرّرة بكلّ بساطة، إن لم تكن غبيّة.

لكن القراءة المجازية لها تختلف تماماً: ممتعة ولذيذة جداً أيضاً.

القصتان معاً يُكثّفهما بيتا شعر، أحبّهما شخصياً، كميثولوجيا طبعاً، وكقوافٍ طائيّة بديعة أيضاً:

من ذا الذي ما ساء قطْ؟

ومن له الحسنى فقطْ؟

محمد الهادي الذي

عليه جبريلُ هبطْ

ثم، نحن بحاجة دوماً إلى القراءة المجازية للميثولوجيا، وإلى التفاعل العميق معها دوماً، وليس التحسّس منها، ومنعها ونسفها وتهشيمها ودنمنتها، كما تقول باستمرار "لأفقدَ أعصابي" (دون الميثولوجيا سنتحوّل، عزيزي وحي، إلى روبوتات).

لمقاربة الردّ على سؤالك: ما يحلو، عزيزي الغالي وحي، هو نشر قراءات فلسفية راقية لكل هذه الظواهر، قادت إلى عصر الأنوار والحداثة، كهذه القراءة العميقة لسبينوزا في كتابه **رسالة في اللاهوت والسياسة**:

"يدرك النبي الوحي بمخيلته، أي بالكلمات والصور الذهنية صادقة أم كاذبة. لذلك تجاوز الأنبياء معرفة الأشياء بالحدود العقلية، وعبروا

عنها بالرموز والأمثلة، كما عبروا عن الحقائق الروحية بالتشبيهات الحسية، وهو الأسلوب المتفق مع طبيعة الخيال. ولما كان الخيال غامضاً متقلباً، ظهرت النبوءة عند بعض الناس على فترات متباعدة في حياتهم. لم يكن للأنبياء فكر أكمل، بل خيال أخصب.

ويتكّيف الوحي وفق خيال الأنبياء وقدراتهم كما تكيف بعد ذلك وفق معتقدات الحواريين والدعاة وأساليبهم في نشر الدعوة.

يختلف الأنبياء فيما بينهم طبقاً لخيالهم وطبعهم ومعتقداتهم وآرائهم، فالنبي الفرح توحي إليه الحقائق بحوادث سعيدة، والنبي الحزين تؤيده آيات حزينة. والنبي ذو الخيال المرهف توحى إليه الأشياء بصورة ناعمة رقيقة، والنبي الريفي يوحى إليه بصورة ريفية، والنبي الجندي يوحى إليه بصورة عسكرية، والنبي رجل البلاط يوحى إليه بصورة ملكية. ويختلف الأنبياء فيما بينهم وفقاً لمعتقداتهم في السحر والتنجيم".

يقول سبينوزا هنا إن للأنبياء "خيال أخصب".

لعل تماهيهم النفسي، عزيزي وحي، مع بنات خيالهم خارق أيضاً. هل تتذكّر هذه المعادلة:

إسقاط تخيليٌ خصب + تماهٍ نفسيٌ حاد = حقيقة دامغة!

وفق علماء عصبونات الدماغ هناك في كل إنسان تقاطع في مساحات عصبونات الدماغ الخاصة بالشعور الحقيقي (بالألم مثلاً)، مع مساحات التماهي مع ذلك الشعور.

لذلك نشعر بالألم عندما نرى في فيلمٍ سينمائي مناظر قتلٍ مثلاً، ونشعر بالخوف عندما نرى على الشاشة إنساناً على حافة السقوط من جُرفٍ جبليٍ إلى هاوية.

لكن مساحات تقاطع هذه المناطق المشتركة في الدماغ، لدى البعض من الناس، كبيرة جداً، لدرجة أنه عند تماهيهم مع شعورٍ ما، يصير لديهم إحساسٌ حقيقيٌ به، كأنما عاشوه فعلاً: عندما يرون في خيالهم كائناً ما كان، يبدو لهم أنهم رأوه حقاً في الواقع فعلاً.

لا فرق بين من يتخيَلونه يأتي إليهم، ومن يأتي إليهم في الواقع.

لأعُد الآن، عزيزي وحي، إلى منبع حاجتِك إلى الصدام الجبهوي كما يبدو لي (وليس النشر الناعم للقيم الجديدة النابعة من الإقناع الفكري).

لعل سببه الاستبداد الذي تعيشه في القصر، وهو الذي لا أعرف تفاصيله.

قد أكون مخطئاً بالطبع. لكن، في كل الأحوال: ليس سببه الإفلاس الفكري والأخلاقي، لأنك مثقف نابغة، وسيّد المهذّبين، بالتأكيد.

على العموم، يُسبِّب لي ألماً كبيراً ما تحياه من عذاباتٍ، عزيزي. إن لم يوشك أن يتحوّل إلى كابوس، في غياب شرحك وتفصيلك يومياتك في السجن، وفي غياب ردّك حول مشروع روايتنا المشتركة التي سأحاول أن تكون مرتع تفاعلٍ حيٍّ مثمرٍ عميق، ولحظةَ "كاتارسيس": تطهيرٍ نفسيٍّ حميد.

إيميل ردّ سريع من وحي سقط عليّ كلَكمةٍ مفاجئة:

ماذا يمثّل النبي محمد، بالنسبة إليك، إذن؟

أحبّه كثيراً، وعلى نحو لا تتصوّره، مع أنني أنتظر معرفة تفاصيل سيرته الحقيقية من التاريخ العلمي، لا من التاريخ الديني.

لا أؤمن بمعظم السيرة الخرافية التي يقدّمها التاريخُ الديني عنه، والتي كتبها كهنةٌ، بعد عدة عقود، أو أكثر من قرنين أحياناً من زمنه.

ولا أؤمن بمعظم السيرة الإنكارية المضادة أيضاً. صحيح أنه كان قائداً في الأصل، له مشروع

بناء إمبراطورية عربية، في سياق تاريخي كانت فيه الإمبراطوريات الأجنبية المحيطة (بالجزيرة العربية) مخلخلة مهشّمة حتى العظم، بسبب حروبها الثنائية والداخلية، وبسبب وباء الطاعون الأسود الذي فتك بها، والذي لم يخترق الصحراء باتجاه سكان جزيرة العرب، لحسن الحظ، صحيح أنه أسّس مداميك هذه الإمبراطورية الغازية الجديدة التي نجحت فتوحاتها شرقاً وغرباً على نحو قياسي خارق، لكنني لا أقبل أيضاً ما يقوله بعض المؤدلجين: هو، في الأساس، ابن حاجة الإمبراطورية الجديدة إلى خلق هويّة دينية، منافسةٍ للنصرانية واليهودية، جامعةٍ لكلّ السكان بيدٍ من حديد، وبأوامر سماوية يخضعون لها جميعاً.

أي: معظم سيرته الدينية كنبيّ يقود أمَّة كتبها فقهاء الإمبراطورية الناشئة. ألّفوا معظم **القرآن** والأحاديث خلال أكثر من قرنين، قبل أن تبلغ صيغتها النهائية فعلاً.

عزيزي وحي: لا أؤمن بهذا النفي المتطرّف، وأرفضه أيضاً.

أحبّ النبي محمد بكل بساطة، لأن من كان نواةَ حِراكٍ أنجبَ يوماً قمماً للحضارة الإنسانية، بهذه

الروعة والعظمة، كالخوارزمي، أبي العلاء المعري، ابن هيثم، عمر الخيام، ابن رشد، الجاحظ، ابن الهيثم، ابن عربي، ابن خلدون، الرازي، الكندي، الفارابي، صلاح الدين الأيوبي... لا يمكنه إلا أن يكون عبقرياً مبدعاً.

حضارة أعطتْ للعالَم: بيت الحكمة ببغداد، **ألف ليلة وليلة**، **رسالة الغفران**، **اللزوميات**، **كتاب الجبر والمقابلة**، **رباعيات الخيَام**، جدلُ **تهافت الفلاسفة** و**تهافت التهافت** بين الغزالي وابن رشد (وإن انتهى لمصلحة "الغَزْولة")، وقافلة شعراء عظام من المتنبي وأبي نواس شرقاً إلى شعراء الأندلس غرباً...

يكفيه مجداً أنه نهض مستقِلّا عن مصالح القوى العظمى البيزنطية والفارسية وصراعاتها، رافعًا إلى السطح قوىً شتّتتْها أوثانُها ودياناتُها المختلفة، وهمّشتها الأقطابُ الجيوسياسية السائدة.

ناهيك عن أنه راعٍ يتيم، آتٍ من أصولٍ متواضعة!

ما حدث من خراب في حياتنا اليوم نحن سببه: لم نواصل تطوير أنفسنا بما ينسجم وحركة الزمن، وعصر الحداثة اليوم.

لا يوقف وحيَ وأسئلتَها أيُّ رقيبٍ أو عتيد.
تدهمني بعد ذلك بهذا السؤال:
وماذا يعني مفهوم الله لك؟
رددتُ بهدوء:
أعشقه عشقاً. ليس كإلهِ "داعش" والكهنة طبعاً، ولكن كعكسه النموذجي.

هو، بالنسبة إلي، تلك النافورة المقدسة التي تُعلِّم الإنسان عشق الحريّة، حب الحياة وخوضها شغفاً ونضالاً من أجل السعادة الإنسانية، وجمال الفضيلة (كغاية بحدّ ذاتها، وليست كصكوك حسنات).

هو البعد الأخلاقي النبيل المطلَق الذي يحثُّني بضراوة على رفض الاستبداد والقهر والتعذيب، على مقاومة الطغيان ومواجهة الديكتاتورية وأنظمة الحكم التوريثية، على الدفاع عن الإنسان وحبِّه ولو كان عدواً.

هو هذا الصوت الأجلَ الذي يدعونا يومياً للحفاظ على البيئة، ولمقاومة قُصر النظر الإنساني وأنانية قوى المال وهي تخلّ بالمنظومة الطبيعية لِكرتنا الأرضية، تنتهكها وتقود كوكبَنا الأزرق إلى حافة الهاوية.

هو الزاجر الأخلاقي العظيم الذي يردعني عن قبول تبرير الانتقامات، وعن الموافقة على أحكام الإعدام، مهما كانت جريمة مرتكِبها.

هو الضوء الأعظم والأسمى الذي يذكِّرني في كل لحظة أن "لا إمام سوى العقل".

هو المنقذ الأخلاقي الحميد الذي ألجأ إليه عندما أشعر بالرغبة المشبوهة بالكذب، بالأنانية، بالقلق، بالغيرة والحسد، بالخوف من قوّة لا أستطيع مقاومتها...

كطائرةٍ توشك أن تهرول، أو تكترع؟

علّقتْ وحيٌ ساخرةً أو مازحةً، لا أعرف.

نعم

أجبتُ، وأمري لله!

منذ العودة من إجازة الخريف في أرخبيل غلاباغوس إلى اليمن وحياتي من اضطرابٍ إلى اضطراب.

لم يُسعد شُهد كثيراً رمقي "الزايد على اللزوم" لشاشة هاتفي الجوّال خلال الإجازة، وتشتُّتي الذهني، وخروجي الفجريّ المتواتر، المشكوك فيه، إلى الشاطئ لتصوير أسُود البحر. وابتعادي عموماً عن عادات حياتنا التي تلخِّصها دوماً جملة واحدة: "أنا من أهوى، ومن أهوى أنا".

لا تقبل شُهدُ غير الحياة التوحديّة الكثيفة التي يهبُ خلالها كلُّ واحدٍ، في كل ثانيةٍ، كلَّ شيء للآخر.

لم تقرأ شُهدُ **القرآنَ**، هي التي تعرف كل حذافير كتابات مفكِّرِي وفلاسفة قرن الأنوار (القرن 18) في فرنسا. لو قرأتْهُ، لكانت آيتُها المفضّلة بلا شك: {مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ}.

أكثر ما يخيفني: لم تقترح بعد، ونحن في بداية ديسمبر 2017، أين سنقضي إجازة رأس السنة التي تحبّ عادة أن تكون في أحضان بلدانٍ ساخنةِ المياه، ثريّةِ التاريخ، نستمِدّ منها طاقة جسديّة وروحيّة هائلة لمواجهة الشتاء والأرواح الباردة.

مراراً كنا قد قضّيناها في فيتنام وتايلندا وكمبوديا، وفي أفريقيا، دون الحديث عن رؤوس السنوات التي طالما كنّا فيها نسبح في الثانية عشرة ليلاً في بحر عدَن (حرارة الماء 25 درجة، في منتصف الليل!)، أو في الخوخة في تهامة على شواطئ البحر الأحمر، الساحرة أيضاً.

اليمن مستحيلٌ بالطبع، منذ أعوام، بسبب حروبه الداخلية والخارجية المتوازية، وخرابه المستأصل الذي يواصل استفحالَه بنجاحٍ منقطع النظير. أما بقيّة دول العالم، فلا ألاحظ من شُهد أي رغبة حثيثة للتوجّه إليها في رأس هذا العام.

يخيفني ذلك. سنبدّده معاً في باريس. لكنها لن تكون سعيدة في أسابيع بدء العام الجديد، إن لم نكن في رأسهِ قد عشنا في تخوم الشمس، وعُمنا بعيداً، وتمرّغنا مشياً في أرجاء وأطراف المدن، وطرنا تسلّقاً في القمم والأعالي.

ما أخشاهُ أكثر: بإمكان شُهد، التي لا تقبل أعراض "مرضِ الأفول الغراميّ"، الاستقالةَ مني.

ذلك يعني بالنسبة إلي: الموت الحقيقي. فأنا (الذي لا أخشى الموت البيولوجي، وأرى معظم الأحياء أمواتاً في الحقيقة، في حين أن بعض الموتى فقط يحتضنون

الخلود والأبدية بقبضة يد) أعتبر الموت الحقيقي، الذي يسحق الحياة بالضربة القاضية: موت عشقٍ كبير.

يقشعرّ قلبي من مجرّد تصوّر فرضية ذلك.

والنضال ضد الانفصال من معشوقة العمر، ملاكِ الملائكة، سيكون حينئذ بالطبع أهمّ الأهداف المقدّسة في حياتي، تلك التي خُضتُها أو التي يمكن أن أخوضها...

للبقاءِ في ملكوت شُهدي مستعدٌّ أن أرمي بهاتفي الجوّال في أعماق المحيط الهادي، وأن أقود منظّمة إرهابية لإحراق كل الهواتف الجوّالة في كلِّ أنحاء العالَم.

منذ العودة من إجازة الخريف، لم أتقدّم خطوة في مشاريعي السردية مع وحي: لم ترد بعد، منذ 4 أسابيع، على مقترحي بكتابة روايتنا المشتركة. تشغلني ليل نهار هذه الفتاة، أو السيّدة، التي قشّرتْ دماغي، وقرأتْ نصوصي، وتناقشت معي بإسهاب وباختلافٍ في الآراء أحياناً. واستنطقتني في تفاصيل عميقة كانت، لولاها، ستموت معي، دون أن ترى لوحة مفاتيح كمبيوتر.

ثمّ لا أدري لماذا تعلّقتُ بهذه الشخصية الافتراضية، بكل هذا الشغف الحقيقي العنيف. وما مصير هذه العلاقة الجامحة التي لا أستطيع الفكاكَ منها.

أعرِفُ نفسي: في لحظةٍ ما سأسافر لزيارة كل المدن المهمة في شبه جزيرتنا العربية الحبيبة، سأقترح لوحيَ مواعيد محدَدة في متاحف أو مكتبات عامة في: صلالة، مسقط، دبي، الشارقة، الدوحة، أبو ظبي، الرياض، جدّة، المنامة، الكويت...

سأضعُها أمام الأمر الواقع: لقاءٌ خاطف فقط، هو كلّ ما أريده. تحيّةٌ ومصافحةُ يدٍ للتعارف، لا غير.

يستحيل، في دَيْدني ودِيني، بعد كل هذه التفاعلات، والود الدافئ جداً الذي غمر مراسلاتنا، والبوح العميق، والأبواب المفتوحة على المجهول، ألّا أراها ولو هنيهات... يستحيل ذلك.

ثمّ تفاصيل حياتها تشغلني حقاً. لا يمكنني ألّا أعرف أسرار القصر الإمبراطوري الذي تعيش فيه، وما يدور فيه من منكر: ثمّة مادةٌ خام روائية يحلم كل كاتب أن يضع يده عليها.

ربما ستأتي وحي في أحد هذه المواعيد. وقد تقترح أيضاً تغيير المكان والزمان بما يناسبها، بعد أن أكون قد قطعتُ المسافات من أجلها، وبرهنتُ لها عزمي زيارة ديارِها ورؤيتِها، أينما كانت في شبه جزيرتنا العربية.

وربما ستتوقف علاقتُنا كليّة بعد ذلك، إن لم تجب على مقترحاتي على نحوٍ أو آخر، أو إن لم نتقدّم خطوة واحدة، بعد زيارتي الشاملة إلى أهم مدن دول الخليج

العربي، لأنني سأكون متأكداً بعدها أن من كتب سيرتي في "الويكيبيديا"، وردَ على رسائلي بشغفٍ وفراسةٍ ومهارةِ مايسترو، أشبهُ بروبوتٍ لا غير، أو حالةٌ إنسانية معقّدة نادرة لا أمل منها، أو مواطنة تسكن في كوكب "مايا"...

بانتظار ذلك، يلزمني إكمالُ ما تبحث عنه وحي من يوميات العلاقة بالإيمان، وموافاتها بمصائر من تحدّثتُ عنهم: قهّاروف مثلاً.

بالتأكيد، بادئ ذي بدء، واقع "بلد الإيمان والحكمة" في مطلع ديسمبر 2017 الذي سأكتب منه لها، وأنا أصطلي في جحيمه إيميلاً تتكثّف فيه كل أحزان ومرارات وخيبات العالَم، لِتقارنَهُ بيَمن 19<86، ولتكتملَ لديها الصورة:

> كنتُ قد قلتُ لكَ، عزيزي الغالي وحي، إن اليمن عرف ازدهار النبوءات بعد حرب يناير 1986: الوحي الإبراهيمي الذي نزل على عبد الباري لِقتلِ ابنِه، السيّدةُ العزيزة التي كتب عن نبؤتِها الشاعر سعدي يوسف قصيدته الجميلة، وغيرهما كثيرون.

أمّا اليوم، في معمعان هذه الحرب الجديدة الطاحنة التي فاقت سابقاتها فداحةً وتدميراً وبشاعات، والتي لم تنتهِ حتى اليوم منذ بدأتْ

يوم 21 سبتمبر 2014: ازدهرتْ أسواق "المهادي المنتظرين".

صار لكل مدينة يمنية تقريباً "مهدي منتظر"، له موقع على الإنترنت، ومتابعون مؤمنون به إيمانَ أبو بكر الصديق بالنبي محمد، ومجلسَ قاتٍ يوميٍّ يذهب كثيرون إلى "تخزين" القات فيه، يُسبِّحون بجلال مهديهم المنتظر ويُقدِّسونه. وينسون أن مهمَته التاريخية اقتلاعُ المسيخ الدجال من الأرض والتحضير لبدء أعمال يوم القيامة، وليس "البَخْشَمَة": نفخ الخدّ بِكُرةٍ رخوةٍ تتلألؤ من أعلى الأذن إلى أسفل الرقبة، والتنظير والتكييف والتخدير والتحليق بعيداً، في أوج دوخة القات، خلال ما تُسمّى "الساعة السليمانية".

لا أدري لماذا عشنا بعد حرب 1986 وباء الوحي والنبوءات، فيما الآن، في معمعان هذه الحرب الأخيرة، نعيش وباء الوحي والمهادي المنتظرين.

ألئنّ الحرب الأولى كانت ابنةَ ثقافة "العنف الثوري المنظّم" ("عنف، بالعنف، لولا العنف الإقطاع ما مات")، و"الإنسان الجديد"؟

أما الثانية، فابنة ثقافة الأكفان وازدهار القبور وإبادة الذات، وزوال العالَم.

قلتُ لها في إيميلي:

ثمّة، عزيزي الغالي وحي، شيءٌ يجمع وباء النبوءات (قبل بضعة عقود)، بوباء المهادي المنتظرين (اليوم): الوحي.

الأول وحيٌ نبويٌ لتغيير العالَم وبدء حياةٍ جديدة، والثاني وحيٌ جنائزيٌ في بلدٍ تحوّلَ مقبرةً جماعية، لم يعد ينتظر أهلُه غير نهاية الحياة على الأرض.

بين هاتين الحربين، توالى عدد كبير من الحروب اليمنية – اليمنية. بدءاً بحرب 1994 التي دامت عدة أشهر، وأرستْ الظلامية والسلفية في كل اليمن. تحالفَ فيها الطاغية وقبائله مع السلفيين وإرهابيي "القاعدة" لغزو الجنوب وإركاعه والقضاء على كل رموز التقدّم والمدنية فيه: من وضع المرأة والتعليم التنويري، إلى التقاليد الإدارية المدنية والقوانين الحديثة كقانون الأسرة، مروراً بمصنع البيرة: صيرة!

ثم حروب صعدة الستّة، في مطلع الألفية الحالية، التي خاضها الطاغية ظلماً وبهتاناً ضد سكّان صعدة (ذوي الانتماء الطائفي "الشيعي").

ثمّ ثورة ربيع الشباب في فبراير 2011 التي بدأت أروع بداية، وفتحت كل الأبواب للحلم

والتغيير، قبل فشلها الصاعق بعد انضمام جزء من الجيش إليها، وتحوّلِها إلى صراع عسكري، بين جناحين متضاربين على السلطة، كانوا جميعاً في خدمة الطاغية، واختلفوا في الأساس فقط حول الموقف من عزمِهِ توريثَ الحكم لابنه.

تحالفَ بعدها، من باب الانتقام، مع من خاض ضدّهم الحرب في صعدة، للانقلاب على نائبِهِ (أحدِ رموز "الزمرة" سابقاً، وتلميذِه الأوّل في فن الحكمِ البائسِ الفاسد، منذ أكثر من عقدين).

3 سنوات تقريباً منذ بدأت هذه الحرب الكارثية الجديدة، والطويلة جداً. الأكثر طائفية وشناعة واستنزافاً وتمزيقاً لليمن، من طرفهِ إلى طرفِه.

نتيجتها: اليمن بلدٌ ينتحر ببطء، يتخثّر بثبات.

حروبُه المتعددة، منذ "حرب ترموست الشاي" في 1986، تزداد تقارباً وطولاً وتدميراً. الأخيرةُ أبشعها إطلاقاً: خلطةٌ طائفيةٌ دينيّةٌ انتقاميةٌ يهيمن عليها الطابع المذهبي، بوجهيهِ الشيعيّ والسنيّ المتطرّفين، بأشكالهما الحوثية والسلفية والداعشية.

يختلف الطرفان فقط في شعاراتهما الكهنوتية القادمة من دهرٍ غابر: فرضُ الولاية لآيةِ الله: "وريثِ البطنين" وأخي "القرآن الناطق" في هذا

الطرف، والحربُ ضد "المجوسية" وطردُ قادتِها إلى الكهوف التي جاؤوا منها في الطرف الآخر.

ويتماثلان تماماً في الظلامية والعنف والعنصرية، وفي ترديد "الله أكبر"، وفي اعتبار ضحاياهما شهداء في سبيل الله نفسه، وفي الرغبة في القهر وتحطيم الآخر بوصفه رجساً وبلاء، أو عبداً يلزم قهرهُ واحتلالهُ وإخضاعه.

بلدٌ لم يعد له من مشروع غير انتظار مجيئ المسيخ الدجال وصراعه مع المهدي المنتظر، وإن لا أعرف من سيكون المهدي المنتظر المختار الآن، بعد ازدهار سوق المهادي المنتظرين في يمن اليوم، واستغراقهم في تخزين القات والهيام الرومانسي أثناء ساعاته السليمانية!

هكذا، عزيزي وحي، مرّت عبثاً ثلاثون عاماً، بين حرب "ترموست الشاي" الخاطفة في 1986، وهذه التي لم تنتهِ بعد منذ ثلاث سنوات، كلها خرائب ومجازر وفساد، وظلاميةٌ ترسّخت وتزايدت مع انسياب الزمن.

بين الحربين فرقٌ كبير، مع ذلك، عزيزي: اقتلعتْ حرب 1986 محاولةَ اليمن للدخول في القرن العشرين. غلب الطبعُ التطبّعَ عندما خلعتْ

القبائل الماركسية أقنعتها وتصادمث كقطيعين من سباعٍ هائجةٍ مسعورة.

قبلها، كنّا نحلمُ على الأقل. نتصارع مثلاً في المنظمات القاعدية حول: هل سيتم بناء الشيوعية في اليمن وتحقيق كل أحلام الإنسان "كلٌّ حسب طاقته، ولِكلٌّ حسب رغبته"، خلال 15 سنة (كما يقول جناح الطوباويين، أو الإيجابيين كما يسمّون أنفسهم)، أم 25 سنة (حسب جناح المتشائمين السلبيين، أو الواقعيين كما يسمّون أنفسهم)؟

أما اليوم، فعُدْنا، عزيزي الغالي وحي، ألفيّةً كاملة إلى الخلف، وليس في قولِ "ألفيّةٍ" هنا بحث سريع عن استعارة رخيصة، أو همّ مجازي أرعن.

انتقل القاموس السائد من مفردات: "الديالكتيك"، "البناء الفوقي والبناء التحتي"، "الانسلاخ الطبقي"، "الأممية البروليتارية"... إلى "مليشيات أنصار الله" (أي أنصار "الكهنوت الصغير")، "كتائب أهل السنّة"، "كتائب الزينبيات"، "كتائب أبو حفص الشبواني"، "مليشيات أهل الجهاد"، "كتائب شهداء الحسين"...

"عائلات أهل البيت"، "الولاية الإلهية"، "الاصطفاء الربّاني"، "القرآن الناطق وقرين

القرآن"...

"الهويّة الجنوبية"، "الهويّة الشمالية"، "الهويّة الشرقية"... وقريبا جداً ربما "الهويّة الطور الرعديّة".

بكلماتٍ هوميروسيةٍ "مُجنّحة" لا تخطئ مآلها: ها هو زمن الانحطاط بعينهِ وقدَميه. ها هي ذروة الانحطاط وقاعه معاً.

هنا "اليمن السعيد": دار الشقاء والجحيم وبئس المصير.

قبل هذا الأسبوع الأول من شهر ديسمبر، عزيزي وحي الذي أشتاقُ لرؤيته، كان أحد أكبر أحلامي السريالية (صدِّقْ أو لا تصدِّقْ) السفرَ إلى الماضي (لا أدري كيف)، ورؤيتَه كما حدث فعلاً، لا كما يحكيه الملفِّقون من أيديولوجيين وكهنة.

نعم، كان حلمي: الحياةَ المباشرة في تخوم القرن الخامس ق.م. (قبله وبعده بقليل)، في كل العالَم تقريباً: زمن الفلسفة والديموقراطية الإغريقية والتراجيديات المسرحية الخالدة، زمن كونفوشيوس في الصين، زمن سيريوس في فارس، زمن تأليف **التوراة** على يد كهنة اليهود خلال بضعة قرون: منذ شتاتِهم في بابل حتى القرن الثالث قبل الميلاد.

كان حلمي الشقيقُ: الحياةَ في القرن السادس والسابع الميلادي، في كل الجزيرة العربية، لرؤية حروب جنوبِها طوال القرن السادس، منذ الغزو الحبشي، ثم انقلاب اليهودي الحميري يوسف عازار على الملك المسيحي، وأمرِه ببناء محرقة لِمسيحيي نجران عام 523.

ثم مختلف الحروب والانقلابات والاغتيالات لهذا الملِك أو ذاك، على إيقاع شهوات القوّتين الأعظم: البيزنطية والفارسية، في موانئ البحر الأحمر، ومجيء أساطيلهما، أو أساطيل أذنابهما في المنطقة، إلى اليمن.

ثم غزوات أبرهة لشمال الجزيرة، ودعوة سيف بن ذيزن فارسَ لاستعمار اليمن...

ثم ولادة النبي محمد، قوافل تجارة أمّنا خديجة، اجتماع السقيفة (كم حلمتُ أن أكون كاتبَ محضرِه، كما كنتُ أكتب محاضر م/ق في مدرستي الثانوية، عزيزي الغالي وحي!)، ثمّ كل غزوات الدين الجديد لاجتياح العالَم شرقاً وغرباً بنجاحٍ ساحقٍ منقطع النظير.

كان كل ذلك حلم أحلامي، لأرى الماضي بأم عينيّ، وليس عبر المنشور الضوئي التزويري

للأكذوبات التاريخية التي نتوارثها من قرنٍ إلى قرن.

لعلني كنتُ سألاحظ حتماً خطأ عبارة هرقليطس العميقة: "لا يستحمُّ المرء في النهر نفسِه مرّتين"، لأننا، في اليمن على الأقل (وفي بلاد العرب عموماً)، نستحمّ في نهرِ ميّت، غدُنا ماضينا، ونحن نعاود حروب القرن السادس الميلادي اليوم.

قطعتُ كل رغبةٍ في تحقيق هذا الحلم السريالي، في هذا الأسبوع الأول من ديسمبر 2017، صدِّقْ أو لا تصدِّقْ، عزيزي وحي.

إليكَ السبب: اجتماعٌ قَبليٌ يترأسه شابٌّ مثير: قائد مليشيا الكهنوت الصغير!

لاستيعاب ميكانيكا هذا الاجتماع، نحتاج ابن خلدون، وابن خلدون فقط، لأن مفهوم "العصبية" الذي اخترعه عالِمُنا الجليل هو وحده ما يفسر كل شيء.

آه، العصبية! ما أبعدنا مع هذا المفهوم عن المجتمع المدني، وأقربنا إلى غياهب التاريخ، في أحلك ساعاته الهمجية!

وفق مفهوم مؤسس علم الاجتماع هي الطاقة العنيفة التي تُحرِّك هذه الفئة الاجتماعية أو تلك

للاستئثار بالسلطة، ثمّ تترهّل عصبيتها، ولاسيما بعد نمو جيل من أبنائها أقلّ شراسة من أسلافهم وُلدوا وفي أفواههم ملاعق ذهبية.

تأتي حينئذ فئة أخرى أشد عصبية، تطيح بها، تنتزع الحكم، تنتقم... ويستمر المدّ والجزر، بتواتر دائري، تتكلّس معه عظام التاريخ.

شابٌّ يشبه الطاغية تماماً، عندما كان في العمر نفسه (أفضلَ من "يجيد الرقص على رؤوس الثعابين" حينذاك)، ولاسيّما عندما كان ضمن من قتلوا أفضل رئيس مدني في صنعاء، لينتزِعوا الحكم منه، في أواخر السبعينيات من القرن الماضي.

الراقص الجديد على رؤوس الثعابين، هذا الشاب الجديد الذي لم يكن معروفاً قبل 3 سنوات، يواجه شيوخ وأعيان القبائل، في اجتماعٍ لا زمني، لا يختلف، في مضمونه أو شكله، عن اجتماعات حروب القرن السادس في الجزيرة العربية، أو حروب السلاجقة أو المماليك.

ماتت رغبتي في السفر إلى الماضي وأنا أتابع ذلك اللقاء بين القائد العسكري للكهنوت الصغير وشيوخ القبائل: الماضي أمامي كابوس لا يتزحزح.

ها أنذا أمام خطابٍ لم أسمع فيه كلمةً واحدة تنتمي إلى قاموس القرون الحديثة، أو لها مدلول انبثق بعد القرون الوسطى.

ولم يكن هناك رمز واحد ينتمي إلى هذا العصر أيضاً. لا ميكرفون في اللقاء، أو سلاح حديث، أو كاميرا أو حقيبة أو جهازٌ ما أو صورة فوتوغرافية.

جدار أغبر في الخلف، وحشود قبلية جالسة على الأرض أو واقفة بعشوائية، دون نظام، بنفس ملابسِ وعقليةِ ولغةِ حروب القرن السادس في جزيرة العرب. تلوك القات. في أعينها شرٌّ وشرر.

لا شيء غير عصبيةٍ وعصبيةٍ مضادّة على طريقة أيام ابن خلدون وأجدادِ أجدادِ أجداده.

وكل قاموس هذا الاجتماع ينحصر في كلمتين: "القبيلة" و"السيد". القبيلة والكاهن. الشقاء والشقاء الآخر.

خراب واحد برأسين. ثعبان قادم من قعر التاريخ يلدغ بلسان من سهمين.

عندما كنت أشاهد ذلك الاجتماع، استحضرتُ مدينتَي بومبيي وايركولانوم دون أن أبعث كلمة إلى وحي عمّا كان يدور بخاطري حينها عنهما.

في تلكما المدينتين، كنا، شُهدُ وأنا، نشاهد وعاء الماضي فقط من بيوتٍ وشوارع

ومسارح.

أما في هذا الاجتماع، فأنا أرى الماضي وعاء وبشراً. أسمعه في أكمل قبحه وعنفوانه دون مترجمٍ أو وسيط.

بفضل بومبيي وإيركولانوم، تعرّفتُ على شهد، يوم مجيئها إلى نابولي بعد رحلةٍ دراسية مع طلّابها فيهما، قبل رؤيتي لها في طابور مطعم شعبي للسمك.

زُرناهما معها، شهد وأنا، أكثر من مرّة، آخرها في صيفنا الماضي، بعد أسبوع جزيرة إسكيا. وزرتهما وحدي مرّات أيضاً.

كنا نبدأ طوافنا في بومبيي في جنوب غرب المدينة، حيث تقع ساحة "المنتدى" (فوروم)، مركز تأسيس المدينة، قبل توسّعها بعد ذلك في كل الاتجاهات.

عرفَت المدينةُ معابد مصرية قديمة (كمعبد إيزيس)، ثم إغريقية، قبل أن تسودها هذه الحضارة الباهرة منذ القرن السادس قبل الميلاد. وبقيت جذورها متينة فيها، حتّى بعد أن تغلغلت فيها الحضارة الرومانية، منذ الاستعمار الروماني عام 80 قبل الميلاد، حتى انطمار المدينة.

أهيم هنا، مع شهد، سكران في أغوار الماضي. نطوف الشوارع المتوازية المتينة ذات الطراز المعماري الجذّاب. أحب هذه الطرق الحجريّة المنتظمة التي تتخلّلها وتسمح بتصريف مياه الأمطار بسهولة.

البيوت هنا، بما فيها الشعبية الفقيرة، لا تخلو من ديكورات فسيفسائية أكثر أو أقل ثراء. أما بيوت الأثرياء، فتطرزها اللوحات والتماثيل. أزورها جميعاً، بصحبةِ شهد، بشغفٍ دائم.

جميع البيوت حجرية متينة، استطاع المؤرخون معرفة أسماء سكانها غالباً، وماهية وظائفهم.

أراهم أمامي أحياناً وأنا أتسكّع في شوارع عاشوا فيها قروناً عدة قبل الميلاد (من فرط تخيّل يومياتهم، والتفكير بهم).

حانات، مطاعم، مخابز، محلات كواية الملابس، معابد، منتديات، حمامات ومسابح، بعضها للرجال، وأخرى للنساء، مجاورة لها في الساحات نفسها.

جميع المسابح مطرّزة بالفسيفساء. أسلاكٌ مثيرة في قاعها وعلى جدرانها آتية من غرفة غليان مياهٍ غير بعيدة لتسخين مياه المسبح.

الأكثر رهبة: قاعات الإدلاء بالأصوات، ومحلات فرزها في ساحات المنتدى (لا أتجرأ على المقارنة هنا بين رقيّ مستواها في ذلك الزمن السحيق قبل أكثر من 25 قرناً وهذا الاجتماع القبلي الطازج الذي يترأسه قائد مليشيا الكهنوت الصغير، والذي أعدتُ مشاهدتَه مرات عدّة على "اليوتيوب"، من فرط سرياليته، واجتثاثه الراديكالي لرغبتي وحلمي برؤية الماضي في عقر زمنِه).

الأكثر إثارة ربما: جدران المدينة و"شخاطيط" الكتابات عليها، ولاسيما برامج المرشحين، وأسماء من يدعمونهم في حملاتهم الانتخابية.

الشخاطيط المكتوبة في الجدران أهمُّ أرشيفٍ لِتاريخ المدينة. تتزاحم فيها عبارات تعكس فكرةً، عاطفةً، رأياً، حماقات، بذاءات... جميعها مرآة الروح الإنسانية الأبدية (أبحث دوماً عن قراءة هذه الروح، بشكل حيّ، في ألواح عصبونات الدماغ الإنساني مباشرة. وليس في أكذوبات رواياتِ الراوين عن الراوين عن الراوين طوال قرون).

أمتعتني في إحدى الجدران هذه العبارة: "أيهذا الجدار الجبار، كم يذهلني أنك لم تنهر بعدُ

وتتحول إلى خرائب، من ثقل الحماقات التي تغطّيك!".

تماثيل الآلهة ونبلاء المدينة في كل مكان، ولاسيما في قلب كل النشاطات الثقافية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية الرومانية: ساحة المنتدى المدني، المنتدى المثلث، وساحة المسرح الأكبر (أمفي تياتر). وفي مقدمتها جميعاً: فينوس، إلهة الجمال والحب، حامية المدينة، دون الحديث عن هياكل بقية آلهة الرومان، كأبولو، جوبيتر...

تُرهبنا أكثر ونحن نعيش يوميات فن حياة الناس مسارخ المدينة الكثيرة. قاعة ساحة المسرح الكبير تتّسع لخمسة آلاف إنسان!

لوحاتٌ تشكيلية عن المسرحيات الشهيرة منتصّة في البيوت والمعارض الخاصة.

اللوحات في كل مكان، بما في ذلك لوحات إيروتيكية في منازل "شغيلة الجنس"، كما يقال اليوم (العاهرات كما كان يقال سابقاً): "لوبانار"، بالرومانية.

نِصْف هذه اللوحات الأخيرة معروضة في صالتين، في المتحف الوطني في نابولي.

أموت شغفاً في عبور هذا الماضي – الحاضر.

لعبَتْ الثقافة في الحضارة الإغريقية الرومانية، كما ألاحظ وأنا أطوف المدينة، دوراً رئيسياً في ازدهارها، وفي مقدمة ذلك المسرح والتراجيديات.

المسرح هنا مفتاحُ التأمل والجدل ونافذة الروح، ووسيلة تطهيره: "كاترسيس".

ربما لن أحقق حلمي السريالي بالسفرِ إلى الماضي لرؤيته على الطبيعة، كما حدث فعلاً، وبكتابةِ محضر اجتماع السقيفة، وبرؤيةِ موت المتنبي وعبد الله ابن المقفع، وبسماعِ أبي العلاء المعرّي وهو يملي لكاتِبهِ **رواية الغفران**؛ وبمشاهدةِ نظرات محمد الصغير الأخيرة لغرناطة ذات فجرٍ مريع من عام 1492 وهو يودِّع الأندلس إلى الأبد ويتأوّهُ "آخر حسرات العربي المسلم"، وبِعيشِ لحظات خالدة أخرى بلا عد أتمنى رؤيتها جميعاً بأم عينيّ...

لكنني هنا، في بومبيي، أمارس، قدر ما تسمح به الحياة، حلمي بالذهاب إلى قديم الزمان وسالف الأوان: أسمع عبور التيارات الكهروكيماوية في الألياف العصبية للماضي، أصغي إلى رجفات نخاعه الشوكي.

أما اليوم، في مطلع ديسمبر 2017، فماتت رغبتي في السفر إلى الماضي بعد هذا الاجتماع

القَبلي، عزيزي الغالي وحي، لأنني خفتُ أن يقودني ربما إلى لحظات سالفةِ سافلةِ فظّةِ قبيحة، كهذه التي نعيشها في اليمن اليوم، منذ 3 سنوات على الأقل.

صرتُ أخشى أن يقودني السفر إلى الماضي مثلاً إلى رؤية هولاكو يجتاح بغداد، ورؤية المغول عموماً، منذ جدّه جنكيز خان، وهم يجمعون سكان المدينة التي يريدون تدميرها بعد غزوها، في أرض خلاء على تخومها.

يُكلَّفُ كلُّ جندي مغولي هناك قتل عدد من الناس بالفأس!

ثم يلزمه، على وجه الخصوص، أن يبرهن ذلك بقطع آذانهم ووضعها في كيس، لِعدّها في المساء، إذا أراد ألا يُعاقبَ على تقصيره.

لم أعد أحبّ السفر إلى الماضي خوفاً من أن يقودني إلى رؤية الإمبراطور البيزنطي باسيل الثاني (958–10>25) وهو يحاصر جيشا من 15000 بلغاري، يفقأ جنوده عينيّ كل بلغاري، ما عدا مئة فقط من المحظوظين: يحتفظون لكل واحد منهم بعينٍ واحدة فقط، ليتولوا مهمة قيادة عودة الجيش إلى دياره، ما جعل كارامازوف، بطل

ديستوفيسكي، يصرخ: "لا يوجد حيوان بشع بهذه العبقرية والفنيّة كالإنسان".

لا أريد السفر إلى الماضي، لأنني أراه أمامي الآن في هذا الاجتماع القبلي. أصغي إلى خطاب الشاب الذي يحوم بين أعيان القبائل الصاغرة الخاضعة لعنفوان عصبيته الجديدة.

أصغي إليه، وأشاهده مرّة تلو المرة، لأستوعب ما أرى:

انفرط العقد فعلاً بين الطاغية ومليشيا الكهنوت الصغير، كما يبدو من سماع الخطاب.

غداً: موعد قتلِ الطاغيةِ والتنكيل به، ثم صلوات "مليونية" لِحمدِ لله على مقتلهِ، سيؤدّيها من خرجوا، "حبّاً" للطاغية، قبل أيام فقط، مردّدين: "بالروح، بالدم، نفديك يا...".

هنا القرن السادس!

لم أعد أحلم الآن، عزيزي الغالي وحي، إلا بالسفر إلى المستقبل، إلى عام 7777 مثلاً!

لاحظث فجأة، قبل نهاية اجتماع قائد المليشيا بأعيان القبائل، أن ثمّة رمزاً صغيراً خان المشهد، له علاقة بزمننا الحديث: ساعة يد، لا غير!

نعم ساعة، تشبه ساعة أبي بكر البغدادي، خليفة "داعش"، على معصم القائد العسكري

الشاب!

لولاها، ما اختلف المشهد عن أي اجتماع من اجتماعات القرون البائدة. هي وحدها من أنقذت عصريّتنا ومنعتنا من التطابق الكليّ مع اجتماعات القرن السادس.

لا أدري، عزيزي الغالي وحي، لماذا يحبّ قادة دواعش السنّة والشيعة معاً وضعَ هذه الساعات الثمينة الحديثة المتلألئة الذهبية، على نحو مرموق، بجانب ملابسهم الآتية من زمنٍ مختلفٍ آخر.

ألئنهم يعتقدون أن من يضعها على المعصم "عندهُ عِلم الساعة"، أم أنها، في يد هذا الشاب، لإغراءِ الشيوخ والأعيان فقط، ووعدِهم بأن "الساعة آتيةٌ لا ريب فيها" لكل واحد منهم، بعد مساهمتهم في "سحل" الطاغية؟

***

تبعثُ إلي وحي في إيميل عاجل وصل بعد دقائق من إيميلي الطويل:

مدهشة جداً هذه العودة إلى حروب جنوب الجزيرة العربية، في القرن السادس، عشية عقود الوحي النبويّ مباشرة!

لعلّه عائد اليوم، من جديد، من يدري؟!

وقهّاروف، نسيتَ مصير قهّاروف أستاذي الحبيب الذي أبهجني جداً أنه "أشتاق لرؤيتي"، كما قال!

وقبله، وأهم من كل ذلك، عبد الباري. كيف حاله اليوم، هذا الملاك المجنون؟

أسعدَني هذا الإيميل المقتضب؛ لم يفُتها تعبيري عن أشواقي لرؤيتها. وشعرتُ أنها لن تتأخر عن الإجابة الإيجابية على مشروع روايتنا المشتركة.

عقّبتْ:

ما آل إليه قهّاروف، عزيزي الحبيب وحي، منتهى العجب.

لكن، قبل ذلك: كلمتان حول حبيبنا عبد الباري، الملاك المجنون، كما قلتَ.

مات ابنه الثاني دفاعاً عن عدَن في حرب 1994، والثالث دفاعاً عنها في حرب 2015.

لم أره منذ ذلك الزمن. ما زال في القرية يشوي أليافها العصبية كل يوم، في الخامسة فجراً، كما قِيل لي.

ليس هناك من يلخص رمزياً جنون وبؤس حياتنا وشناعتها أكثر من عبد الباري ومصيره. "أيقونة النزيف" كما أسمّيه. إن لم يمت ابنٌ له

ضحية أساطير الماضي وطغيانها على حياتنا المعاصرة، فقد مات في حروب عصبيات الغزو القبلي أو الكهنوتي المعاصرة.

أما "ملك التعريص"، فاعلم أولاً، عزيزي وحي، أن اسمه صار الآن الشيخ الدكتور عبد القهّار.

مرّ بمراحل وعتبات، وبألوان كثيرة قبل بلوغ هذا المقام، لكنه ظلّ دوماً خلالها الابن المدلّل لرأس السلطة، رغم تساقط كلّ الرؤوس، وصعود الرؤوس المضادّة!

رجع إلى عدَن في نفس فترة عودتي الاستقرارية، في منتصف الثمانينيات. لا أدري هل نال فعلاً، في موسكو، الشهادةَ كطبيب، لأنه كان نجماً سياسياً ماركسياً لينينياً هناك، نشيطاً جداً، بل أكثر نشاطاً من اللازم. سافر في إحدى سنوات دراسته إلى عواصم عدّة في الشرق الأوسط، وساهم كما يقال "في حروبٍ مقاومة لحركات تحررية ثورية عربية"، سهَّلت له عبور بعض سنوات كلية الطب، دون امتحانات، مقابل "تضحيته الثورية الأممية البروليتارية".

في كل الأحوال، هو طبيبٌ فعلاً، وبشهادةٍ ربما، كما يبدو. وإن لا يريد، ولا يستطيع، ممارسة هذه المهنة. يكفيه اللقب: الرفيق الدكتور قهّاروف، وما

هو أهم بمليون مرّة من ممارسة مهنة الطب: النشاط السياسي في القمة.

عاد إليه بالطبع، وإن لم يفارقه أساساً. صار الطفل المدلل للقائد الأول حينذاك، قائد "الزمرة" ومخترع مؤامرة ترموست الشاي.

كلما كان يصل إلى عدَن في إجازة من روسيا، قبل ذلك وهو طالب، كانت تأتي لاستقباله سيارة مرسيديس خاصة، وسائق يرافقه، طوال بقائه في الإجازة، كما لو كان وزيراً، رغم أن هذه الامتيازات كانت قليلة ونادرة في تلك الفترة الماركسية اللينينية التي لم تعرف فساد سلطة اليوم، وصلاحية حكّامها في صرف الملايين وتوزيع الهدايا والحقوق، بلا عد، لذويهم ومقرّبيهم وحشمهم وخدمهم.

نال قهَاروف هذا الامتياز الرفيع النادر الذي ما كان لهُ لولا قرار جماعي من المكتب السياسي للحزب الحاكم!

الأعجب: صار بعد 3 أشهر من انتصار "الطغمة" الطفلَ المدلَلَ لرأسِها الجديد (أحد من لم يُقتلوا في اجتماع ترموست الشاي).

أما بعد الوحدة اليمنية، فلم يحتج 3 أشهر ليصير الطفلَ المدلّل للطاغية: حبٌّ عنيفٌ تفجّر

بينهما من أوّل نظرة.

مرّ التيار بينهما من أول ثانية، من قراءةِ الأعين فقط.

عرف الاثنان ما يحتاجه كل واحد من الآخر، من مجّرد الاختلاء وجهاً بوجه. وصار بعدها "الأستاذ الدكتور عبد القهّار" أشهرَ من نار على علَم في سماء اليمن الموحّد، والطفلَ المدلل والأثير للطاغية.

في عزّ تحالف الطاغية مع الظلاميين لِغزو الجنوب في 1994، لعب من كان اسمه قهّاروف سابقاً دوراً مهماً في سقوط مدينته عدَن، وفي النشاط الاستخباري بعد ذلك، في كل المدينة، لمصلحة مغتصِبها الجديد، رئيسِ شمال اليمن سابقاً، ورئيسِ اليمن الموحد منذ 4 سنوات، الذي احتاج حينذاك إلى الأستاذ الدكتور عبد القهّار ليخلُقَ له أرضيةً صلبةً وثيقةً فيها، وشبكةً فعّالة من "عشّاق رئيس اليمن الموحّد"، يقودها الدكتور عبد القهّار نفسه.

كان شديد الارتباط أيضاً بالحزب الديني المهم هناك، وبكل قواه الظلامية على نحو خاص. وصار يمتلك أكثر من شركةٍ اقتصادية في مجالات شتّى، إحداها لـ"طردِ الجنّ والشياطين، بالوايفاي"،

بتقنيةٍ "علميّة" جديدة، عملَ لها "براءة اختراع"، على غرار الجهبذ الفقيه الكبير، رفيقه، رأس الظلاميين اليمنيين والأب الروحي للرعيل الأول من قادة منظمة "القاعدة"، صاحب "براءة الاختراع" في علاج الإيدز بالطب القرآني.

ثم بعد قتل المخلوع الذي رفض أن ينخلع، ها هو الشيخ الدكتور عبد القهّار اليوم نجمٌ ساطع في سماء سلطة الكهنوت الصغير.

أيْ نَعَم، انقطع كلية شغفي السرياليّ الحميم للسفر إلى الماضي، ورؤيته في عقر زمانه. أخاف الارتطام هناك بهولاكو، بباسيل الثاني، بغزوٍ قبليّ، بحفلة غدر وانتقامات مثل مائدة رافين، أو بطاعونٍ أسود...

ثمّ لماذا السفر وماضينا اليمني أو العربي لا يختلف عن غَدِنا، كما أراه بأمّ عينيّ، وأنا أتابع خطاب ذلك الاجتماع القبلي في صنعاء، عشية قتل الطاغية والتنكيل به.

لم أعُد أقبل مصطلحات زائفة مثل "الزمن الجميل"، أو مشاعر معتوهة مثل "الحنين إلى الماضي". ها هو الماضي حاضرُنا، لأننا – أكرِّر – على خلاف نظرية هرقليطس: نستحمُّ في نهر ميت.

ثعابين كهوف الماضي تلتفّ حولنا، تعيش معنا أكثر حضوراً وحيوية ولدغاً وفتكاً من أي وقت مضى.

لم أعد أحنّ، بعد رؤيتها أمامي، في ذلك الاجتماع الذي لا يختلف عن اجتماعات القرن السادس، إلا للسفر إلى المستقبل، إلى عام 7777 على سبيل المثال.

يسكنني هوس الرغبة بمعرفة كيف ستحيا البشرية في ذلك العام. أريد أن أعيش معها وهي ترى القرون

السحيقة، قرونا التعيسة هذه، وتنفجر من الضحك.

أعشق الحياة، لا أخشى الموت، لكنني لا أقبل أن أجهل كيف سيكون مستقبل البشرية. كم يؤلمني ويحزّ في نفسي ذلك!

ما مستقبل الأنواع البيولوجية؟ الجديد في خريطة الأرض وموقع الجبال والجزر؟ وضع الكوكب البيئي (كم يقلقني ذلك!)، كم عدد الكوارث البيئية التي سيكون قد سبّبها الإنسان حتى ذلك العام؟ ما آخر أخبار أحفادِ أحفادِ طيور بانسون داروين؟

ما هي الأنظمة التي ستأتي بعد الرأسمالية؟

من سيحلّ، ومتى وكيف، معظم المعضلات العشرين الكبرى في الرياضيات، التي ما زالت مفتوحة (يبدّد جحافل من الباحثين أعمارهم عبثاً لمحاولة فكّ مغاليق أسرارها، منذ دهر)؟

ومن سيكتب صيغ "الحلّ العام للمعادلات الكلماتية"، كيف ومتى؟

أستعرفُ البشرية كيف كان الكون قبل "البيغ بونغ" (الانفجار الكوني الكبير)؟

أستجيبُ على أعقد الأسئلة الوجودية قاطبة: لماذا هناك شيءٌ بدلاً من لا شيء؟

استقتنص تيلسكوبات المستقبل صوراً حيّة، من الأضواء العجوزة التي تعبر الكون، للّحظات الأولى

لِتشكُّلِ كوكبنا الأزرق الحبيب، قبل أكثر من 4 مليارات ونصف مليار عام، لِأرى يومياته القاحلة خلال المليار الأولى من تاريخه قبل اندلاع الحياة فيه؟... لأشاهد الظروفَ الفريدة التي سمحت بـ"استحداث" (وفق تعبير أبي العلاء) المواد العضوية من المواد الجامدة فيه، ثمّ بِدءَ تبرعُمِ الحياة في أرجائه، بعد نحو مليار عام من ولادته:

والذي حارتِ البريةُ فيهِ

حيوانٌ مستحدثٌ من جمادِ

ولأتابع يوميات هذه الحياة حتى لحظة "الفناء السادس" الكبير الذي أدّى إلى نهاية الديناصورات على الأرض قبل 65 مليون عام.

ولأفركَ يديّ، وأنا أرمق حيوانات صغيرة جداً كانت تختفي في علياء الأشجار، وهي تنجو من لهيب تلك الطامّة الكبرى (إثر سقوط نيزك ضخم، يعرف العِلم اليوم بدقّة موقع سقوطه في المحيط، قرب المكسيك)، ثم تطوّرتْ خلال أكثر من 60 مليون سنة، قبل بدء سلسلة من مراحل مؤنسَنة.

مراحل تتوَّجَت، قبل أكثر من 50 ألف عام، بنوعنا المعاصر: هومو سابيانس "الذي حارتِ البريّةُ فيهِ"، النوع البيولوجي لِبيكاسو وآينشتاين وشهرزاد وسان تزو ومانديلا وأنديرا غاندي ومحمود درويش...

ويحي، ما زلتُ أحنّ إلى الماضي!

يزعجني أنني لن أعرف عدد كواكب مجرّات الكون التي سيكتشف العِلم فيها ازدهار الحياة، مثل كوكبنا، وبأي هيئة ستتجلّى في كل كوكب، ولن أعرف متى وكيف سيكون السفر إلى المريخ وعطارد وزحل مثل الذهاب إلى مقهى في ركن الشارع، ومتى وكيف يمكن أن ينتقل الإنسان في الزمان بكلّ حريّة، يعيش مليون قرنٍ في لحظةٍ واحدة، ويحتضن الكون بكلّ مجرّاته بقبضة يد.

لن أعرف مستقبل الشِّعر والرواية في عالمنا عام 5555، ولا كيف ستكون الأيام الأخيرة لاستعداد البشرية للحظة "البيغ كرانش" التي سيذوي معها الكونُ وينكمش في كتلة واحدة لا نهائية الصغر، أختِ ونقيض لحظةِ "البيغ بونغ" التي تبرعمَ بعدها الكون من كتلة واحدة لا نهائية الصغر.

أشعر بالقهر، والسخط أحياناً، لأنني سأموت قبل رؤية ومعاصرة ذلك، أو حتى معرفة تفاصيله لا غير.

مع ذلك، كل ما عداه، ترهات وتفاهات.

أعترف: لا يستطيع أحد التنبؤ بمستقبل البشرية في عام 2050 فقط (فما بالكم بعام 7777؟!) وإن كان موعد صناعة وتسويق "الرّحم الاصطناعي" مبرمجاً لِتخوم 2030؛ وموعد اختراع الروبوتات التي

ستحتضن الطفل وترعاه، بعد ولادته من الرحم الاصطناعي، وتُسقيه الحليب وتُربّيهِ على نحو أذكى وأفضل من تربية الأبوين الإنسانيين له، مبرمَجاً لِتخوم 2045، هذا العام الذي، وفق دراسات شركة "غوغل" ومشاريعها، سيكون عام "التفرّد"، أي (تنفّسوا بعمق، بعمق، بعمق): ستكون الروبوتات بعده أكثر ذكاء من الإنسان، وستقود وحدها العالَم!

وحدهُ عقلُ الروبوت، عندما يصبح المهيمن، قادرٌ على علاج رذائل ومصائب وخرائب عقل الإنسان، وفق آراء باحثي "وادي السيلكون" هناك في كاليفورنيا.

قد يبدو في ذلك قدرٌ كبيرٌ من الأحلام والخيال العلمي، لكن أمور الأبحاث العلمية والإنجازات التكنولوجية اليوم تسير فعلاً على إيقاع: "والعاقبةُ للحالِمين".

ألاحظ: بدأ الباحثون في مختبرات "إلغاء الموت"، في شركة "غوغل"، قبل عامٍ أو عامين، مشروعات (بميزانيةٍ ضخمة) لِدراسة الموت، والتخلّص منه كما لو كان مرضاً لا غير.

شعارُهم: "كان الموت لغزاً مبهماً، أما الآن، فهو إشكالية علميّة يلزم حلّها!".

أشعر هكذا أن كل ما سيحدث في مستقبلِ المستقبل ليس أكثر من توسيعٍ لِدوائر الزمان والمكان، فقط، لا

غير.

فعلى شاكلة تلميذِ اليومِ الذي يقول أحياناً: "سأعيش، بعد الثانوية العامة، في بلدٍ آخر، عامين أو ثلاثة فقط، لكسر الروتين وتغيير الجوّ، قبل العودة إلى بلدي"، سيقول طالبُ عام 7777: "لتغيير الجو، سأعيش في كوكبٍ فيه حياة، ألفَ عامٍ فقط، قبل العودة إلى قريتنا الصغيرة: الكوكب الأزرق".

وكما تقول حكمةٌ اليوم: "وطنك ليس البلد الذي وُلِدتَ فيه، لكن البلد الذي تعيش فيه سعيداً"، ستقول حكمةُ عام 7777: "وطنك ليس الكوكب الذي وُلِدتَ فيه، لكن الكوكب الذي تعيش فيه سعيداً".

وألاحظ: لا يشكّ أحد أنه في حدود 2050 سيندمج الإنسان والكمبيوتر في كائن جديد، هومو زيوس، "الإنسان الإله"، وستكون الجسور العضوية المباشرة التي تربط الإنسان بالكمبيوتر بلا عد: جسور تربط ذكريات الدماغ ومعارفه ببرمجيات الكمبيوترات مباشرة، وذهاب وإياب بينهما في الاتجاهين دون توقف.

بإمكانكَ حينئذ أن تُنزِّل كتاباً من الكمبيوتر إلى دماغك مباشرة، دون الحاجة إلى قراءته، وبإمكانك أن تمحو ذكريات لا تروق لك من دماغك مباشرة بوضعها في سلة مهملات الكمبيوتر المرتبط بالدماغ.

كل هذا بعد نحو 30 عاماً من الآن!

لكن، إلهي، ماذا سيحدث بعد 5759 عاماً من اليوم، في 7777؟

كيف ستكون الطبيعة الإنسانية عام 7777؟ وكيف سيكون مستقبل البشرية فيه، حروبها، أمراضها، العلاقات بين شعوبها، حكوماتها (إن لم تكن لها حينذاك حكومة واحدة فقط، أم هل سيحيا مجتمع "الإنسان الأعلى" يومذاك دون حكومة؟)، بل ما مستقبل الإنسانية قبل 5000 عام من 7777؟ قبل 5677 منه؟

كيف ستكون العلاقة بالآلهة، بمفهوم "الوحي" الذي يهبط من السماء حاملاً "الحقيقة الدامغة المطلَقة"؟

ماذا سيكون رأي الكمبيوتر والروبوتات حول ذلك؟

أحترق شوقاً لمعرفة الإجابات عن كلّ هذه الأسئلة.

من لي ببروميثيوس يسرق لي الإجابة عنها من دماغ علّام الغيوب؟!

بانتظار الموعد، تُهمّني بصورة خاصة عطلة شتاء 2018!

إجازة رأس العام قضيناها، شُهدُ وأنا، في باريس دون إشكال. كنتُ، كما عاهدتُ نفسي: متفرّغاً كلياً لِشُهدي طالما كانت بجانبي (مراسلاتٌ مع وحي في لحظات مضمونة جداً، عندما تكون شُهدُ على بُعد كيلومترات).

الأهم: اقترحتُ لِشُهد أن نقضّي عطلتنا الشتوية في دول الجزيرة والخليج عموماً، بدءاً بظفار في شرق اليمن، وصعوداً نحو الجبل الأخضر، مسقط، الإمارات، قطر، البحرين، الكويت، السعودية...

وافقتْ، لأنها طالما اقترحت بنفسها أن نزور هذه الديار المثخنة بالتاريخ والأساطير، التي لا نعرفها رغم قربها الجغرافي والثقافي والعاطفي منا، نحن الذين نعرف كل العالَم من منغوليا إلى أرخبيل غلاباغوس (دون المرور، حتى الآنْ، بجمهورية أذربيجانْ التي صارت عُقدةَ حياتي، هي ودراسة علوم طب الأسنانْ).

ثم يأستْ مني. وهذه المرة، أنا مقترِحُ فكرة زيارتها! سبحان الله!

يسكنني كل تاريخ هذه الديار، من مملكة الأنباط والبتراء في شمال الغرب، إلى ملكوت اللبان والبخور في جنوب الشرق، مروراً بالحجاز، من زَبيد وباب المندب في جنوب الغرب (حيث اليمن الذي أعرفه وحده، عن ظهر قلب تقريباً) إلى الكويت في شمال الشرق.

تأسرني كل قصصها وأساطيرها وقصائدها وحروبها ولوعات عشّاقها.

هي من صنعتْ الطبقات الرسوبية الأولى لثقافتي.

كل هذه الأسماء الأكثر أو أقل هلامية أو وهمية: الأحقاف، إرم ذات العماد، عاد وثمود، زرقاء اليمامة، وادي عبْقر، سوق عكاظ، سدّ مأرب، المعلّقات السبع، قصر ملكة سبأ الذي حملهُ، من اليمن، عفريتٌ من الجنّ "عنده علمٌ الكتاب" للملك سليمان في فلسطين، قبل أن يرتدّ إليه طرفُه؛ وكل هذا الطابور من قبور ومآثر الأنبياء، الأكثر أو أقلّ أسطورية: إبراهيم، موسى، محمد، هارون، صالح، هود، أيوب، عمران، شُعيب... الذين نزل عليهم الوحي (الذي يبدو أنه يؤرق ليالي حبيبتي وحي)، لم تتوقف عن إثارتي وجذبي.

وكل هذا الطابور من آثار الأرجل المباركة: قدم ناقة صالح في صلالة، رِجل النبي هود في مدينة هود الحضرمية القريبة...

ومع ذلك، لم نزر هذه الديار حتى اليوم!

ألاحظ: كلما كانت الشخصية المقبورة لا تنتمي إلى التاريخ العلمي، ولكن إلى الديني فقط، زاد عدد قبورها، هنا وهناك، بين فلسطين، وسيناء، وجزيرتنا العربية.

لسيّدنا موسى وحده تسعة قبور كما يبدو!

ظلمٌ في كلّ الأحوال أن أجهل هذه الديار، مرابع ثقافتي الأولى، أنا الذي تقبع، في قاع روحي، باديةٌ أحبّها وأشتاق لها على الدوام.

لا أتذكرَ أن يوماً في حياتي مرّ دون أن أستحضر زهير بن أبي سلمى:

ودارٌ لها بالرقمتين كأنها
مرابيعُ وشمٍ في نواشر معصم
بها العِينُ والآرام يمشينَ خلفةً
وأطلاؤها ينهضنَ من كل مجثمِ

تمرّ أمام عينيَ يومياً مناظر العِين والآرام وهي تمشي إلى الخلف. تعيش روحي على إيقاع هذه الأطلاء التي تنهض ببطء، من كل مجثم.

ثمّة خللٌ منطقيٌ في هذه الحياة التي تجعلني اليوم قادراً على وصف كل المسافة التي تفصل مدينة سيدني، في جنوب شرقي أستراليا، عن مدينة داروين شمال غربيها، فيما لم أضع قدمي حتى اليوم في الربع الخالي، أو في وادِ شهيرِ غير ذي زرع، أو في الطائف وتبوك، أو في ملكوت اللبان والبخور والعطر واللؤلؤ... ولم أتسكّع يوماً في مرابع زهير بن أبي سلمى، عنترة بن أبي شداد، امرئ القيس، عمرو بن أبي ربيعة الذي قال:

إذا أنت لم تعشق ولم تدرِ ما الهوى
فكن حجراً من يابس الصخر جلمداً

في كل الأحوال، ليس ثمّة أي منطق عقلاني يوجّهُ هذه الحياة. هي ابنة المصادفات والقيود والظروف السياسية والاجتماعية، "متاهةٌ تصنعها المصادفات

والمفاجآت، الحاجة والضرورات، الغدر والخيانات، والسعادات الصغيرة أيضاً"، كما تقول رواية **حفيد سندباد**.

ما يُهمُّني اليوم لتعويض كل ما فات: نجاح هذه الزيارة الحميمة إلى جزيرتنا العربية التي تأخَّرتْ عمراً كاملاً.

برمجتْ رحلتنا كي أصل، قبل شُهد بأسبوع، إلى المدينة الميثولوجية الرائعة: صلالة (قلب ظفار، على يمين المَهْرة وحضرموت في اليمن)، الأخت الصغيرة لعدَن.

سأنتظر شُهدي هناك. ستأتي إليها من باريس، وأنا من ميناء إسطنبول.

وسأقترح على وحي أن نلتقي، ولو هنيهات، خلال هذا الأسبوع الخالي، حيثما تحب وتستطيع، "لأحْظى بمصافحتها" على الأقل، ما لم يكفي حينئذ اتصالها الهاتفي للتحية الشفوية.

هدفي: إن لم أحْظَ بلقاءٍ عابر في أي مكتبة أو حديقة، أو على الأقل بمكالمة هاتفية منها، خلال هذا الأسبوع، فليس ثمّة أدنى أمل في التعرّف عليها. وسيشجّعني ذلك على محاولة وقف العلاقة معها تماماً.

لكني أحترق شوقاً لرؤيتها في الواقع، لقبولها مشروع روايتنا المشتركة سريعاً، ولِشكرها على كل هذه

الأسئلة والتفاعلات والجدل الذي بفضله أعرف نفسي، وأعرف العالَم، أفضل من قبل.

لا أتوق إلا إلى مزيد منه، وفتح أبواب جديدة معها، سرديّةٍ وإنسانيةٍ حميمة...

المشجِّع: كل ردودها الأخيرة لا تنفي إمكانية اللقاء، وإن أشعر عندما أفتح لها موضوعه أنها أسيرة حيرةٍ صمّاء.

حالما أقترب من التلويح بمقترحه، تختلجُ كلماتها، تنقبضُ عباراتها، لدرجة أنني لم أعد أحب تكرار المقترح.

ثمّة أملٌ ما، كما أشعر. لكن هناك صعوبات جسيمة، كما يبدو.

أتوجّه إلى صلالة بحراً من ميناء إسطنبول.

السعادة التي غمرتني وأنا في الميناء ليست فقط لأنني سأجد قريباً شبه جزيرتي العربية الحبيبة، وشمسها الدافقة الناعمة في الشتاء، ولكن لأنني الآن في ميناء القسطنطنية، بكل ثراء تاريخه وتاريخ مدينته الميثولوجية الخالدة التي يتعانق فيها الشرق والغرب، وبكل ما عرف أخيراً من توسيع وتطوير مذهلين.

لأحدّدَ أولاً مصدر كثافة هذه السعادة التي أشعر بها عندما أجد نفسي في هذا المكان أو ذاك: تخضع كميّة السعادة (أو الشقاء) الذي أشعر به لِصيغةٍ رياضيةٍ

دقيقة تساوي المتوسط الرياضي لمجموع كميّات السعادة (أو الشقاء) التي عشتها في هذا المكان نفسه سابقاً!

لعلي في ذلك أشبه ببارومترٍ زئبقي وهو يقيس مقدار الضغط الجوي.

لذلك أشعر بالسعادة الكثيرة عندما أمرُّ شارعاً، أو أقبع في ركنٍ، لم أعرف فيه سابقاً غير لحظاتٍ سعيدة، ذكرياتٍ حميمة مترعة بالعشق، أو مفاجآت جميلة.

ولذلك تنخفضُ سعادتي، بل تتحوّلُ أحياناً إلى أحاسيس تشوبها القلق، عندما أجد نفسي في مكان عبرْتُهُ في لحظات خيبات قديمة، وإن كانت في الطفولة، أو عشتُ فيه موعداً مهماً ضائعاً، أو اعتورني فيه قلقٌ أو نكدٌ أو سخطٌ من منغّصات هذه الحياة.

ولذلك أيضاً: عندما أكون في مدينةٍ بحريّة، ولاسيما في ميناء يعجّ بالسفن، وتستعدّ فيه سفينتي لإرخاء حبال الرحيل، أعيش سعادةً ميتافيزيقية لا توصف.

لعلّ لذلك أيضاً: كل بيت في كوكَبي الطوباوي "مايا"، قصرٌ، وكل قصرٍ سفينةٌ في الوقت نفسه، وكل مدينةٍ ميناءٌ بَحرُهُ يملأ النظرَ من نافذة القصر حتى الأفق الأرجواني، يمكنك أن تسير فيه على الماء كنبيٍّ توراتي، باتجاه أي قارة. على رأسكَ سحب من أسراب عصافيرٍ

وطيورٍ بلا عد، بأشكال وألوان أبتكرُها جديدةً يوماً بعد يوم.

وباتجاه أي كوكب أيضاً: ما إن تتمناه لتراه على بعد سويعة من ناظريك، يسبح على ماء البحر (أميلُ كثيراً إلى زيارة الكوكب الأحمر: المريخ، وزُحل، وعطارد).

أصلُ ميناء صلالة. أستأجر سيارة، وأبدأ بطواف المدينة قبل التوجُّه إلى الفندق.

أجد نفسي، بلا وعي، بادئ ذي بدء، أبحث عن القصور الثريّة الكبرى في المدينة. أجد أحدها في حيّ الحصن، المجاور لِحيّ الحافة.

طفتُ حوله مرات عدّة بلا وعي أيضاً.

سورٌ هائل يضم عشرات، بل ربما مئات، الفيلات، ومباني بلاطٍ سلطانيٍّ أو أرستقراطي. موصدٌ تماماً، كما لو كان "المدينة الممنوعة" في بكين، أو قلعة ألَموت التي بناها ملك الإرهابيين وأدهاهم وأكثرهم ثقافة: حسن الصباح، رفيق عُمَر الخيام.

أتساءل بقلق: أتحيا وحيٌ هنا في هذا الصمت الجنائزي؟ أتقضي حياتها هنا في ترجمة صفحات "الويكيبيديا"؟

أبعث إيميلاً حال وصولي الفندق لأبدأ به هذا الأسبوع التاريخي الحاسم قبل مجيء شُهد. قلتُ فيه:

عزيزي الغالي وحي،

ها أنذا قريب من ديارك، جئت مُتعشِّماً رؤيتك، أو مصافحتك، أو حتى اتصالك الهاتفي المباشر.

مثل كل "وحيٍ" يحترم اسمه، حان موعد "التجلّي" ربما، وحيي العزيز، لتحملَ أخيراً اسمك بجدارة!

أعود من جديد إلى شعائر الطوف حول القصر، أو حول السجن: لم أرَ إنساناً يغادره أو يدخله!

أهي في هذا القصر تحديداً، أو في مثله. أشعر بالاستغراب الحاد: لماذا يبدو هكذا أشبه بقلعةٍ حصينة، بمقبرة؟

بانتظار الرد على الإيميل، بدأتُ التسكّع في هذه الديار الظفارية، تمهيداً للرحلة مع شُهدي، بعد أسبوع.

خريطة الطريق: ريخوتْ، خرفوتْ، افتلقوتْ، ضلكوتْ، دمغوتْ، وربما مدينة قريبة في اليمن: سيحوتْ...

الرحلة تتحوّل إلى قصيدة شِعرٍ في هذا الملكوتْ (خاطرةٌ دهمتْ ربما سيّدنا يونس وهو يتأمل ويفكّر في بطن الحوتْ)، أي في ملكوت هذه الديار الظفارية المهريّة الحضرمية التي ينبع الشِّعر من أديمِها وبعيرِها وكثبانِها ونخيلِها وبريقِ أعين بناتها، في قلب "جمهورية الأحقاف الديموقراطية".

آه، هذا الاسم الميثولوجي الخالد: الأحقاف[10]، عُمان واليمن: طرفًا العربية السعيدة!

10 صحاري ووديان جنوب جزيرة العرب.

لم أحتج وقتاً طويلاً إلى السقوط في غرام هذه الديار، بل في غرامها العاتي، يلزم أن أقول.

غابات وتلال أشجار اللبان تحيط بصلالة. أشجار مقدّسة. أسَرَني الشحم الأخضر الشفاف ذو الرائحة العبقة الذي يخرج منها، عندما يجرحها الإنسان بشفرة خنجر أو سكين. أعشق استنشاقه ولوكه ومضغه معاً.

لكل شيء في هذه الديار رائحة اللبان والبخور والعود، كأنما الأرض العُمانية بأسرها تستحمّ في حمّام لُبان وعطر، كل صبحٍ ومساء.

النخيل الخصبة في كلِّ صلالة. ثمارٌ غدقة، عيونٌ وأودية خلّابة، وعصافير كما أعشق، في كلّ مكان.

أستحضر تاريخها منذ القرن الثالث قبل الميلاد، عندما مدّ أهل حضرموت نفوذَهم إلى ظفار، وبنوا ميناء سمهرم لتصدير اللبان (مصدر ثروة عظيمة وسعادة حينذاك)، وحكَم المنطقة: ملكُ سمهرم، ومكربُ[11] حضرموت.

11 لقب رسمي للحاكم في اليمن، أعلى من لقب ملك، يعطى لمن يتجاوز ملكُه أرض مملكته.

أعود إلى الوراء، أستحضر زمناً أقدم من ذلك بكثير. عندما كانت كل هذه الديار فردوس الأرض مرتعاً للأودية في كل مكان.

تنحدرُ أنهارُها من أعالي جبال اليمن وظفار إلى أقصى شمال شرق الجزيرة العربية الخضراء اليانعة، قبل الجفاف الشديد الذي تعرّضت له في نهاية عصر البلايستوسين، لِينتشر بعده التصحّر وشبه التصحّر الحالي، في بقاع شاسعة من أرض الأحقاف المقدّسة.

هاجر معظم سكانها، بعد الجفاف، شمالاً، ومنهم من صمد وتمركز في السواحل والأطراف.

انضافت إلى حياتي بسبب هذه الأفياء الساحرة محنة جديدة: عشق اللغة المهريّة.

ثمّة مجموعة لغاتٍ هنا آتية من رفات اللغة السبئية القديمة، أي من بقايا جذور العربية الحديثة.

أتساءل: هل تتكلم بدويّتي - الأوروبية الحبيبة، وحي، إحدى هذه اللغات؟

كان حلمي القديم أن أتعلّم اللغة السواحلية، لغة أجداد البشرية في شرق أفريقيا، لغة "أكونَ متاتا"، ورقصة "هيا لَوي، هيا لَوِي، يا مُلَئجَة".

أما الآن، وقد توحّدتُ مع هذه الديار الظفارية، وعشقتُها بضراوة، بعد أربعة أيام من وصولي وانتظاري ردَّ وحي على أحر من الجمر، فقد انضاف شغف جديد:

تعلّمُ المهريّة، حفظُ وترجمةُ شِعرِها، الإصغاءُ إلى حِكَمِها...

قرّرتُ هكذا ألّا أسمّي فصل الخريف، بدءاً من اليوم، إلا على الطريقة الظفاريّة المهريّة السبئية: خرفوت، وأن أضيف كلمات سبئيّة جديدة على قاموس مندثر: عِشقُوت (العشق)، وَحيُوت (وحي)...

عبر هذه اللغات سأسافر من الباب الذي يقود إلى عالمَين: أصول العربية، وبقايا السبئية.

وإلى باب ثالث ربما: العبرية التي تشبه كثيراً هذه اللغات[12].

12 يكفي ملاحظة أن اسم مجلة "يدعوت حرانوت" العبرية اليمينية المتطرفة، يعني: "آخر المعارف"، أو: "قمة المعارف"، في حين "حورنوت" بالشحرية الظفارية والمهرية تعني "قمة"، و"أدعوت" تعني "عرفت".

أربعة أيام من القلق. كدتُ أفقد بعدها كل أمل في لقاءِ وحي، متأكداً أن إيميلي الذي بعثتُهُ بعد وصولي صلالة كان نهايةَ العنقود.

ثمّ في عصر رابع يوم، جاءني الرد، وأعاد إلي الحياة!

عزيزي الغالي وأستاذي غسّان،

أعتذر عن التأخر في الرد: لم أفتح الإيميل لظروف سيئة خاصة.

سعيدٌ جداً بوصولك إلى دياري، أستاذي وعزيزي الحبيب، أو "سعيدةٌ" في الحقيقة.

نعم، ستكتشفُ أنني أنثى، لكنني اضطررتُ إلى إخفاء هويّتي جنساً واسماً، لاحتياجي إلى التمويه، كما شرحتُ لك في أوّل رسالة.

أخبرني أين أنت في ظفار، وسأحاول أن أمرّ لتحيتك، رغم الصعوبات والعراقيل!

أمَ المفاجآت! بركانٌ بهجةٍ يتفجّر في شراييني بحجم بركان جبل فيزوف العظيم.

لم يخنّي إحساسي: ما كان لهذه العلاقة العظيمة أن تمّحي بين عشية وضحاها دون لقاء. أحسنتُ في مجيئي هنا للتعجيل برؤيتها.

ردّي على الإيميل كان سريعاً جداً. تركتُ فيه أم الأسئلة التي قد يحول موعد ردّ وحي عليها دون التمكن من لقائنا ربما.

مفاجأة المفاجآت، عزيزتي الحبيبة وحي. انتظرتُ هذا اللقاء مثلكِ طويلاً. لم أتصوّر لحظة واحدة أن تستمر تفاعلاتنا دون أن تنتهي به. ما أسعدني اليوم!

لكن من أي اتجاه ستجئيين؟ أأنتِ قريبة أم بعيدة من موقعي الآن؟ ومتى ستصلين؟ اليوم؟ غداً؟ بعد غد؟

للتذكير: لن أكون هنا لمقابلتكِ بعد هذه الأيام الثلاثة.

بعثتُ عنواني الحالي، حيث أوقفتُ سيّارتي، وألقيتُ رحلي على تخوم مراعي الجِمال خارج قرية الحشمان، على بعد نحو 250 كيلومترا شمال صلالة، في حافة أجمل وأكبر صحراء في العالم (ثلاثة أضعاف مساحة بريطانيا): الربع الخالي.

كم أشعر بسعادة لا توصف وأنا في صحراء تخرّج منها أروع الشعراء وأعظم المجانين!

حولي كثبان مهيبة هائلة تحيطني من كل جانب. جبالٌ من الحرير. تلالٌ من الرمل بِلَونٍ صحراويٍّ أمغر ناصع، لا يخلو من توهّجات ذهبية برتقالية حمراء.

للكثبان أشكالٌ ومنحنياتٌ وتماوجاتٌ آسرة، حادةُ الحافات أحياناً: نهود، مؤخرات نسوية رقيقة، جزر، أمواج بحْريَة عملاقة، تلال، أهرامات، قواقع، حيوانات أسطورية...

للطبيعة هنا مناظر وألوان مريخيّة (على بعد 15 كيلومتر مني فريقٌ سينمائي يُصوِّر المكان كبديلٍ عن مناظر يفترض تصويرها في الكوكب الأحمر!).

لديّ خيمةٌ أحضرتُها ونصبتُها وحدي. زادي: مقاديد[13]، حجارة خاصّة لشواية اللحم، حطب، حليب إبِل، تمر، خبزٌ بدوي، طحين، قهوة عُمانية، وصمت الصحراء العميق، ولاسيّما في هذه السويعات اللدنيّة التي تسبق الغروب الناعم البطيء.

أستعدُّ للطبخ على طريقة البدو، أتدرّب لإذهال شُهد (هي التي لا تحبُّ إلا أن تكون الحياة سلسلةً من مفاجآت حميمة دائمة).

أبدأ إشعال حطب النار وسط الموقد الصحراوي (حول مواقد كهذه اجتمع الشعراء والحكماء قديماً، وقالوا أحلى الكلام. أتخيّلهم حولي، أصدقائي الأحباء: زهير وعنترة، ليلى بنت المهلهل وتأبطّ شراً، النابغة الذبياني، وامرؤ القيس طبعاً).

ثمّ أكوِّم عليه الحجارة الخاصّة بعد تنظيفها، لأضع عليها لاحقاً مقاديد لحمِ رضيعِ الجَمل، الخاص بوجبة "المضبي" البدوية العُمانية.

أحيّي هذا الغروب المقدَّس بكأسٍ نبيذٍ شعشعانيٍّ ختامُه مِسك، "سيجعل عُمَر الخيام يستيقظ من قبره"، وفق مصطلحٍ شعبيّ.

ألاحظ: في علياء الكثيب المواجه لي شجيرةٌ وحيدةٌ غريبة! كيف يمكن أن تنمو شجيرة في هذا السياق المريخيّ، هنا في أنقى وأجفّ صحراءِ (تحمل اسمها بجدارة: الربع الخالي)؟

سأعرف لاحقاً من أحد سكان قرية الحشمان أنها نمت إثر مطر نادر غزير دام نحو أسبوع عام 2002.

ثمّة إعجاز في نموّها، أو لِنقل: هي من نوعٍ نادر له جيناتٌ خضراء مباركة سعيدة، تكيّفتْ داروينياً مع هذا الجفاف العظيم.

أشعر بسعادةٍ لا توصف في هذه البادية الصحراوية، بعد أن أحتجتْ ساعة أو أكثر لأدرك أن وحي ستأتي أخيراً، وإن لا أدري بعدُ متى بالضبط.

تضاعفتْ سعادتي وأنا أندمجُ في المكان بانتظارها، أعبر صفحات كتاب هذه الكثبان حافياً كقلم رصاص، أتفجّر سعادة.

أتمعّن في تشكيلاته الساحرة، أحلِّق في فضاءاته اللانهائية المفتوحة، أتمضمض سحر هذه اللحظات، أعيشها ببهجة لا توصف.

أتحدّثُ مع الرمال كما أتحدث مع الحجارة، أستنطقُها تاريخَ من عبروا هنا، يوميات امرئ القيس، زهير بن أبي سلمى، عنترة العبسي، طرفة ابن العبد، ليلى بنت المهلهل، كعب بن زهير، تأبّطَ شرّاً، النابغة الذبياني...

يطلّ القمر كاملاً من خلف الكثيب الذي تقع عليه الشجيرة، أمام الخيمة مباشرة. نجومُ الصحراء تغمرُ السماء، تملؤها من الأفق إلى الأفق. شهُبٌ قريبةٌ مني، بين الآن والآن. ووجهُ البدوية –الأوروبية، وحي (ذي الجمال الفاتن، كما صمّمته ريشة ليوناردو دافينتشي تخيلاتي)، ينتصّ فجأة ملء صفحة السماء، يرتسم على

كل هذه النجوم المتلألئة القريبة جداً من الرمال المحيطة بالخيمة، يملأ كل فراغ الربع الخالي...

أنام بقلبٍ يرتجف مع اقتراب موعد رؤيتها. غدا صباحاً؟

أم غيهبُ الغسق الإلهيّ هذا هو موعد اللقاء الربّاني الذي أنتظره بقدسيّة؟

فلعلني – من يدري؟ – أعيش غسقاً شبيهاً بالذي جعل شاعراً بديعاً يقول يوماً هذه الآيات الخالدة:

جاءت معذبتي في غيهب الغسق
كأنها الكوكب الدريّ في الأفق
فقلتُ: نوّرتني يا خير زائرة!
أما خشيتِ من الحرّاسِ في الطرقِ؟
فجاوبتني ودمع العين يسبقها
من يركب البحر لا يخشى من الغرق

ثمّ صحوتُ إنساناً آخر يغمره الأمل العارم والصفاء الذهني الخلّاق والطاقات الإيجابية الدافقة.

الفجر مريخيٌ بامتياز. بزوغهُ لحظةٌ إلهية. القمر في منتهى اكتماله، خلف الخيمة الآن.

أشعلُ وقيدَ الحطب مجدداً لنشر الدفء في هذه السويعات الباردة.

أصعدُ نحو الشجيرة المنتصة في علياء أكبر كثيب لرؤية الشروق منها واستقبالِ وتحيةِ الشمس.

الشوق متوهّجٌ كثيفٌ جداً، يرفرف كعصفور بانسون وقع في شبكة اصطياد، في مركز شارل داروين الدولي في غلاباغوس.

الشمس تُطلّ كشيخ عجوز ينهض ببطء. هذا الشيخ إله الصحراء. كل رمالها وفضائها تركع له، تخافه، وتُحبّه.

ريحٌ صحراويّةٌ خفيفة تداعب سفوح الكثبان، تجعلها تنزلق هنا وهناك، تعيد رسمها وتشكيلها، تُحرّك عليها أمواج غبارٍ رقيقةٍ تشبه عُرف الخيل.

أهبط نحو الخيمة. أنظر باتجاه الشجيرة. يبدو لي كأن إنساناً يقف بجوارها. رجُلٌ؟ بدويّةٌ – أوروبية؟

لا يمكن من هنا تمييز من يقف في الأعالي، خلف ستار عُرف الخيل الغباري.

أهرعُ صاعداً نحو الشجيرة. ثم في منتصف الطريق، ألاحظ أنني لم أعد أرى أحداً بجانبها.

أهبط خائباً. ثم أراقبها من جديد. عاد الطيف بجوارها. لا أهرع هذه المرّة. أنتظر طويلاً لأتأكّد أنني لا أحلم.

أعرف أن الصحراء مملكةُ السراب (ظَمْأنوت باللغة المهرية). وهذا الربع الخالي ملكوث سراب كل الشعراء والأنبياء والحالمين.

أتمعّن بتدقيق...

أرى فعلاً إنساناً واقفاً بجانب الشجيرة، ولا أحتاج إلى قرصِ جلدي، لأنني ما زلت ألهثُ إثر صعودي السريع وهبوطي قبل قليل.

أهرعُ من جديد نحوه. وفي منتصف الطريق، لا أرى أحداً. خيبةٌ أخرى.

لكن يقيني ثابت أنني قد رأيت إنساناً بأمِّ عينيّ. ولا يستطيع أحدٌ زحزحة هذا اليقين، بما في ذلك أي فريق من المتخصصين في "علم النفس الصحراوي"، أي في طبيعة النفس البشرية التي تعيش في ظروف الأفياء الصحراوية.

ثمّة سرّ لا أستطيع استيعابه.

أهي المساحات الدماغية في تقاطع مناطق الشعور ومناطق التماهي مع الشعور؟

ألئنَّ "معادلة الوحي" (إسقاطٌ تخيليٌّ خصب + تماهٍ نفسيٌّ حاد = حقيقة دامغة) تتحقّق، أفضل ما تتحقق، في خلاء الصحراء، مسرحِها العظيم بامتياز؟

أم أنني لو بقيتُ شهراً واحداً هنا، دون أن يحيطني فريق من المتخصصين في علم النفس الصحراوي، فسأتحوّل مجنوناً أو مهديّاً منتظراً أو طيفاً أو نبيّاً أو إلهاً صحراوياً؟

أعود خائباً إلى الخيمة. لا أنظر مجدداً باتجاه الشجيرة. أعيد قراءة إيميل وحي الأخير، للمرة السابعة

والسبعين: "أخبرني أين أنتَ في ظفار، وسأمرُ لتحيتك!".

أنتظرُ اللحظة الإلهية لوصولها، أنتظر التحية، هنا قرب هذه النار، بجانب هذه الخيمة.

يتقدّم الصباح ويزداد شوقي ويقيني بأن موعد وصول وحي لن يتأخر. بانتظاره، أدخل في مونولوج بين نفسي ونفسي:

– ماذا تفعلُ هنا؟

– أنتظر، أبحث عن سر، عن إنسان، عن نص، عن عشق جديد...

– لماذا؟

– لستُ غير إنسانٍ يحبّ الآخر. يعشق تدوين هموم وأوجاع حياة الإنسان عموماً، وسعاداته وتطلّعاته، للتعلّم منها والتمتع بقراءتها.

حين يتفاعل ويناقش ويفكّر ويكتب ويعيش، لا همّ له غير التعبير عن شغفه في التغلغل في تفاصيل أوديسة يوميّات البشر.

بكلمة واحدة: لا همّ له غير التفاني في التعبير عن مزيدٍ من حبّه للآخر، هوموسابيانس، الإنسانية جمعاء.

– وما غرضك من ذلك؟

– أحب الكتابة، ابنة محيطنا الجغرافي، من بلاد الرافدين والشام إلى مصر، مروراً بجنوب جزيرة العرب.

هي ذروة ما ابتكره الإنسان، وما يُميّزه عن بقية الكائنات الحيّة. "يتبخّر الكلام، وتبقى الكتابة دوماً"، كما تردّد البشرية في كل زمانٍ ومكان.

أعشق الراوية، وأحب الإنسان. ولعلني بكتابة الرواية مع وحي سأترك بصمةً ما في أوديسة البشر، وإن كان ريحُ الزمن سيمحوها خلال ثوان. لا يهمّ!

أو لعلني سأحرثُ قطعة نصّ أدبيٍّ صغيرةً مشتركةً معها، وإن لن تساوي ربع ريال في بورصة الأبدية. لا يهمّ!

– بماذا ستفتتح هذه الرواية؟

– بعبارة نيتشه: الكلام الأكثر صمتاً يُحرّك الزوابع، الأفكار الآتية بأقدام الحمائم تقودُ العالَم.

– ماذا تريد أن تسرد بها من أفكارٍ وقصصٍ تحملها أقدامُ حمائم؟

ينقطع الحوار الذاتي لأنني ألاحظُ وصولَ إيميلٍ طازج جديد من وحي للردّ على استفساري: من أين ستأتي ومتى؟

سآتي من باريس، وفي الموعد الذي تعرفه.

أرجو أن لا تشعر بالخيبة والأسف عند رؤيتي.

كان مُعلّما جداً ومرشداً لي كل هذا الحوار: أجاب عن أسئلة وجودية كنتُ أبحث عن مقاربات

لها، بشهاداتٍ إنسانيةٍ صادقةٍ حميمة، كشهاداتك الشخصية التي لم تحكِ لي إياها مطلقاً من قبل!

وبأضواء محطاتٍ ومصائرِ حيواتٍ عاصفة، كالأخوين عبد الباري وعبد القهّار؛

ومن يوميات ومصير بلدٍ حزين ومدنٍ جريحة: اليمن، عدن، صنعاء، تعز...

بل ذهب الحوار أبعد من ذلك وأعمق بكثير: تغلغل في أوضاعنا الاجتماعية والسياسية العامة، في التاريخ والفلسفة، ذهب عميقاً نحو جذر الآلام، نحو المنبع.

فتشَ عن طرائق جديدة لاستيعاب واقعنا الحضاري العربي.

همُّهُ الأكبر: خوضُ مشروعِ حياةِ الإنسان من منظورٍ ناضجٍ مختلف، بروح الحريّة المطلقة، بقيَمٍ إنسانية ساميةٍ راقيةٍ حديثةٍ جديدة، ودون جعجعة أو ضجيج...

وكان الحوار كاشفاً وصادماً جداً لي، على الصعيد الشخصي أيضاً:

علّمَني أنك لستَ إلهاً كما كنتُ أتصوّر!

يمكنك السقوطُ في عشق امرأةٍ أخرى غيري وإن كانت افتراضية!

ويمكنكَ أن تقع بسهولة في الفخ، شريطة أن يكون سقف الإغراء عالياً: اكتشافُ أسرار قصرٍ ملَكي، بمعونةِ إحدى سجيناته: فتاة تُخفي هويّتَها وراءَ اسمٍ ساحر يُسيل لعابَك: وحي، تعرفُ كيف تُفجِّرُ به كل تأملاتك!

وكان الحوار جارحاً صاعقاً في الحقيقة، كاد أن يحرق دماغي أحياناً، إن لم أقل غالباً.

يمكنك أيضاً أن تكذب عليّ حتى آخر ثانية لِبلوغ ما تصبو لاكتشافه!

ثم لعلكَ لم تخسر شيئاً، بل بلغتَ منالك في آخر المطاف: الروايةُ التي تبحث عن كتابتها بالاشتراك مع وحي، تصل، بهذه السطور التي تقرؤها الآن إلى صفحتها الأخيرة! أليس كذلك حبيبي؟

اييييييييي!

دوارٌ عاصف يجتاحني.

الوحي المضاد يقصفني هنا، يسحقني، تحت سماء صحراء الربع الخالي (ملكوتُ الوحي والنبوءات، عادةً)!

يا للقهر! ما أجفّ صِيَغِ رياضيات الوحي المضاد، وما أعبس ترسيماته!

وما أجمل وأمتع وأدفأ قصائد الوحي والوهم والاستيهامات والخروج عن النص!

ما أتعس قيود كوكبنا الأرضي ومحظوراته، وما أروع انزياحات "مايا" وتسكّعاتها الزمكانية!

كم كنتُ ساذجاً حتى العظم، أنا الفخور برؤيةِ الثقبين في قبّة وباب محراب جامع العيدروس، وبامتلاكِ عينين كتلسكوب غاليلو وميكروسكوبه!

لم أتساءل لحظة واحدة: ما الفرق بين هاذين الثقبين النورانيين، وحي وشُهد؟

وحيْ (التي لدغتني في بدء هذه المغامرة بإيميل مُغْرٍ معطاء، مُترَعٍ بالغوايات، وجرّتني إلى أن أسرد قصّة حادث جامع العيدروس) تلعبُ معي، بعد ذلك، دور إمام ذلك الجامع، وهو يُبرعم الأحلام الشعبية من نسغ القوة السحريّة للوهم!

تتماهى وحي مع إشفارا وهو يخلق الكون من ماجما تلك القوة اللانهائية نفسها!

تتسلّى وحيْ، أم تُفتّشُ عن شيءٍ ما؟

تبحثُ عن مادةٍ خام حول مفهوم "الوحي" للتنظير حولها في أطروحةٍ فلسفية؟ أم تجوب في سراديب الروح وأنفاق الذاكرة، تُفكّكُ مغاليق أسرارٍ قديمة، تفتحُ أقفالاً عصيّة، تسبر أغواراً دفينة، تجدف وسط ثقوبٍ رخوة ورمالٍ متحرّكة، تتوغّلُ في غابةٍ مظلمة، تمارس التجريبَ والتساؤل الحرّ والتوريط ولويَ الأقدام والمناورات الفكريّة الفطينة، لِغاياتٍ فلسفيّةٍ أجهلُها؟

غاياتٌ ذات علاقة – من يدري؟ – بدراسة جينوم الإيمان في الطبيعة الإنسانية، وتغيّرات العلاقة الزئبقية بالعالَم الآخر، انطلاقاً من فحص وسبر خريطة تلافيف روحِ شريكِ حياتها، أنا.

وربما، كما أظن، والله أعلم: ذات علاقة وشيجة، قبل وبعد كل شيء، بدراسة صلة كل هذه الظواهر والتحوّلات والتداخلات والتقلبات بلغز الوجود وطبيعة الإنسان، بالمكان والزمان، وبمسائل شائكة أخرى تهمّ معشر الفلاسفة...

لا أعرف، في الحقيقة!

كل ما أعرفه تماماً هو أنها، وكل مفاجآتها ومطبّاتها ومناوراتها ورحلاتها ونظرياتها وفلسفتها، هاويةٌ من الإلهام والوحي والومضات والإيماءات الإلهيّة، أقدسُ الهاويات!

حول الكتاب

نبذة

تصل رانية خشّاب إلى الأورغواي في بعثة ديبلوماسية مثّلت لها قمّة حلمها المهني بعد سنوات من الدراسة والعمل. لكنّ حلمها الشغوف بالبحث عن ذاتها يسرق منها هذا المنصب.

تدخل رانية في متاهات الأثرياء وهمومهم، وتجد نفسها في شِباك علاقة ثلاثية، وحتى رباعية، تقودها كلها إلى وحيد الذي كانت تجمع عنه فتات الأحاديث وبعض الصور القديمة.

عن المؤلف

عبدالله فرحات بروفيسور محاضر في جامعة القديس يوسف، بيروت. عميد كلية الحقوق سابقاً في جامعة الحكمة، بيروت. محام بالاستئناف ومستشار سابق للبنك الدولي. وزير سابق في الحكومة اللبنانية ونائب سابق لدورتين في البرلمان اللبناني.

الأعمال الكامله
t.me/kotbhm